لا أحد يتعلم من التاريخ
قيصر جديد

لا احد يتعلم من التاريخ
قيصر جديد

مقالات

تأليف :

بيشوي القمص

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/22457

الترقيم الدولي: 978-977-820-043-0:

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلةِ القانونية.

لا أحد يتعلم من التاريخ

قيصر جديد

بيشوي القمص

مقالات

«إلى أمي وأبي.. لعَلِّي لم أخيب أملهما..»

أنت تفهم كثيرًا، وهذا سر شقائك..
لو كنت حمارًا لأصبحت سعيدًا الآن

نيكوس كازانتزاكيس

*نيكـوس كازانتزاكيـس: كاتـب وفيلسـوف يونـاني (١٨٨٣- ١٩٥٧) مـن أشـهر رواياتـه «زوربـا اليونـاني» و«الإغـواء الأخـير للمسـيح».

مقدمة أفضل من أفضل مقدمة

بَارَت مَرَاعِيَنَا وَالْبِئْر قَد جَفَّ
وَالْجُوْع يِكْوِينَا وَالْصَّبْر مَا كَفّى
وَالْقَلْب لَا يَهْدَا وَالْجُرْح لَا يُشْفَى
وَلِأَنَّنَا طَوْع
زِنِّا لَهُم خِفّا
جَاءُوَا بِمَوكَبِهُم
وَاشْتَغَلْت الْزَفَّة
الْدَّفِة مَظْبُوطَة
وَأَصْلا مَافِيش دَفَّة
وَالْكَفَّة مُش مَايْلة
عَلَشَان مَافِيش كَفَّة
وجُحَا الّلِى جَاي بِالْلَّيْل لِسَاه بِيتَخْفّى
شَايِف دِيْدَان الْغَيْط سَارِحَة وَمَارَحِمَاشي
مِن جُبْنِه شَاف الدُّوْد سَابَّه وَرَاح مَاشَي
وَلَا اتكسِف لِلْنَّاس
وَلَا حَس عَلَى طُوَلِه
الْنَّاس عْشَمهَا كَبِيْر جَرْيُوا بيَشْكُولِه
ضَحِك جُحَا ضِحْكَة مَوَاشِي
مَادَام بَعَيْد عَن طِيَنّي... مَاشَي
الدُّوْد قَاعِد لَك يَا جُحَا وَلَابد في طِينِك

بَعْد مَا يَمُص فِي دِمَانَا مُش حِيحَلَالُه إلَا طِينِك
إحْنَا أهْلَك
إحْنَا رَجَالَتك عِمَّادّك
إحْنَا وَقْت الْشِّدَّة سَنَدك
إحْنَا زَادَك
يَا جُحَا احْمِي وْلَادِك
لَو كُنْت عَايِز تحْمَي طِينِك
سَوْف أَرْحَل
رُبَّمَا يَلْقَانِي مِن أرْجُو لَقَّاه
هامَشي وَيَا الشَّحَّاتَين
وَابْكَي عَلَى حِلمِي الّلِي تَاه
بَس مش هَاشحت رَغِيْف
هَاشحت وَطَن لِلَّه

من قصيدة «جحا» - هشام الجخ

مقدمة

يقول الفيلسوف الألماني الشهير فريدرش هيجل: «نتعلم من التاريخ، أن أحدًا لم يتعلم من التاريخ».

ويقول الفيلسوف الألماني كارل ماركس: «التاريخ يعيد نفسه مرتين، في المرة الأولى كمأساة وفي الثانية كمهزلة».

ويقول الفيلسوف الإسباني جورج سانتيانا: «الذين لا يقرأون التاريخ محكوم عليهم أن يكرروه».

ويقول الرئيس الأمريكي هاري ترومان: «لا جديد في هذا العالم إلا ما تجهله من التاريخ».

ويقول الكاتب والشاعر الفرنسي ستيفان هيسيل: «الذين ينسون التاريخ يحكم عليهم بأن يعايشوه من جديد».

ويقول الأديب والكاتب المصري نجيب محفوظ: «آفة حارتنا النسيان».

ويقول أمير الشعراء المصري أحمد شوقي: «كل شيء في مصر ينسى بعد حين».

سبع سنوات كاملة انقضت على ثورة الحرية ولا يزال الأغلبية يكررون نفس الأخطاء القاتلة بعينها دون أن يتعلموا من التاريخ.

سبع سنوات كاملة مرت دون أن تحقق الثورة أيًّا من الأهداف التي قامت لأجلها، ولا يبدو أنها ستحققها في القريب العاجل.

سبع سنوات كاملة جعلتنا نتأكد بما لا يدع مجالًا للشك أن ما يحدث الآن قد حدث في السابق، وأن التاريخ يكرر نفسه بشكل منتظم ودوري، والأحداث تتكرر إلى حد التطابق، كما قال الفيلسوف الألماني كارل ماركس.

ربما لو قرأ هؤلاء التاريخ لاستطاعوا أن يتجنبوا الكثير من الدم والقهر ويعبروا بالمصريين إلى الحرية والدولة الديمقراطية الحديثة. لكن نتعلم من التاريخ، أن أحدًا لم يتعلم من التاريخ.

هذا الكتاب هو محاولة متواضعة لسرد بعض الأحداث التاريخية التي حدثت في السابق، والمتعلقة بعلاقة الحاكم بالمحكوم والسلطة بالشعب، والتي تكررت في مصر في السنوات الأخيرة بطريقة تصل إلى حد التطابق وبشكل غاية في الغرابة، دون أن يلتفت عاقل إلى أننا نكرر الأخطاء ذاتها التي فعلها أسلافنا وبنفس الأسلوب.

كل تلك الأمور قد حدثت بالفعل، لكن لا حياة لمن تنادي في ظل تجهيل وتغييب وتعتيم على التاريخ الذي تم بالفعل تزييفه، لأن التاريخ يكتبه المنتصر وفقًا لهواه وليس وفقًا للحقيقة، فصارت الهزيمة نكسة، والانقلاب ثورة، والثورة مؤامرة...

لا أحد يتعلم من التاريخ
انقلاب البرازيل

لـم يـدر في خلـده، وهـو يتقلـد منصبـه رئيسًـا للجمهوريـة، ولا حـتى في أسـوأ كوابيسـه قاطبـة أن تكـون تلـك هـي نهايتـه.

ففـي ٨ سـبتمبر ١٩٦١، تمكـن «جـواو جـولارت»، الـذي كان يعـرف اختصـارًا بــ «جانجـو»، مـن دحـض غريمـه في الانتخابـات الرئاسـية، ليصبـح الرئيـس المـدني المنتخـب الرابـع والعشريـن لدولـة البرازيـل، لكـن «جـولارت» الـذي لـم يعـرف عنـه غـير الخطابـات الرنانـة عـن اليسـارية والاشـتراكية، كان أبعـد مـا يكـون عـن رئيـس دولـة بحجـم البرازيـل، فسـاءت الأحـوال عـلى جميـع الأوجـه بسرعـة مطـردة، وبحلـول النصـف الثـاني مـن عـام ٦٢ كانـت الأحـوال الاقتصاديـة قـد تدهـورت بشـكل مريـع، زاد الأحـوال سـوءًا قيـام حملـة إعلاميـة ضخمـة شـنها رجـال السياسـة والإعـلام والجيـش عـلى جـولارت متهمـين إيـاه بأنـه يسـعى لتحويـل البرازيـل نحـو الشـيوعية، ونتيجـة لتلـك الحملـة انهـار تصنيـف الاقتصـاد البرازيـلي، ونـأت البنـوك عـن إقـراض البرازيـل وانهـار الريـال البرازيـلي، وتدهـور مسـتوى معيشـة الفـرد بشـكل كبـير، وسـاهم ثلاثـة مـن كبـار رجـال الإعـلام والمـال وهـم «روبرتـو مارينهـو»، «أوكتافيـو فريـاس»، و«هوليـو فيلهـو»، الذيـن يملكـون معًـا معظـم الصحـف ومحطـات الإذاعـة والتلفزيـون في البرازيـل، في حملـة ضخمـة لتأجيـج الشـعب البرازيـلي ضـد جـولارت، وفي ١٩ مـارس خـرج البرازيليـون بدعـم مـن الجيـش في مظاهـرات، تـم دفعهـا وتحريكهـا بواسـطة رجـال الأعمـال والطبقـة الوسـطى، وبمباركـة الكنيسـة، مطالبـين بتدخـل القـوات المسـلحة ضـد «جـولارت» في مظاهـرات عرفـت بــ «المظاهـرات العائليـة مـع

الـرب».

كمحاولـة فاشـلة لـرأب الصـدع في البيـت المتهـدم، ألقـى جـولارت في مـارس ١٩٦٤ خطابًـا، دعـا فيـه إلى إجـراء إصلاحـات هيكليـة وتأميـم أربـاح الـشركات البرازيليـة الكـبرى لصالـح الفقـراء، وذهـب إلى قـادة الجيـش طالبًـا دعمهـم، ظنًـا منـه أن الجيـش سـوف يدعمـه بـلا جـدوى، وفي ٢٥ مـارس ٦٤ تمـرد ٢٠٠ ضابـط مـن الجيـش مؤيـدون للرئيـس جـولارت، واعتصمـوا في قاعـدة بحريـة لتنفيـذ مطالبهـم بمنـاصرة إصلاحـات جـولارت، لـم ينقـض الكثـير مـن الوقـت حـتى نجحـت المفاوضـات في إخـراج هـؤلاء المعتصمـين ليتـم القبـض عليهـم بتهمـة العصيـان، ممـا دفـع بشـعبية جـولارت إلى الأرض، وزاد مـن نقمـة الشـعب البرازيـلي عليـه. قيـل بعدهـا أن ضابطًـا عميـلًا للجيـش يدعـى «هوزيـه لويـس انسـالمو دوس سـانتوس» هـو الـذي قـام بتأليـب زملائـه للاعتصـام، وأن هـذا الاعتصـام كان مدبـرًا مـن قيـادة الجيـش لإظهـار أن البرازيـل وجيشـها عرضـة لخطر الانقسـام، وبالطبـع اختفـى «سـانتوس» ذاتـه.

كاسـتجابة سريعـة لحركـة الشـارع وفي ١ ابريـل ١٩٦٤، تدخـل العسـكر بقيـادة قائـد الجيـش «هومبرتـو دي إلينـكار كاسـتيلو برانكو» الشـهير بالمارشـال «برانكـو» لعـزل الرئيـس «جـواو جـولارت»، بحجـة أنـه كان يمهـد لتحويـل البـلاد إلى الشـيوعية والـزج بالبـلاد في حـرب أهليـة، وسـط تأييـد شـعبي عـارم، وقـام «برانكـو» مـع رئيـس المحكمـة الدسـتورية العليـا بتنصيـب رئيـس البرلمـان «رانـيري مانزيـلي» رئيسًـا مؤقتًـا لمـدة عـام واحـد كمرحلـة انتقاليـة، لتمهيـد الطريـق إلى انتخابـات حـرة حقيقيـة يختـار فيهـا الشـعب مـن يمثلـه عـلى حـد تعبـير «برانكـو» ذاتـه.

بعـد الانقـلاب مبـاشرة، كان هنـاك نقـاش حـول إذا مـا كان مـا حـدث في البرازيـل ثـورة أم انقلابًـا، وبالطبـع أطلـق الجيـش البرازيلي عـلى مـا حـدث «ثـورة ١٩٦٤»، في حـين أطلقـت المعارضـة اليسـارية

عليه انقلابًا، وكتب أحد الصحفيين الموالين للنظام العسكري البرازيلي في إحدى الصحف قائلًا: «لقد أُنقذت البرازيل بواسطة ثورة شعبية فريدة، على أيدي وطنييها المخلصين الذين عملوا في مجموعات معتدلة وملتزمة بالقانون، غير أن المرحلة الفاصلة من الثورة حُسمت عن طريق تحرك عسكري، لقد أثبت العسكريون البرازيليون مرة أخرى أنهم حراس الأمة المؤتمنون، وحُماة الشعب المخلصون، والمدافعون عن إرادته، ولهم الكثير من الاحترام لولائهم العظيم والتزامهم بواجباتهم، وعدم ظهور ما يشير إلى رغبتهم في التشبث بالسلطة».

لم يمر سوى أحد عشر يومًا من الانقلاب، حتى ضرب «برانكو» بوعوده عرض الحائط وترشح للمنصب، وفي ١١ إبريل ١٩٦٤ انتخب الكونجرس البرازيلي المارشال «برانكو» رئيسًا للبلاد في ظل تأييد شعبي غير مسبوق، وتعهد برانكو في خطابه للشعب بأنه لن يستمر في الحكم سوى عامين، يسلم بعدها البلاد قوية وموحدة لحاكم مدني منتخب.

بعد الانقلاب، كانت التوقعات أن تقوم حرب أهلية في البرازيل حينما ينهض الفقراء الموالون للرئيس جولارت لدعم الشرعية، لدرجة أن أمريكا حركت قطعًا من سفنها بالقرب من سواحل البرازيل لدعم الجيش البرازيلي إن احتاج ذلك، لكن سوء الأحوال الاقتصادية المتردية في عهد جولارت حالت دون ذلك فلم يتحرك هؤلاء الفقراء مطلقًا.

قامت حكومة «الثورة» (كما أطلق عليها مؤيدوها) بإلغاء تعددية الأحزاب السياسية، وسمح فقط بحزبين سياسيين موالين للنظام، هما «تحالف التجديد الوطني» و«الحركة الديمقراطية البرازيلية»، وقسم الجنرالات وأنصارهم أنفسهم على الحزبين، ثم أعلن «برانكو» دستورًا جديدًا للبلاد، وبدأ بقمع الحركات الطلابية والعمالية، فلم يمر يوم بدون إضراب أو تمرد من

طلبة الجامعات، وقوبلت الحركة الثورية بعنف فاق التصورات من النظام، الذي صار شعاره «إما أن تحب البرازيل وتعيش فيها أو تتركها»، في ظل رضا ومباركة شعبية لعنف النظام ضد المعارضين باعتبارهم «عملاء» و«خونة» لا يحبون الوطن ويكرهون الخير لبلادهم، واعتمد النظام على فكرة تهييج المشاعر الوطنية، وانتشرت عبارات كان مصدرها اليمين البرازيلي المؤيد للنظام تقول «إن أمن البلاد أهم من الحقوق الفردية» و«الشعب البرازيلي ليس مؤهلًا للديمقراطية»، إلا أن الحركة الثورية كانت أقوى من الشرطة والجيش ومن شعارات اليمينين، فقابلها النظام بـ «فرق الموت».

بدأت ظاهرة «فرق الموت»، أو «اسكوادراو دا مورتي» بالبرتغالية، في ولاية «جوانابارا» بقيادة ضابط شرطة اسمه «ماريسكوت ماريل»، ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء البرازيل كافة، وغالبًا كانت كل فرقة موت يقودها ضابط شرطة سابق أو خارج نطاق خدمته، ويعاونه مجموعة من حملة السلاح يسمون بالبرتغالية «جستيسيروس» ويقومون بتنفيذ الإعدام في المعارضين السياسيين وقيادات طلبة الجامعات، وكان التنفيذ يتم باختطاف المشتبه فيه ثم قتله بعيدًا عن الأضواء، لكن لم تفلح فرق الموت في القضاء على المعارضة اليسارية في البرازيل، وتحول الطلبة من العمل العلني نحو العمل السري وشكلوا تنظيمات للعمل تحت الأرض، وكان من المعتاد وقتها أن يترك الطلبة دراستهم ويتجهون للعمل السري خوفًا من ملاحقة فرق الموت، إحدى الطالبات التي حذت هذا الحذو كانت تدعى «ديلما روسيف»، وألقى القبض عليها في يناير ١٩٧٠ في «ساو باولو» وحكم عليها بالسجن ست سنوات من محكمة عسكرية، وتم تعذيبها داخل المعتقل، لكن تم الإفراج عنها في نهاية ١٩٧٢.

أدى حكم برانكو العسكري إلى تدهور الوضع الاقتصادي بشدة، ووصل معدل التضخم عام ١٩٨٤ إلى ٢٢٣٪، صاحبه ارتفاع جنوني في الأسعار، فاعتمد على المساعدات والقروض الأجنبية والمعونات اعتمادًا كليًا، حيث تسابقت البنوك الأمريكية لإقراض البرازيل كونها الآن في ذات المعسكر ضد الشيوعية، وأدت تلك القروض بعد ثلاثين عامًا لانهيار اقتصاد البرازيل بعد عجزها عن السداد.

بعد انتهاء مدة رئاسة الجنرال برانكو عام ١٩٦٧، تولى المنصب وزير دفاعه الأكثر منه عنفًا الجنرال «ارتور دا كوستا اي سيلفا»، كان «سيلفا» شديد الكره للمعارضة لدرجة أنه هدد «برانكو» في السابق بالانقلاب عليه لما وصفه بتسامح برانكو مع المعارضة، وبعد ٤ أشهر من رحيله عن منصبه وفي يوليو ١٩٦٧، اصطدمت الطائرة التي يستقلها «برانكو» بالقرب من مدينة «فورتاليزا» شمال البرازيل، ولقي برانكو مصرعه.

أصدر «اي سيلفا» الرئيس الجديد «القانون المؤسسي الخامس» وهو تشريع يبيح لرئيس البرازيل حل البرلمان في أي وقت، ووصف بأنه أسوأ تعديل دستوري في تاريخ البرازيل. رحل «سيلفا» وجاء بعده جنرال آخر أكثر تطرفًا هو الجنرال «ايميليو ميديتشي»، وخاض حربًا عنيفة ضد حركتي «ماريجيلا» و«لاماركا» الثوريتين وقتل كل زعمائهم، وفي حوار صحفي مع وزير المواصلات البرازيلي العقيد «ماريو أندريازا» قال: «هذه ليست ديكتاتورية عسكرية، لو كانت كذلك لما سُمح لـ «كارلوس لاسيردا» (صحفي وسياسي يساري معارض) أن يقول ما قاله، كل شيء في البرازيل حُر، ولكن تحت السيطرة».

كان النظام يعمل جاهدًا على إيهام الشعب أن البرازيل هي قائدة العالم أجمع، ففي أحد الكتب المقررة على طلبة المرحلة الثانوية في البرازيل سنة ١٩٧٣ كان التالي:

«في العـام العـاشر مـن الثـورة، نـرى البرازيـل وهـي أرض شاسـعة تتمـيز بالعظمـة بـين أمـم أمريـكا الجنوبيـة، وهـي أرض الأمـل، الـتي قُـدر لهـا القـوة وقيـادة العالـم، يشـكّل سـكانها البالـغ عددهـم ١١٠ ملايـين شـعبًا غربيًـا موحـدًا للأبـد في إبـاء وشـجاعة، نحـن نشـتهر بكـرم الشـخصية والخصـال المسـيحية، نحـن نمتلـك مـوارد للـثروة الهائلـة، حـتى خريطـة البرازيـل تبـدو كالقلـب البـشري، فهـي قلـب يضـم ثـروات مـن المـوارد الطبيعيـة الغنيـة، هـذه بـلادي، وأنـا فخـور بـأن أسـمي نفـسي برازيليًـا».

عمـد الجـنرالات إلى تسـويق مشروعهـم الاقتصـادي الـذي أطلقـوا عليـه «المعجـزة الاقتصاديـة»، الـذي يتلخـص في بنـاء أكـبر عـدد مـن ملاعـب كـرة القـدم عـلى حسـاب المستشـفيات والمـدارس، في محاولـة منهـم لإلهـاء الشـعب عـن القضايا الرئيسـية، ووصلت نسـبة بنـاء الملاعـب إلى المستشـفيات والمـدارس في الحقبـة العسـكرية إلى ٤ ملاعـب كـرة قـدم لـكل مدرسـة أو مستشـفى، وبـدا واضحـا أن سـيطرة الجيـش عـلى البرازيـل أصبحـت كاملـة.

لكـن مـع نهايـة عـام ١٩٧٣ بـدأت المشـاكل أمـام النظـام في الظهـور، ووجـب سـداد القـروض الـتي اقترضهـا العسـكر، وبـدأ النظـام يفقـد شرعيتـه شـيئًا فشـيئًا مـع مـوت حركـة المعارضـة اليسـارية تمامًـا، تلـك الـتي اعتمـد عليهـا النظـام في شرعيتـه، كـون وجـوده ضروريًـا للاسـتقرار وضروريًـا لمحاربـة التطـرف اليسـاري، ويالغرابـة، كان نجـاح الانقـلاب الكامـل في القضـاء عـلى المعارضـة كان هـو في ذاتـه بدايـة انهيـاره، حيـث انتفـت الحاجـة إليـه، ومـع ازديـاد الديـون وعجـز البرازيـل المتزايـد عـن السـداد وارتفـاع أسـعار النفـط، وازديـاد سـخط الطبقـة الوسـطى المؤيـد الأقـوى للحكـم العسـكري، تـولى الجـنرال المتقاعـد «إرنسـتو جيزيـل» الحكـم في عـام ١٩٧٤، ولتخفيـف السـخط بـدأ الجـنرال «جيزيـل» في تخفيـف القيـود، فألغـى الأحـكام الـتي أعطتـه سـلطة حـل البرلمـان، وسـمح

للهاربين بالعودة دون محاكمة كما خفف القيود على حرية التعبير فيما عرف بسياسة «ابيرتورا» أو الانفتاح.

وفجأة أفاقت الحركة الثورية من سباتها العميق، وشهدت البرازيل أول إضرابات عمالية منذ الانقلاب، وبدأ البرازيليون في النزول للشوارع في مظاهرات ازدادت وتيرتها حتى عام ١٩٨٥، وتوحدت المعارضة البرازيلية تحت شعار واحد وهو «الانتخابات المباشرة»، ونزل البرازيليون للشوارع مطالبين بذلك على اختلاف انتماءاتهم، وهكذا بدأ الحكم العسكري ينحسر رويدًا رويدًا، ووصلت رحلة الحكم العسكري في البرازيل إلى آخر محطاتها بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٩ بعد واحد وعشرين عامًا من الحراك الديمقراطي والعمالي المعارض للنظام، وفازت المعارضة بكل انتخابات أجريت في البرازيل، بدايةً من الانتخابات البرلمانية، مرورًا بانتخابات حكام الولايات، ثم انتخابات الرئاسة في عام ١٩٨٥.

لكن النظام العسكري لم يلقَ جزاءه حتى بعد سقوطه أمام الحكم المدني، فقد أصدر العسكر قانونًا للعفو العام سنة ١٩٧٩، ليتمكنوا من تأمين أنفسهم ضد أي أنواع للمحاسبة، الجدير بالذكر أن ضحايا العسكر في نهاية حكمهم قد وصلوا إلى ٤٣٤ حالة اغتيال سياسي، و٢١٠ في عداد المفقودين حتى الآن.

بداية من الحقبة الجديدة، حققت البرازيل نموًا اقتصاديًا كبيرًا، خاصةً في عهد الرئيس «لولا دي سيلفا»، وعُزل العسكريون عن السياسة دستوريًا وشعبيًا، وشُكلت عدة لجان لتقصي الحقائق، كان هدفها حصر ضحايا انتهاكات حقوق الإنسان والجرائم السياسية في فترة الحكم العسكري، وفي الأول من يناير ٢٠١١ تسلمت «ديلما روسيف» الناشطة اليسارية والمعتقلة السابقة الوشاح الرئاسي من «لولا دا سيلفا» بعد فوزها بالمنصب، وفي ٢٠١٢ شكلت «روسيف» لجنة للتحقيق في جرائم القتل والتعذيب

الـتي ارتكبـت في عصـور الاسـتبداد، وتعلنهـا مدويـة «يجـب ألا ننـسى الأعمـال الوحشـية الـتي ارتكبـت خـلال ٢١ عامًـا مـن الحكـم الديكتاتـوري».

لا أحد يتعلم من التاريخ
مجنون ألمانيا

ربما لم يتخيل هو شخصيًا، ولم يدر في خلده ولا في أقصى شطحات أحلامه أنه سيكون يومًا ما، صاحب الكلمة العليا بل الوحيدة في البلاد.. لكنه القدر، القادر على أن يضع الفشلة ومنعدمي المواهب على رؤوس السلطة.

في ٢٠ أبريل من العام ١٨٨٩، ولد أدولف هتلر في برونو بالامبراطورية النمساوية المجرية، لأسرة وضيعة، فقد كان والده «ألويس هتلر» موظفًا بسيطًا في الجمارك، وكانت والدته «كلارا هتلر» الزوجة الثالثة لوالده، وكان هتلر الابن الرابع من أصل ستة أبناء، وعاش طفولة مضطربة للغاية، حيث كان أبوه عنيفًا في معاملته له ولأمه، وكانت السبب المباشر في تعثره في التعليم، وكان كل شيء يوحى بمستقبل مليء بالفشل، وتأثر هتلر منذ طفولته بروح التحيز الديني التقليدية التي كانت سائدة في فيينا في تلك الفترة، وورد على لسان أحد أصدقاء طفولته وهو «أوجست كوبزيك» أن ميول هتلر في معاداة اليهود قد ظهرت قبل أن يغادر مدينة «لينز» في النمسا، وأنه كان ينتظر «حتى ينضج ويصبح قادرًا على التخلص منهم»، وأكد هتلر كلام صديقه عندما صرح لاحقًا أن اعتقاده في وجوب معاداة السامية ظهر لأول مرة في فيينا، التي كانت تعيش فيها جالية يهودية كبيرة تشتمل على اليهود الأرثوذكس، الذين فروا من المذابح المنظمة التي تعرضوا لها في روسيا.

بدءًا من عام ١٩٠٥، عاش هتلر حياة بوهيمية في فيينا على منحة حكومية لإعانة الأيتام، ودعم مالي كانت والدته تقدمه

لـه، وتـم رفـض قبولـه في أكاديميـة الفنـون الجميلـة في فيينـا في عـام ١٩٠٧ لأنـه «غـير مناسـب لمجـال الرسـم»، وعندمـا كان في الحاديـة والعشريـن مـن عمـره، حـاول أن يشـق طريقـه بجهـد كرسـام في فيينـا، حيـث كان ينسـخ المناظـر الطبيعيـة الموجـودة عـلى البطاقات البريديـة ويبيـع لوحاتـه إلى التجـار والسـائحين لكنـه فشـل أيضًـا، وبحلـول عـام ١٩٠٩، كان مالـه كلـه قـد نفـد، فعـاش هتلـر في مـأوى للمشرديـن، ومـع بدايـة عـام ١٩١٠، كان هتلـر قـد اسـتقر في مـنزل يسـكن فيـه الفقـراء مـن العمـال في Meldemannstraße.

تطـوع هتلـر في الحـرب العالميـة الأولى مـع الفـوج البافـاري الاحتياطـي السـادس عـشر، وانتهـت الحـرب بتقلـده رتبـة «جيفريتر»، وهـي رتبـة تعـادل وكيـل عريـف في الجيـش البريطـاني، وتقلـد هتلـر وسـامين تقديـرًا لشـجاعته في الحـرب، حيـث تقلـد وسـام الصليـب الحديـدي مـن الدرجـة الثانيـة في عـام ١٩١٤، وتقلـد أيضًـا وسـام الصليـب الحديـدي مـن الدرجـة الأولى في عـام ١٩١٨، وهـو تكريـم نـادرًا مـا يحصـل عليـه عسـكري مـن رتبـة «جيفريـتر»، ومـع ذلـك، لـم تتـم ترقيـة هتلـر إلى رتبـة أعـلى نظـرًا لكونـه يفتقـر إلى المهـارات القياديـة مـن وجهـة نظـر قائـد الفـوج الـذي كان ينتمـي إليـه.

وفي ١٥ أكتوبـر ١٩١٨، دخـل هتلـر أحـد المستشـفيات الميدانيـة إثـر إصابتـه بعمـى مؤقـت عقـب تعرضـه لهجـوم بغـاز الخـردل، ويشـير العالـم النفـسي الإنجليـزي «ديفيـد لويـس» إلى أن إصابـة هتلـر بالعمـى قـد تكـون نتيجـة إصابتـه بحالـة مـن الهيسـتيريا وليس بسـبب الغـاز، نتيجـة شـعوره باقـتراب الهزيمـة، وبعدهـا بشـهر واحـد، وقعـت ألمانيـا بالفعـل وثيقـة استسـلامها في الحـرب العالميـة الأولى المعروفـة بمعاهـدة فيرسـاي، لتتضاعـف بسـببها صدمة هتلر، وتتدهـور حالتـه النفسـية أكـثر وأكـثر، وبعـد تلـك الواقعـة سـيطر عـلى هتلـر هاجـس أن سـبب وجـوده في الحيـاة هـو «إنقـاذ ألمانيـا»

وبـدأ يعـبر عـن تلـك الهواجـس للمقربـين منـه.

بعـد انتهـاء الحـرب العالميـة الأولى، تأثـر هتلـر بأفـكار حـزب العمـال الألمـاني DAP المعاديـة للسـامية والقوميـة، والمناهضـة للرأسـمالية، فانضـم للحـزب، واتسـعت شـعبيته بشـدة، وفي بدايـات عـام ١٩٢١، بـدأ هتلـر يتمكـن بشـكل كامـل مـن إجـادة فـن الخطابـة أمـام الحشـود الكبـيرة، وفي فبرايـر مـن نفـس العـام، تحـدث هتلـر أمـام حشـد يضـم حـوالي سـتة آلاف فـرد في ميونيـخ، مثبتًـا قـدرة إعجازيـة عـلى الإقنـاع، وفي محاولـة لزيـادة شـعبية الحـزب، قـام الحـزب بتغيـير اسـمه إلى «حـزب العمـال الألمـاني الاشـتراكي الوطـني Nationalsozialistische Deutsche Arbeiterpartei

الـذي يعـرف اختصـارًا باسـم NAZI، وفي اجتمـاع الحـزب الـذي عقـد في التاسـع والعشريـن مـن يوليـو ١٩٢١، وافـق أعضـاؤه عـلى طلـب هتلـر بتـولي رئاسـة الحـزب.

في عـام ١٩٢٣، نفـذ هتلـر مـع ميليشـيات الحـزب النـازي محاولـة فاشـلة للانقـلاب عـلى الحكومـة، والاسـتيلاء عـلى السـلطة في بافاريـا وألمانيـا، سـميت بانقـلاب «بـير هـول Beer Hall Putsch» وانتهـت المحاولـة بالفشـل الذريـع، وسـجن رئيـس الحـزب النـازي آنـذاك أدولـف هتلـر، وتـم حظـر نشـاط حـزب العمـال الألمـاني الاشـتراكي الوطـني وأعضائـه في بافاريـا، ومـع ذلـك فلـم يمـر الكثـير مـن الوقـت حـتى أطلـق سراحـه، وبـدأ مـن جديـد محاولـة قويـة للوصـول للسـلطة بشـكل رسـمي.

كان العامـل الرئيـسي في ازديـاد شـعبية هتلـر بـين النـاس هـو قدرته عـلى اسـتدعاء روح العـزة الوطنيـة الـتي عرّضتهـا معاهـدة فيرسـاي للمهانـة، الـتي فرضهـا الحلفـاء الغربيـون عـلى الامبراطوريـة الألمانيـة المهزومـة، وحـاول هتلـر أن يكسـب تأييـد الجماهـير لسياسـاته، عـن طريـق إقنـاع معظـم الشـعب الألمـاني بأنـه المخلـص الـذي سـينقذهم مـن موجـة الكسـاد الاقتصـادي الـتي اجتاحـت العالـم،

ومـن معاهـدة فيرسـاي الظالمـة، ومـن الشـيوعيين واليهـود، الذيـن اعتبرهـم هتلـر السـبب في كل الفشـل الـذي واجهتـه الامبراطوريـة الألمانيـة، وفى هزيمتهـا في الحـرب العالميـة الأولى. اسـتطاع هتلـر مـن خـلال الكاريزما والجاذبيـة الـتي يتمتـع بهـا في إلقـاء الخطـب وفي الدعايـة، أن يحصـل عـلى تأييـد الجماهـير بتشـجيعه لأفـكار تأييـد القوميـة ومعـاداة الشـيوعية، وإقناعهـم بقدرتـه عـلى تحويـل ألمانيـا شـبه المنهـارة إلى دولـة عظمـى.

وهكـذا أصبـح هتلـر في غفلـة مـن زمـان مستشـار الرايـخ الثالـث، وصاحـب السـلطة الوحيـد والأوحـد في ألمانيـا، وقبـض هتلـر عـلى السـلطة بيـد مـن حديـد، مـن خـلال الجنـاح شـبه العسـكري للحـزب النـازي المعـروف باسـم «كتيبـة العاصفـة»، ووحـدة الـ «إس إس»، والبوليـس الـسري الألمـاني الرهيـب المعـروف بالـ «جسـتابو»، وسـحق هتلـر المعارضـة سـحقًا بحجـة حمايـة الدولـة مـن الأخطـار والمؤامـرات الخارجيـة، وقـام القضـاء الألمـاني الشـامخ بتغيـير القانـون، بصـورة تجعـل الجسـتابو يتحـرك بصـورة حـرة وبعيـدًا عـن المسـاءلة القانونيـة، وكمـا وصـف قـاضٍ ألمـاني أفعـال الجسـتابو قائـلًا: «مـادام الجسـتابو يتحـرك بمشـيئة الحـزب، فـإن حـركات الجسـتابو وأفعالـه قانونيـة»، ونـص القانـون الألمـاني نصًـا صريحًـا بإعفـاء الجسـتابو مـن المثـول أمـام المحاكـم الألمانيـة، ممـا حـال بـين المواطنـين المدنيـين ووصـول شـكواهم إلى القضـاء الألمـاني الشـامخ، ولعـل مـن أهـم صـور تعسـف الجسـتابو هـي سـلطة الجهـاز في احتجـاز الأشـخاص وإخفائهـم قسريًـا بـدون دعـوى قضائيـة، بـل إن الشـخص المحتجـز كان يجـبر، عـن طريـق التعذيـب الجسـدي، عـلى التوقيـع عـلى ورقـة تخـوِّل للجسـتابو احتجـازه، وسـاهم الجسـتابو في القبـض عـلى الشـيوعيين واليهـود والمثليـين وتهجيرهـم قسريًـا إلى معسـكرات الاعتقـال ثـم القضـاء عليهـم في أفـران الغـاز الـتي لقبـت بمذابـح الهولوكوسـت، وسـط

مباركـة الشـعب الألمـاني.

وبالرغـم مـن قامتـه القصـيرة نسـبيًا ودمامتـه الواضحـة، وبالرغـم مـن وسـط بنطالـه الـذي يـكاد يصـل حـتى رقبتـه، وبالرغـم مـن طريقتـه المضحكـة في الخطابـة، تلـك الـتي خلبـت عقـول الشـعب الألمـاني، فقـد صـار هتلـر معشـوق النسـاء في ألمانيـا بـدون سـبب واضـح، اللهـم إلا الولـع بسـفك الدمـاء ولا شيء سـواه، واعتبرتـه نسـاء كثـيرات «الرجـل المرسـل مـن السـماء، والرجـل الكامـل الأسـمى»، ومـع نهايـة الثلاثينيـات وتصاعـد جنـون هتلـر وبطشـه، بـدأت تنهـال عليـه الرسـائل الحميميـة، فأرسـلت لـه مثـلا مـن الإسـكندرية البارونـة «ألزاهاغـن فـون كيلفايـن» تقـول: «أتمـنى أحيانًـا لـو أمـوت وصورتـك أمامـي، لكيـلا أبـصر بعـد ذلـك أي شيء غـيرك، إنـني أكتـب إلى الرجـل الـذي أهـوى، وسـأتبع حـتى نهايـة حيـاتي»، وأرسـلت لـه «داغمـار راسـل» قائلـة: «أنـت الرجـل الـذي أحببتـه حبًـا جمًـا، الأشرف والأعظـم والأبـدع، الـذي لا مثيـل لـه والعبقـري، المرسـل مـن الله، المقـدس، والمحبـوب مـن الله، رسـول السـلام السـماوي، المنفـذ للمشـيئة الإلهيـة عـلى الأرض، الجنـدي الأول والقائـد الأعـلى لهـذا الجيـش الرائـع، الخبـير الاسـتراتيجي الـذي يفـوق كل مـن سـبقه في التاريـخ عبقريـة وهيبـة، رئيـس الدولـة النابغـة الأكـبر».

في عـام ١٩٣٤، وقفـت معظـم الكنائـس الألمانيـة بجانـب النظـام النـازي مـبرّرة إيـاه، ومعلنـة الـولاء والانبطـاح التـام للفوهلـر، إلاّ أنّ بعـض المسـيحيين الأمنـاء عارضـوا انبطـاح الكنيسـة، وتجمّعـوا وكتبـوا إعلانًـا يسـمى إعـلان بارمـن Barmen، وفيـه أعلنـوا بوضـوح أنّ اللاّهـوت المسـيحي بـريء مـن أيـة سـيادة سـوى سـيادة المسـيح يسـوع وأنّ كلّ تبريـر لأفعـال النازيـة هـو أناثيمـا «محـروم»، وتـم اعتقـال وقتـل البعـض ممّـن شـاركوا في صياغـة هـذا الإعـلان، إلاّ أنّ أيّـة دراسـات معـاصرة لعلاقـة الكنيسـة مـع الدولـة تقـف أمـام

شجاعة أولئك الأبطال مخلّدة أسماءهم، في الوقت الذي اندثرت كالبخار أسماء من شاركوا النازية وبرّروا لها القمع العرقي.

في عام ١٩٣٧، زج بالقس اللوثري واللاهوتي الألماني «إميل جوستاف فريدريش مارتن نيمولر Emil Gustav Friedrich Martin Niemöller» في معسكرات الاعتقال النازية، بالرغم من كونه وطنيًا محافظًا، ومؤيدًا في البداية لأدولف هتلر، لكنه بعد ذلك أسس كنيسة الاعتراف التي عارضت إعطاء المسحة النازية للكنائس البروتستانتية في ألمانيا، وعارض نيمولر سيطرة الدولة على الكنيسة، ونجا من الإعدام بصعوبة، وبقي في المعتقل حتى تحرير ألمانيا على يد الحلفاء عام ١٩٤٥، وبعد فترة سجنه أبدى أسفه لأنه لم يفعل ما يكفي لأجل ضحايا النازية، وبدأ في الخمسينيات الميلادية مشواره داعية سلام ومعاديًا للحروب، وقال مارتن نيمولر في قصيدته الشهيرة: «في ألمانيا أولًا جاءوا للشيوعيين لم أبال لأنني لست شيوعيًا، وعندما اضطهدوا اليهود لم أبال لأنني لست يهوديًا، ثم عندما اضطهدوا النقابات العمالية لم أبال لأني لم أكن نقابيا، بعدها عندما اضطهدوا الكاثوليك لم أبال لأني بروتستانتي، وعندما اضطهدوني أنا.. لم يبق أحد حينها ليدافع عني».

تصاعد جنون الإعجاب العارم بهتلر، ونجاحاته الحربية المتوالية، أصابته بنوع من جنون العظمة، وجعلته يتخذ قراره في ٢ أغسطس ١٩٣٨، بإنشاء العاصمة الجديدة للعالم ومقرها ألمانيا تخليدًا لاسمه، وأسماها بـ «جرمانيا عاصمة العالم Welthauptstadt Germania»، وأسند تخطيط العاصمة الجديدة لمهندس الرايخ الثالث الشهير «ألبرت شبير»، لكن لم يقدر لتلك العاصمة أن ترى النور، وظل المشروع برمته حبرًا على ورق.

واصل هتلر نجاحاته العسكرية المبهرة فقد سيطر هتلر تقريبًا

على معظم دول أوروبا، وفي صيف ١٩٤٢ سيطر الجيش السادس الألماني على مدينة ستالينجراد غرب روسيا، وبات سقوط موسكو قاب قوسين أو أدنى.

الانتصارات المتتالية لهتلر أعمت عيون المترددين الذين دأبوا على معارضته في السابق، ثم تأرجح موقفهم بسبب سيطرته على معظم دول أوروبا، وأيدوه بكل ما أوتوا من قوة لاحقًا، وكأن إنجازاته الحربية والعسكرية يمكن أن تغطي على قمعه للحريات وانتهاكاته المستمرة للمعارضين، وبالرغم من ذلك ظلت هناك فئة قليلة ثابتة على موقفها المعارض لهتلر، وانتشرت حركات المعارضة السرية، وأشهرها كانت حركة «الوردة البيضاء weiße Rose»، وقوبلت الحركة بعنف فاق الوصف من قبل السلطة، وأعدم جميع أعضاء الحركة بتهمة معارضة النظام، ولم يسلم المعارضون لسياسات الجنرال المجنون من تهم الخيانة والعمالة لإنجلترا، أما الموالون له فقد كان لسان حالهم دائمًا HEIL HITLER تحيا هتلر.

لم تستمر نجاحات هتلر العسكرية كثيرًا، وبدأ نجمه في الأفول، بعدما عصفت الأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى بالفقراء والمهمشين من مؤيديه، وبات واضحًا للجميع أن معركة ستالينجراد، التي هللوا لها منذ شهور، هي بداية النهاية، في الوقت نفسه الذي كانت وزارة الدعاية بقيادة جوبلز تنشر بانتظام صورًا لهتلر وسط الأطفال والشباب.

وفي ٢ فبراير ١٩٤٣، انهار الجيش الألماني السادس أمام صمود الجيش الأحمر، واضطر قائده فريدريك باولوس للاستسلام ومعه أغلب قوات الجيش السادس رغم مواصلة البعض الآخر القتال إلى أن تم تصفيتهم، وفي ١٨ فبراير ١٩٤٣، ألقى فيه وزير الدعاية النازي «جوزيف جوبلز» خطابه على الشعب الألماني للتخفيف من صدمة معركة ستالينجراد، مطالبًا إياه أن يتحمل

ويلات الحرب والكساد والتضييق الأمني أملًا في الاستقرار القادم وسط ترحيب شعبي عارم، ومع منتصف عام ١٩٤٣، بات واضحًا للجميع أن هذا النظام في طريقه للهلاك، إلا أن المؤيدين لهتلر وهم الأغلبية، ظلوا ثابتين على موقفهم، حتى بالرغم من تدهور الأحوال الاقتصادية بشدة، رافضين أن يصدقوا أن هذا النظام سوف يجرهم جميعًا للهلاك ويقضي على ألمانيا كلها.

بحلول عام ١٩٤٤، بدأت سلسلة متوالية من الهزائم تنهال على الجيش الألماني، لم يقو هتلر ولا نظامه على وقفها، وفي الثلاثين من أبريل من عام ١٩٤٥، دخل الجيش الأحمر برلين، وبينما كانت القوات السوفيتية على بعد تقاطع أو اثنين من مقر مستشارية الرايخ، قام هتلر بالانتحار بإطلاق النار داخل فمه وهو يضع في فمه كبسولة سيانيد، ووضع «اوتوجونش» وبعض الضباط المعاونين الموجودين في قبو القائد، جثة هتلر وجثة زوجته إيفا براون في حفرة، وقاموا بسكب الكثير من البنزين على الجثتين، وإشعال النار فيهما، بينما كان الجيش الأحمر مستمرًا في تقدمه ممطرًا المدينة بالقنابل، وفي ١ مايو ١٩٤٥، أقدم جوزيف جوبلز وزير الدعاية النازي على الانتحار مع زوجته ماجدة وأطفاله الستة، فأعطت زوجته السم لأبنائها بنفسها، ثم أقدم هو وزوجته على الانتحار خارج المبنى العسكري النازي، وفي الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة من ليلة الثامن من مايو عام ١٩٤٥، قام الجنرال «فيلهلم كايتل» بتوقيع وثيقة الاستسلام الكامل وغير المشروط للجيش الألماني لممثلي دول الحلفاء.

لا أحد يتعلم من التاريخ
انقلاب السودان

في صبيحة يوم ٢٥ مايو ١٩٦٩، بثت إذاعة أم درمان بيانًا للعقيد أركان حرب جعفر محمد النميري معلنًا استيلاء القوات المسلحة السودانية على السلطة في البلاد، ثم أُجرِيَ استفتاء عام في البلاد على منصب الرئاسة، صار بمقتضاه النميري رئيسًا لجمهورية السودان.

حاول النميري في بداية عهده أن يعيد ترتيب البيت السوداني من الداخل على طريقته، لكنه وكعادة أي نظام عسكري، كان الفشل من نصيبه في النهاية، فقد أتقن النميري ضرب الحركات والأحزاب السياسية ببعضها وتغيير تحالفاته حتى يصبح هو المسيطر الوحيد على المشهد، فازدهرت في عهده الحركات الإسلامية، بدءًا من الإخوان المسلمين وجماعة أنصار السنة، مرورًا بالطرق الصوفية المختلفة، وختامًا بالأحزاب التي دخلت الحلبة عن طريق طوائفها الدينية كالختمية والأنصار، وعلى الجانب الاقتصادي، تبنت حكومة نميري سياسة تأميم البنوك والشركات التجارية الكبيرة في البلاد وتحويلها إلى القطاع العام، وكنتيجة مباشرة، فقد الجنيه السوداني ٨٠٪ من قيمته بتأثير عودة الحرب الأهلية والسياسة الاقتصادية الهوجاء، وقابل ذلك تدهور خطير في الإنتاج الزراعي والصناعي وتدنٍ فظيع في عائدات الصادرات وعجز كبير في ميزان المدفوعات، جعل البلاد تعيش في حالة أزمة اقتصادية حقيقية أدت إلى موجة من الإضرابات العامة هددت بانهيار نظام النميري.

وفي عـام ١٩٧٦ خططـت المعارضـة السـودانية في الخـارج، والـتي تضـم الحـزب الشـيوعي، وحـزب الأمـة، والحـزب الاتحـادي الديمقراطـي، والإخـوان المسـلمين، بالتعـاون مـع السـلطات الليبيـة لانقـلاب عسـكري ضـد النمـيري، عـن طريـق غـزو الخرطـوم بقـوات سـودانية، تدربـت في ليبيـا بقيـادة العقيـد محمـد نـور سـعد، الـذي كاد بالفعـل يسـتولي عـلى السـلطة، ولكـن قـوات النمـيري أجهضـت الانقـلاب، وقتـل المشـاركون فيـه مـع قائدهـم، وأطلـق عـلى المحاولـة «هجـوم المرتزقـة» في أدب نظـام النمـيري، و«غـزوة يوليـو المباركـة» في أدب الانقلابيـين.

في الأسـبوع الأخـير مـن مـارس ١٩٨٥، سـافر النمـيري في رحلـة عـلاج إلى واشـنطن، بالتزامـن مـع إقـرار الحكومـة تسـعيرة جديـدة مرتفعـة لبعـض السـلع ومـن ضمنهـا السـكر، فبـدأ عـلى أثرهـا بعـض المظاهـرات البسـيطة العفويـة، إلا أن مظاهـرات «السـكر المـر» كمـا أطلـق عليهـا، سرعـان مـا تطـورت إلى إضرابـات واحتجاجـات متواصلـة رغـم تراجـع الحكومـة عـن التسـعيرة الجديـدة، وخـرج النـاس إلى الشـارع في ثـورة شـعبية، بمشـاركة النقابـات والاتحـادات والأحـزاب، وبصـورة أعيـت حيـل أعـتى نظـام أمـني بنـاه النمـيري في سـنوات حكمـه، وبـدا أن مسـببات الغضـب عـلى نظامـه قـد وصلـت إلى درجاتهـا القصـوى، واضطـرت القيـادة العامـة للجيـش إلى التدخـل، لتفـادي تـردي الأوضـاع الأمنيـة وتفشي الفـوضى، أمـام عجـز الحكومـة الـتي كان يرأسـها نائـب الرئيـس عمـر محمـد الطيـب.

وفي صبـاح يـوم السـبت ٦ أبريـل ١٩٨٥، وبينمـا كان النمـيري في الجـو عائـدًا إلى الخرطـوم ليحبـط الانتفاضـة الشـعبية، أذاع الفريـق أول عبدالرحمـن سـوار الذهـب وزيـر دفـاع النظـام آنـذاك، والقائـد العـام لقـوات الشـعب المسـلحة، بيانًـا أعلـن فيـه انحيـاز القـوات المسـلحة للشـعب وإنهـاء حكـم الرئيـس النمـيري، وجـاء في تبريـر تلـك الخطـوة بـأن «قـوات الشـعب المسـلحة، وبعـد أن ظلـت

تراقب الموقف الأمني المتردي في أنحاء الوطن، وما وصل إليه من أزمة سياسية بالغة التعقيد، قررت بالإجماع أن تقف إلى جانب الشعب واختياره، وأن تستجيب إلى رغبته بالاستيلاء على السلطة ونقلها إليه عبر فترة انتقالية محددة»، أما النميري فقد نصحه معاونوه بتغيير وجهته إلى القاهرة وقبول حقيقة خلعه من قبل الشعب، ولقبت الثورة بـ «انتفاضة أبريل ١٩٨٥».

بعد الانتفاضة، استلم المشير «سوار الذهب» السلطة، بصفته أعلى قادة الجيش وبتنسيق مع قادة الثورة من أحزاب ونقابات، وتقلد رئاسة المجلس الانتقالي إلى حين قيام حكومة منتخبة في البلاد بعد انتهاء الفترة الانتقالية التي حددت بعام واحد، وصدرت بعد ذلك عدة قرارات نصت على تعطيل العمل بالدستور وإعلان حالة الطوارئ في البلاد، وإعفاء رئيس الجمهورية ونوابه ومساعديه ومستشاريه ووزرائه وحل حزب الاتحاد الاشتراكي الحاكم، وفي ٩ أبريل ١٩٨٥م، أعلن عن تشكيل مجلس عسكري انتقالي لممارسة أعمال السلطتين: التشريعية والتنفيذية، برئاسة الفريق أول عبدالرحمن سوار الذهب، والفريق أول تاج الدين عبدالله فضل نائبًا له، وعضوية ١٣ من كبار ضباط الجيش، من بينهم اثنان من أبناء جنوب السودان كما تم تشكيل حكومة مدنية برئاسة الدكتور الجزولي دفع الله.

أنجز الفريق عبدالرحمن سوار الذهب وعده بعد انقضاء الفترة الانتقالية في سابقة فريدة من نوعها، ولأول مرة يتخلى قائد عسكري عن السلطة طواعية وبعد وعد قطعه على مواطنيه دون أي مقابل سياسي أو مادي خاص، وجرت الانتخابات في موعدها وفاز فيها حزب الأمة الجديد بزعامة الصادق المهدي، متقدمًا على غيره من الأحزاب وتولى رئاسة مجلس الوزراء، بينما جاء الحزب الاتحادي الديمقراطي في المرتبة الثانية الذي كان يتزعمه أحمد الميرغني، وتولى رئاسة مجلس رأس الدولة (مجلس السيادة

سابقا)، فيما خرج منها حزب الجبهة الإسلامية القومية وزعيمه حسن الترابي ليتصدر صفوف المعارضة في البرلمان، وسلم سوار الذهب صولجان السلطة إلى الحكومة المدنية الجديدة.

كان الترابي أستاذًا في جامعة الخرطوم ثم عُين عميدًا لكلية الحقوق بها، وشارك في تأسيس «جبهة الميثاق الإسلامية»، وهي تمثل أول حزب أسسته الحركة الإسلامية السودانية التي تحمل فكر الإخوان المسلمين، وبعد انتقال السلطة إلى الصادق المهدي بعام واحد، أسس الترابي «الجبهة الإسلامية القومية» كامتداد لجبهة الميثاق الإسلامية ولفكر الإخوان المسلمين.

اتسمت فترة الديمقراطية الثالثة وحكم الصادق المهدى بعدم الاستقرار، إذ تم تشكيل خمس حكومات ائتلافية في ظرف أربع سنوات، وكانت الهزائم المتلاحقة التي مُنيت بها القوات الحكومية في جنوب السودان سببًا في تذمر القيادة العامة للجيش، التي قدمت مذكرة لرئيس الحكومة الصادق المهدي، مطالبة إياه بالعمل على تزويد الجيش بالعتاد العسكري الضروري، أو وضع حد للحرب الدائرة في الجنوب، وأحدثت المذكرة بلبلة سياسية في البلاد لأنها تتضمن تهديدًا مبطنًا للحكومة وتوبيخًا رسميًا لتقصيرها في إحدى مهامها الأساسية وهي الدفاع عن البلاد، بإهمالها التزاماتها تجاه الجيش، كما كانت تلك المذكرة مؤشرًا خطيرًا لتدخل الجيش في السياسة بشكل مباشر، بل كان من الغريب أن يُقحم جيش -في نظام ديمقراطي- نفسه في السياسة مبتعدا عن المهنية، ويخطر رئيس الحكومة علنًا وبشكل مباشر، بما يجب أن يعمله لحل المشاكل الوطنية، ثم تدهورت العلاقة أكثر بين الجيش وحكومة الصادق المهدي بعد توجيه الفريق فتحي أحمد علي القائد العام إنذارًا إلى الحكومة، مطالبًا إياها بالاعتدال في مواقفها السياسية ورفع المعاناة عن كاهل المواطنين، ورفض الصادق المهدي هذا التهديد وأصدر

حـزب الأمـة بيانًـا أدان فيـه مسـلك القائـد العـام وتدخـل الجيـش في السياسـة.

في ٣٠ يونيـو ١٩٨٩، قـاد العقيـد عمـر حسـن أحمـد البشـير انقلابًـا عسـكريًا ضـد حكومـة رئيـس الـوزراء الصـادق المهـدي المنتخبـة ديمقراطيًـا، بإيعـاز مـن الجبهـة القوميـة الإسـلامية ورئيسـها حسـن الـترابي، وتـولى مناصـب رئيـس الدولـة ورئيـس الـوزراء والقائـد العـام للقـوات المسـلحة، وزيـر الدفـاع في نفـس الوقـت، إضافـة الى رئاسـته لمجلـس قيـادة «ثـورة الخـلاص الوطـني».

في أواخـر عـام ١٩٩٩، حـل البشـير البرلمـان بعـد خـلاف مـع زعيـم الحركـة الإسـلامية والزعيـم الروحـي للانقـلاب حسـن الـترابي، وبعدها أصبـح الـترابي مـن أبـرز معـارضي الحكومـة وأمينًـا عامًـا لحـزب المؤتمـر الشـعبي المعـارض في السـودان، وتعـرض للاعتقـال عـدة مـرات حـتى انفرجـت العلاقـات مـع النظـام مـع إعـلان الحكومـة للحـوار الوطـني.

لا أحد يتعلم من التاريخ
ديكتاتور إيران
مرحلة ما قبل الثورة

لمدة قرنين ونصف من الزمان حُكمت الامبراطورية الفارسية، التي تعرف اليوم باسم إيران، بواسطة سلسلة من الملوك، لُقبوا بـ «الشاه»، وفي ٢٦ أكتوبر من العام ١٩١٩، ولد الشاه الأخير محمد رضا بهلوي في طهران، وهو الابن الأكبر لـ رضا شاه عباس قلي خان، الملقب بـ رضا بهلوي، الذي قام بخلع آخر شاه من الأسرة القاجارية الشاه أحمد قاجار في ١٢ ديسمبر ١٩٢٥، وأنهى حكم القاجاريين، مؤسسًا الدولة البهلوية، وخلال الحرب العالمية الثانية أبدى رضا بهلوي تعاطفًا مع الرئيس الألماني أدولف هتلر، وفي عام ١٩٤١ تخوف كل من الاتحاد السوفييتي وبريطانيا العظمى من تعاون رضا شاه مع النازية الألمانية، وتزويدهم بالنفط الإيراني، مما دفعهما إلى احتلال جزء كبير من إيران في ٢٥ أغسطس ١٩٤١، وإجبار رضا شاه على التنحي في ١٦ سبتمبر ١٩٤١ ونفيه إلى مومباي في الهند، ومنها إلى جزيرة موريشيوس ثم إلى جنوب أفريقيا في جوهانسبرج، واستدعوا ابنه محمد شاه لتولي الحكم، وخلف محمد رضا أباه شاهًا لإيران ولقب نفسه بالـ «شاهنشاه» أي ملك الملوك، واستمر حكمه تحت الوصاية البريطانية والروسية حتى سنة ١٩٤٦، ثم انفرد بالحكم بعد ذلك.

عام ١٩٥٠، انتخب الشعب الإيراني د.محمد مصدق، الديمقراطي القومي العلماني الحاصل على درجة الدكتوراه في القانون الدولي، والمعروف بميوله المعادية للعسكر والعسكرة،

رئيسًا للوزراء، فقام بتأميم شركات البترول القابضة البريطانية والأمريكية، وتحديدًا شركة النفط الأنجلو إيرانية، معيدًا بذلك بترول إيران إلى شعبه، فاحتدم الصراع بين الشاه ومصدق بداية من أغسطس ١٩٥٣، وتدهور الوضع السياسي تدهورًا لم يعرف من قبل، وأدى برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدّق إلى إرغام الشاه محمد رضا بهلوي على مغادرة إيران تفاديًا لثورة مرتقبة، فيما عرف بـ «انقلاب إيران عام ١٩٥٣» أو انقلاب «٢٨ مرداد» بالفارسية، فالتجأ الشاه إلى بغداد يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٣ بصحبته زوجته الملكة ثريا ومرافقه الخاص بطائرته الخاصة، واستقبل في العراق بحفاوة بالغة، وسط استنكار حكومة مصدق، وبعد أداء مراسيم الزيارة في الكاظمية وكربلاء والنجف غادر متوجها إلى إيطاليا، وقبل أن يغادر وقع قرارين، الأول بعزل مصدق، والثاني بتعيين الجنرال فضل الله زاهدي محله، وقبل نهاية العام نفسه، وبمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى وأجهزة مخابراتهم، عاد محمد رضا إلى إيران بانقلاب مضاد لانقلاب رئيس الوزراء، عرف باسم العملية أجاكس Operation Ajax، وعزل مصدّق من منصبه واستعاد عرش إيران.

بعد تجربة العزل، عمل الشاه على تغييرات سياسية من أهمها إلغاء الأحزاب السياسية جميعها، مع الإبقاء على الحزب الحاكم، وفي العام ١٩٥٧، أسس جهاز الشرطة الداخلية المسماة «السافاك SAVAK»، بمساعدة وكالة المخابرات الأمريكية CIA وكانت مهمة هذا الجهاز قمع المعارضين للنظام باستخدام الاعتقال والتجويع وأنواع التعذيب كافة داخل السجون، بالإضافة إلى التصفية الجسدية لقادة الحركات الإسلامية والشيوعية المعارضة خاصة، على رأسهم حركة «مجاهدي خلق» الثورية وباقي أطياف المعارضة اليسارية الإيرانية.

وفي عام ١٩٦٣، بدأ الشاه برنامجه الإصلاحي بالتعاون مع

الولايات المتحدة وأطلق عليه «الثورة البيضاء»، مطلقًا حملة واسعة لتغريب إيران، وتضمنت الثورة البيضاء إصلاحات قد تبدو في ظاهرها إيجابية مثل إعادة توزيع الأراضي بين المواطنين، وعمليات البناء الواسعة، والقضاء على الأمية وتحرير المرأة، ولكن التنفيذ العملي للبرنامج أدى إلى مزيد من التميز الاقتصادي بين الناس، وتوزيع عوائد النفط بشكل غير عادل، والمزيد من الفقر، في الوقت نفسه كان الشاه يمعن في المزيد من البذخ والإسراف الأسطوري، فكانت زوجته تستحم في الحليب، ووجبات غذاء الشاه كانت تأتي بطائرة الكونكورد من باريس، بينما كان الشعب يتضور جوعًا.

وفي أوائل عام ١٩٦٣، نشبت أعمال شغب بعد أن اعتقل الشاه رجل الدين الشيعي الآخذ نجمه في الصعود «روح الله الخميني»، لمدة ثلاثة أيام إثر تصريحه بأن الشاه «رجل بائس سيئ»، وواجهت الشرطة أعمال الشغب تلك مستخدمة القوة المفرطة، وأعلنت تقارير الحكومة سقوط ٨٦ قتيلًا، بينما أكدت التقارير، التي ظهرت بعد خلع الشاه، أن أكثر من ٣٨٠ قتيلًا لقوا مصرعهم على يد الشرطة في تلك الأحداث، ووضع الخميني تحت الإقامة الجبرية لمدة ٨ شهور ثم أفرج عنه، وأعيد اعتقاله في نوفمبر ١٩٦٤ وأرسل إلى المنفى، وتبعت ذلك فترة من «الهدوء الساخط» استمرت نحو سبع سنوات.

إمعانًا في استفزاز شعبه الفقير، أقام الشاه خلال الفترة من ١٢ أكتوبر إلى ١٦ أكتوبر ١٩٧١، احتفالًا أسطوريًا ضخمًا عند أطلال مدينة «برسي بوليس» العتيقة لإحياء الذكرى السنوية الخمسمائة بعد الألفين لتأسيس الإمبراطورية الفارسية على يد «سايروس»، ودعا فيه رؤساء وملوك وملكات العالم، وحضر الاحتفال خمسة وعشرون ألفًا من المدعوِّين من كل أنحاء العالم، وأقيم فيها عرض عسكري ضخم شارك فيه الآلاف مرتدين زي الجيش

الأخميني، واستغرق ثلاثة أيام مليئة بالتبذير المفرط، قدم فيها أكثر من طن من الكافيار، وجلب ٢٠٠ طاهٍ من فرنسا لإعداد الولائم، وبلغت تكلفته ١٢٠ مليون دولار، وأعلن الشاه أنه أراد بهذا الاحتفال أن يظهر للعالم مدى التقدم الذي أحرزته إيران في السنوات الأخيرة، في الوقت الذي دخلت فيه ولايات ومحافظات بلوشستان وسيستان وحتى فارسو وبعض المناطق التي أجريت فيها الاحتفالات تحت وطأة الجفاف والقحط والفقر، مما ضاعف من نيران الغضب المشتعل بالفعل في النفوس.

وكلما تعالت أصوات الغضب الشعبية، كان الشاه يشدد من سياسته القمعية أكثر فأكثر، مما عرضه لمزيد من موجات الانتقاد الواسعة لا سيما من علماء الدين الذين غضبوا من سياسته المتعاونة مع الغرب، وأثار غالبية الشيعة من الشعب، وراحت المعارضة الدينية الأكثر شعبية تنتظم أكثر وأكثر في الشارع الإيراني، خصوصًا مع تكريس الشاه لسياسة احتكار الحزب الواحد، وطبيعة حكومة الشاه، التي منعت بروز أي منافس ذي كفاءة يمكن أن يقود الحكومة، مما أدى إلى ضعف فعالية الحكومة وتدني مستوى الإنتاج، الأمر الذي ساهم بدوره في زرع الخلافات والانقسامات داخل الجيش وبين النخب السياسية، وزاد الأمر سوءًا انتهاكات الشاه المتكررة للدستور الإيراني، وتنامي الفساد السياسي.

وفي أواخر سنة ١٩٧٤، وبدل أن تعمل الطفرة النفطية على إنتاج «حضارة عظيمة» كما وعد الشاه في خطاباته المتكررة، وصلت حدة التضخم إلى حد غير مسبوق، وانتشرت الأسواق السوداء، واتسعت الفجوة المتسارعة بين الأغنياء والفقراء، والريف والمدينة، وفي العام التالي ١٩٧٥، وكمحاولة بائسة للإصلاح السياسي، أسس الشاه حزبًا جديدًا سماه «رستاخيز» (أي البعث أو النهضة)، لم يكن «رستاخيز» الحزب الوحيد الذي

يمكـن للإيرانيـين الانتسـاب إليـه فحسـب، بـل كان لزامًـا عـلى كل إيـراني بالـغ أن ينتسـب إليـه، ويدفـع رسـومه، لكـن المحـاولات الـتي بذلهـا هـذا الحـزب لاتخـاذ موقـف شـعبي لصالـح حمـلات «مكافحـة الاسـتغلال» لـم تكـن ذات ضرر اقتصـادي فحسـب، لكنهـا أتـت بنتائـج سياسـية عكسـية أيضًـا، فظهـرت الأسـواق السـوداء وارتفـع التضخـم وتراجـع النشـاط التجـاري، وغضـب التجـار وفـرت رؤوس الأمـوال، وفي سـنة ١٩٧٦، أعلـن الشـاه التقشـف الاقتصـادي بهـدف كبـح التضخـم والهـدر، لكـن البطالـة الناجمـة عـن ذلـك أثـرت سـلبًا عـلى آلاف المهاجريـن إلى المـدن، وهـم ضعـاف وغـير مؤهلـين لأي حرفـة أو صنعـة.

وبدايـة مـن منتصـف ١٩٧٧ إلى منتصـف ١٩٧٩، شـهد الشـارع الإيـراني حـراكًا ثوريًـا، وشـهد تحالفًـا بـين الليبراليـين واليسـاريين والجماعـات الدينيـة مجتمعـين عـلى هـدف واحـد هـو إسـقاط الشـاه، وتنامـى التأييـد الواسـع للقائـد الديـني الشـيعي المنفـي في الخـارج، روح الله الخميـني، الـذي اسـتطاع بفطنتـه كسـب تأييـد كل أطيـاف المعارضـة بتنحيـة القضايـا محـل الخـلاف جانبًـا، مثـل (ولاية الفقيـه) الـتي كان يعـتزم تنفيذهـا، لمعرفتـه بأنهـا سـتطيح بدعـم تلـك الفئـات، وأتـت هيبـة الخميـني والكاريزمـا الـتي يتمتـع بهـا، ليـأسر خيـال الجماهـير الذيـن اعتـبروه المنقـذ أو المخلـص، وراح أتباعـه يطـورون مـا سـيصبح شـبكة قويـة وفعالـة مـن المعارضـة داخـل إيـران، مسـتخدمين خطـب المسـاجد، وتهريـب شرائـط تسـجيلات صوتيـة للخميـني مـن منفـاه أضافـت إلى قـوة المعارضـة الدينيـة، ممـا أثـار قلـق بـاقي أطيـاف المعارضـة مـن الليبراليـين واليسـاريين والميليشـيات المسـلحة الأخـرى، لكنهـم اعتقـدوا أن السـتار سيسـدل عـلى الخميـني وأعوانـه بعـد سـقوط الشـاه، وأن هـذا التيـار اليسـاري سيسـيطر عـلى السـاحة، لكـن دائمًـا تـأتي الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن.

في سنة ١٩٧٧، دخل الرئيس الأمريكي الجديد جيمي كارتر إلى البيت الأبيض، وكانت الآمال تحدوه لتغيير صورة الولايات المتحدة السيئة المرتبطة بحرب فيتنام، وتغيير السياسة الخارجية، فأنشأ مكتبًا خاصًا لحقوق الإنسان، ووجه «مذكرة مؤدبة» إلى الشاه، بيَّن فيها أهمية الحقوق السياسية والحريات، وتحت الضغط الأمريكي، استجاب الشاه بالعفو عن ٣٥٧ سجينًا سياسيًا، وسمح للصليب الأحمر بزيارة السجون، في مسعى للبدء بطور من التحرر، مما أعطى الفرصة للمعارضة الليبرالية لتأسيس منظمات قوية، أصدرت من خلالها رسائل مفتوحة تدين فيها النظام، وأتى اغتيال المفكر الإيراني «علي شريعتي» في شقته في لندن بيد الشرطة السرية السافاك، ليعطي ثقلًا للمعارضة أكثر وأكثر، ويهدم ادعاءات الشاه الكاذبة بإتاحة الحرية السياسية لشعبه، وفي نفس الوقت يزيل أي منافس محتمل للخميني، وأتت أولى مظاهر المعارضة من الطبقة الوسطى في المدن، وهم فئة من السكان كانوا من العلمانيين نسبيًا، وأرادوا بناء ملكية دستورية في إيران وليس جمهورية إسلامية، ومن أبرز هؤلاء العلمانيين «مهدي باذر خان» من «حركة تحرير إيران»، وهي حركة ليبرالية معتدلة كانت وثيقة الصلة بالجبهة الوطنية التابعة لمحمد مصدق.

لكن فتيل الثورة الحقيقي اشتعل في يناير ١٩٧٨ عندما أوردت صحافة الشاه الرسمية قصة ملفقة عن الخميني بغرض التشهير به، فخرجت جموع غاضبة من الطلاب والزعماء الدينيين احتجاجا على تلك الادعاءات في مدينة قم، وأرسل الجيش لتفريق المتظاهرين مما أدى لمقتل أكثر من ٧٠ طالبًا، وأطلقت المساجد في كل البلاد الدعوة للمشاركة في الذكرى الأربعين للأحداث في ٢٩ مارس، واستجابت عدة مدن للنداء، وسارت المظاهرات تكريمًا للقتلى واحتجاجًا على حكم الشاه، ووقعت

أعمال عنف في تبريز، وقتل المئات من المتظاهرين، وامتدت الاحتجاجات في سائر البلاد، وهوجمت الفنادق الفارهة ودور السينما والبنوك والمكاتب الحكومية ومدارس البنات وغيرها من رموز نظام الشاه، وتدخلت قوات الأمن مرة أخرى، وقتل الكثيرون، وتكرر السيناريو ذاته في العاشر من مايو، بدون أي جدوى في إيقاف نهر التظاهرات المتدفق.

وأيقن الشاه أن الأمور قد خرجت من يده، فحاول إرضاء المتظاهرين عبر تخفيف نسب التضخم، وتوجه بالمبادرات إلى بعض رجال الدين المعتدلين، وعزل رئيس السافاك، ووعد بإجراء انتخابات حرة في شهر يونيو اللاحق، في الوقت نفسه الذي كانت ماكينة العنف النظامية تحصد المتظاهرين حصدًا، ففي شهر أغسطس، قضى أكثر من ٤٠٠ شخص نحبهم في حريق مفتعل بيد السافاك في سينما ريكس في عبدان، وفي اليوم التالي، تجمع أكثر من عشرة آلاف متظاهر من أقارب القتلى والمتعاطفين لتشييع جماعي ومظاهرة حاشدة تنادي «ليحترق الشاه» و«الشاه هو المذنب»، ومع حلول سبتمبر، كانت البلاد مزعزعة على نحو شديد، وتحولت المظاهرات الحاشدة إلى أحداث منتظمة، وفرض الشاه الأحكام العرفية، وحظرت كل التظاهرات.

وفي يوم الجمعة ٨ سبتمبر ١٩٧٨، نظمت المعارضة مظاهرة حاشدة في ميدان «جاليه» في طهران، كانت الفيصل في مسار الثورة الإيرانية وعرفت باسم «يوم الجمعة الأسود» أو «جمعة سياه» بالإيرانية، وكتب على الحوائط بالدهان الأسود «يسقط الشاه»، فأعطى الشاه أوامره للجيش بإطلاق الرصاص على المتظاهرين، وسقط الشهداء بالمئات ولم يستدل على هويات معظمهم حتى اليوم، وفي بداية أكتوبر بدأ إضراب عام، واستمرت المظاهرات بمشاركة العمال، ومع حلول نوفمبر، كان الاقتصاد قد أصيب بالشلل جراء الإضرابات.

وظـل الشـاه يقيـل رئيـس الـوزراء ويعـين مكانـه آخـر محـاولًا استعادة السيطرة على البلاد، وأخذ يلقي الخطب ويخبر الشعب أنـه قـد سـمع صرخاتهـم مـن أجـل تحقيـق العدالـة الاجتماعيـة، وأنـه سـيعمل عـلى إحـداث بعـض التغيـيرات الـتي مـن شـأنها إزالـة الظلـم عـن المهمشـين ومنـع التعذيـب الممنهـج بيـد السـافاك، ولكـن بـلا أي فائـدة فقـد كان وقـت التراجـع والاعـتراف بالأخطـاء قـد ولى بغـير رجعـة، خصوصًـا بعـد ظهـور حـالات التمـرد داخـل الجيـش ورفـض بعـض الجنـود لإطـلاق النـيران عـلى المتظاهريـن، وفـرض الشـاه حظـر التجـول، وظهـر الجنـود والدبابـات والشـاحنات العسـكرية في كل الشـوارع، وأغلقـت المـدارس في خريـف ١٩٧٨، ونظرًا للاضطرابـات في معامـل تكريـر النفـط، وعـدم الاسـتقرار السـياسي والاقتصـادي، حـدث نقـص هائـل في وقـود السـيارات والتدفئـة، واصطفـت الطوابـير أميـالًا أمـام محطـات الوقـود، وكان النـاس يقضـون الليـل في السـيارات منتظريـن دورهـم في الـتزود بالوقـود.

في ٤ نوفمـبر ١٩٧٨، اتصـل مستشـار الأمـن القومـي الأمريـكي «زبجنيـو بريجينسـكيZbigniew Brzezinski» بالشـاه ليبلغـه بـأن الولايـات المتحـدة «سـتدعمه حـتى النهايـة» ولـن تتخـلى عنـه، وبلغـت الاحتجاجـات ذروتهـا في مظاهـرة مليونيـة في ١٢ ديسـمبر ١٩٧٨، وخـرج إلى شـوارع طهـران نحـو مليـوني شـخص مـلأوا سـاحة أزادي (شـاهياد)، مطالبـين بإزالـة الشـاه وعـودة الخميـني، وفي ١٦ ينايـر ١٩٧٩، انهـارت مقاومـة الشـاه، وغـادر مـع زوجتـه إيـران نـزولًا عـلى طلـب رئيـس الـوزراء الدكتـور شـابور بختيـار، الـذي كان لفـترة طويلـة زعيـم المعارضـة، وظهـرت مشـاهد الابتهـاج العفـوي، وأقيمـت الاحتفـالات في الشـوارع، ورقـص المتظاهـرون فرحًـا بالانتصـار، وأطلقـت السـيارات أبواقهـا ابتهاجًـا، ودمـرت خـلال سـاعات كل رمـوز الدولـة البهلويـة، وأعلـن بختيـار حـل البوليـس السـري السـافاك، وأفـرج عـن السـجناء السياسـيين، ووعـد بانتخابات

حـرة وأمـر الجيـش بالسـماح للمظاهـرات الشـعبية، وبعـد عـدة أيـام سـمح بعـودة الخميـني إلى إيـران وطلـب إليـه تأسـيس دولـة مثـل الفاتيـكان في قـم، ودعـا المعارضـة للمسـاعدة عـلى الحفـاظ عـلى الدسـتور.

لا أحد يتعلم من التاريخ
ديكتاتور إيران
مرحلة ما بعد الثورة

مزهـوًا كالطـاووس بعدمـا خلـع الشـاه عـن عـرش الطـاووس، عـاد الخميـني إلى طهـران في الأول مـن فبرايـر ١٩٧٩، وترجـل مـن الطائـرة الـتي أقلتـه مـن فرنسـا إلى مطـار «مهـر أبـاد» في طهـران، مـع رفـاق النضـال في مشـهد مهيـب، محاطًـا بحمـاس وتحيـة ملايـين الإيرانيـين، باعتبـاره الإمـام شـبه المقـدس وقائـد الثـورة، واخـترق موكبـه الحشـود بصعوبـة وسـط العاصمـة، وفي كلمـة ألقاهـا في اليوم نفسـه، أعلـن الخميـني عـدم شرعيـة حكومـة رئيـس الـوزراء «شـابور بختيـار»، الـذي تـم تكليفـه مـن قبـل الشـاه آنـذاك قبيـل مغادرتـه إيـران قائـلًا: «سـوف أركل أسـنانهم لقلعهـا».

كان عـلى مـتن طائـرة الخميـني المناضـل الليـبرالي العلمـاني «صـادق قطـب زاده» عضـو «حركـة الجبهـة القوميـة» الـتي كانـت تسـتلهم أفـكار الدكتـور مصـدق قبـل أن ينتمـي إلى «حركـة التحريـر الإيرانيـة» الـتي كان يتزعمهـا «مهـدي بـازركان»، ونفـي إلى فرنسـا والتقـى مـع الخميـني وتحالفـا عـلى النضـال ضـد الشـاه، وأصبـح المترجـم الخـاص بـه ومـن المستشـارين المقربـين لـه، كمـا كان عـلى مـتن الطائـرة «حسـن لاهـوتي أشـكوري» المناضـل الـذي تعـرض للاعتقـال والتعذيـب لعـدة مـرات في عهـد الشـاه، حيـث بقـي ٤ سـنوات في السـجن ثـم أُطلـق سراحـه وسـافر لفرنسـا والتحـق بالخميـني هنـاك وكان مـن ملازميـه، كمـا عـاد معـه مـن فرنسـا المناضـل «أبـو الحسـن بـني صـدر» قائـد الحركـة الطلابيـة ضـد الشـاه، وقـد أصيـب خـلال انتفاضـة عـام ١٩٦٣، ثـم فـر إلى فرنسـا، وانضـم إلى مجموعـة

المقاومة الإيرانية بقيادة الخميني، لكن بعد استتباب دولة الملالي دأبت وسائل الإعلام الحكومية في إيران على إخفاء صور الذين كانوا بجانب الخميني عند نزوله من الطائرة وتحاول أن تضعهم بعيدين عن النظر.

بعد أربعة أيام من عودته وفي ٥ فبراير عام ١٩٧٩، أعلن الخميني عن تكليف منافسه «مهدي بازركان» بتشكيل حكومة مؤقتة، وذلك خلفًا لرئيس الحكومة السابق «شابور بختيار» الذي عيّنه الشاه قبل سقوط حكمه، وقال: «بما أنني قد عينته، فيجب أن يطاع»، واعتبر أنها «حكومة الله» وحذر من عصيانها، فأي عصيان لها «عصيان لله»، كان الهدف من اختيار الخميني لـ «بازركان» استمالة القوى الليبرالية في إيران، وإيهامهم أنه لن يؤسس نظامًا ثيوقراطيًّا، ولكي يُبدّد مخاوف الشيوعيين من ذلك.

بعد عودة الخميني، كان الجيش لا يزال مخلصًا للشاه بسبب الامتيازات الجمة التي كانوا يحصلون عليها، وبقيت الدبابات والشاحنات العسكرية بالشوارع، وظل مستقبل البلاد غامضًا لعدة أيام، وتولت حكومة الطوارئ العسكرية إدارة البلاد واستمر حظر التجول قائمًا، بينما طلب الخميني من الشعب أن يصعدوا إلى أسطح المنازل في التاسعة من كل ليلة ويصيحوا «الله أكبر» لمدة نصف ساعة متواصلة تعبيرًا عن حبهم للثورة، ودعمهم لتولي الخميني مسئولية إدارة البلاد مسئولية إدارة البلاد، وفعل معظم الناس كذلك، حتى أولئك الذين لم يكونوا داعمين حقيقيين له وللثورة، وساد البلاد شعور بالتضامن، وتطلع الشعب إلى مستقبل أفضل ترفرف فيه أعلام الديمقراطية. وفيما راحت حركة الخميني تكتسب مزيدًا من الزخم، بدأ الجنود بالانضواء في جانبه، واندلع القتال بين الجنود الموالين والمعارضين للخميني بإعلانه الجهاد على الجنود الذين لم يسلموا أنفسهم.

لكن الانهيار النهائي لدولة الطاووس حدث في ١١ فبراير عندما نزل الجيش على إرادة الشعب الإيراني، وأعلن المجلس العسكري الأعلى الإيراني نفسه «محايدًا في النزاعات السياسية الراهنة، لمنع المزيد من الفوضى وإراقة الدماء»، وسرعان ما انتشر الحرس الثوري المسلح، وهو عبارة عن ميليشيات شعبية إسلامية مسلحة لضرب معارضي نظام الخميني، مع أفراد من الجماعات الإسلامية في كل مكان ينظرون بارتياب إلى الجميع، وألقي القبض على مئات الأشخاص بتهمة انتمائهم إلى السافاك، وزُج بهم في السجون وصودرت متعلقاتهم، وأُعدم البعض بدءًا من كبار المسئولين في النظام السابق الذين لم يغادروا البلاد، وعلقوا على المشانق علنًا في الشوارع على الرافعات، ونشرت الصحف صورًا مفزعة للجثث المغطاة بالدماء.

وبدءًا من أوائل شهر مارس، استشعر الديمقراطيون خيبة الأمل المنتظرة عندما أعلن الخميني قائلًا: «لا تستخدموا هذا المصطلح -يقصد الديمقراطية- إنها مفهوم غربي»، وأعلن تحريم الرقص وحظره، وعين الخميني رفاق النضال في مناصب تليق بتاريخهم، فعين «صادق قطب زاده» عضوًا في مجلس الثورة الإسلامية، وتولى رئاسة إدارة الإذاعة والتلفزيون، ثم وزيرًا للخارجية في حكومة بازركان، بينما تقلد «حسن لاهوتي أشكور» منصب قائد اللجنة الثورية الإسلامية، وبعدها تولى منصب قائد الحرس الثوري الإسلامي، بينما تولى «أبو الحسن بني صدر» منصب وزير الاقتصاد والمالية في حكومة بازركان، وفي أول انتخابات لرئاسة الجمهورية في إيران عام ١٩٨٠، وبعد حصوله على ٧٩٪ من الأصوات، أصبح «بني صدر» أول رئيس جمهورية لإيران، مع بقاء الخميني في منصب القائد الأعلى لإيران، مستحوذًا على السلطة الدستورية لإقالة الرئيس، لم يكن أبو الحسن بني صدر رجل دين، ولهذا حاز على هذا

المنصب، وذلك لإصرار الخميني في بداية حكمه على أن رجال الدين لا ينبغي لهم الترشح للمناصب في الحكومة.

في البداية، تجلَّت خيانة الخميني لآمال وتطلعات وتضحيات الشعب الإيراني بأن بطشَ بالأقليات التي نادت بتحقيق أبسط حقوقها وسط تسلُّط الفرس الذين يشكلون أكبر أقلية في إيران، فارتكب مجزرة ضد الأكراد في كردستان في مارس ١٩٧٩ أي بعد أقل من شهر على انتصار الثورة، ثم مجزرة ضد العرب في الأحواز في مايو من العام نفسه، ولاحقًا مجزرة ضد الأذريين في أذربيجان الشرقية، ثم بدأ الصدام الأكبر مع كل القوى والمنظمات والأحزاب والشخصيات السياسية والفكرية، والمرجعيات الدينية الإيرانية نتيجة إصراره على إقامة دولة دينية.

وحاول الخميني القضاء على المرجع الديني «شريعتمداري» أواخر عام ١٩٧٩ بعد اعتراض الأخير وغيره من المراجع الدينية في إيران على الدستور الجديد الذي وضع صلاحيات إلهية ودنيوية مطلقة بيد رجل دين أوحد وهو الخميني، على اعتبار أن هذا الدستور مناقض لروح الإسلام، فأراد الخميني إرهابه وإرعابه بأن أرسل نحو ١٠ آلاف شخص من أتباعه إلى دار «شريعتمداري» وهم يحملون العصي والهراوات ويهتفون قائلين: «يجب هدم وكر التجسس هذا وإحراقه»، فدارت معارك بينهم وبين أنصار وحرس «شريعتمداري» أدت إلى سقوط قتيلين، وبدأ الخميني صدامه مع الزعيم الوطني الكبير «مهدي بازركان» الذي عينه الخميني بنفسه رئيسًا لأول حكومة شُكلت في أعقاب انتصار الثورة، الذي سرعان ما استقال في نوفمبر ١٩٧٩ وهو يشكو حاله قائلًا: «لقد سلَّموني سكينًا بدون نصل».

وبعد ستة أشهر من عودته، بدأ الخميني في تأصيل دولته الديكتاتورية، بدأ قمع المعارضة المعتدلة المتمثلة في حزب الشعب الجمهوري، واضطهد العديد من كبارها ورموزها، وفي

منتصف شهر أغسطس تم إغلاق عشرات الصحف والمجلات المعارضة لفكرة الحكومة الخمينية، واستنكر الخميني غاضبًا الاحتجاجات التي قامت ضد إغلاق الصحف وقمع حرية التعبير قائلًا: «كنا نظن أننا نتعامل مع بشر، من الواضح أن الأمر ليس كذلك»، وقام الخميني بحل السافاك نهائيًا عندما تسلم السلطة، واستبدله بجهاز «الفافاك» أي وزارة المخابرات، الذي صار الذراع اليسرى لقمع معارضي الخميني، أما ذراعه اليمنى فكان جهاز الحرس الثوري المسلح الذي تولى عمليات قتل معارضي الخميني بدون محاكمات، فقد أعدم الحرس الثوري ٣٠٠٠ من مسئولي السافاك السابقين، وتولى إدارة معتقل إيفين الرهيب.

كان إيفين سجنًا سياسيًّا منذ زمن الشاه، واسمه يبث الرعب في القلوب، وصار مرادفًا للعذاب والموت، ويمتد على مساحة كبيرة في شمال طهران عند سفح جبال ألبرز، وقد سُجن فيه معارضو الشاه في السابق، وبعد تولي الخميني السلطة صار سجنًا لمعارضيه في ظل ظروف أشد سوءًا ووطأة من سابقتها في عهد الشاه، ففي عهد شاه إيران كان العنبر داخل إيفين يضم حوالي خمسين سجينًا، بينما في عهد الخميني صار العنبر ذاته يضم أكثر من ستمائة سجين، وارتفعت نسبة الإقبال على الانتحار داخل معتقل إيفين في عهد الخميني للتخلص من العذاب، وكان القتل يتم بدون حساب، بل إن أفراد الحرس الثوري كان يقتلون المعارضين مجاهرين بأنهم يسدون معروفًا وجوديًّا وتربويًّا ونفسيًّا للمقتول، وذلك عملًا بأحد شعارات الإمام التي كانت تملأ شوارع طهران وميادينها الذي كان يقول: «لو سُمح للكافر بالاستمرار في الحياة، لأصبحت معاناته النفسية أسوأ كثيرًا، أما لو قتل المرء ذلك الكافر، فيكون قد حال دون ارتكابه مزيدًا من الخطايا، وبهذا يكون الموت نعمةً كبرى له».

وكان جنود الحرس الثوري يغتصبون الفتيات المحكوم عليهن بالإعدام -خصوصًا المنتميات إلى «منظمة مجاهدي خلق»- قبل تنفيذ الحكم، بدعوى أن العذراوات لا يدخلن النار، فلا سبيل لحدفهن إلى نيران جنهم إلا باغتصابهن قبيل الإعدام مباشرة، وقد تواترت الأنباء عن ابنة أحد الأطباء المعروفين التي عثرت أمها بين مخلفاتها التي حملت إليها بعد إعدامها هذه العبارة التي كتبتها على قميصها بالمداد «يا أبتاه إن حرس الثورة تجاوزوا على شرفي سبع مرات وها أنا أساق إلى الموت بلا ذنب أو جرم»، والوقاحة الأشد والأنكى هي أن الفرد منهم كان يذهب إلى أم الضحية وأبيها ويقدم لهما مبلغا زهيدا يعادل عشرة دولارات، ويقول لهما متبجحا ساخرا شامتا: «هذا مهر ابنتكم التي أعدمت وأنا تزوجتها زواجا مؤقتا قبل الإعدام حتى لا تدخل الجنة، لأننا سمعنا من كبرائنا أن البكر لا تدخل النار فكان لابد من إزاحة هذه العقبة لدخول ابنتكم النار».

وقد حدث أن حكم أحد قضاة الشرع في مدينة يزد الإيرانية بالإعدام على أحد أفراد الحرس الثوري لأنه داهم بيتًا للسرقة واعتدى على شرف زوجة صاحب البيت، فخرج حراس الثورة يشيعون زميلهم المعدوم وهم يرددون بصوت واحد «أيها الأخ الشهيد أننا سنسير على دربك»، وبعد يومين عزل الخميني قاضي الشرع لأنه أعدم حاميًا من حماة الإسلام، على حد تعبيره.

كان هناك أيضًا «حزب الله» وهم مجموعة من المدنيين المتعصبين المسلحين بالسكاكين والهراوات للهجوم على أي نوع من الاحتجاجات الشعبية، وكانوا ينتشرون في كل مكان ويمكن جمعهم في دقائق، وكانوا أكثر عنفًا مع النساء اللائي لا يرتدين الحجاب كما ينبغي، وقد تعرضت العديد من النساء للاعتداء والضرب لأنهن يضعن أحمر شفاه أو لأن بضع خصلات من

شعورهن تظهر من تحت غطاء الرأس، كما قام الخميني بحل منظمة «مجاهدي خلق» الشيوعية اليسارية التي تأسست عام ١٩٦٥ على أيدي مثقفين إيرانيين أكاديميين بهدف إسقاط نظام الشاه، وقد أدت منظمة مجاهدي خلق دورًا كبيرًا في انتصار الثورة، وبعد سقوط نظام الشاه عارض أعضاؤها السلطة المطلقة لآية لله الخميني بوصفه المرشد الأعلى لإيران ووصفوه بالطاغية، بعد أن أعدم نظام الخميني مؤسسيها وعددًا كبيرًا من أعضائها وقيادتها، وهكذا أعلنت الحكومة الإسلامية أن مجاهدي خلق جماعة محظورة، وأغلقت الحدود ولم يعد مسموحًا لأي شخص بمغادرة البلاد دون تصريح خاص، لكن كان هناك من يدفعون أموالًا طائلة للمهربين كل يوم كي يغادروا إيران من أجل تجنب الخدمة العسكرية أو الهرب من الاعتقال على يد الحرس الثوري الإيراني، وكانوا يخاطرون بحياتهم كي يعبروا الحدود إلى باكستان أو تركيا.

وفي الأول من نوفمبر ١٩٧٩، طلب آية الله الخميني من الشعب الإيراني النزول إلى الشوارع للتظاهر ضد الولايات المتحدة التي أطلق عليها الشيطان الأعظم، وأخبرهم أن أمريكا هي المسئولة عن كل أشكال الفساد على الأرض، فانطلق الآلاف من الناس في الشوارع وأحاطوا سفارة الولايات المتحدة وحاصروها لمدة أربعة ايام، وفي الرابع من نوفمبر ١٩٧٩، اقتحم أتباع الإمام مبنى السفارة واستولوا عليها واحتجزوا ٥٢ من الأمريكيين كرهائن، حتى تعيد أمريكا الشاه إلى إيران كي يحاكم محاكمة عادلة.. ويشنق.

في لقاء تليفزيوني مع الشاه أثناء إقامته في أمريكا، سأله المحاور قائلًا: «ألم يخبرك أحد بما يحدث من تعذيب وانتهاكات في إيران؟»، فأجاب الشاه مبتسمًا بكل هدوء وبلكنة إنجليزية سليمة «لم يكونوا يأتون إليّ ويقولون لقد عذبنا أحدهم».

وفي مارس ١٩٨٠، بدأت «الثورة الثقافية» الخمينية، فأغلقت

الجامعات التي اعتبرت معاقل لليسار لمدة سنتين لتنقيتها من معارضي النظام الديني، وفي يوليو فصلت الدولة البيروقراطية ٢٠٠٠٠ من المعلمين و٨٠٠٠ تقريبا من الضباط باعتبارهم «متغربين» أكثر مما يجب، واستبدلوا بهم آخرين مؤيدين للخميني، وأصبح الحجاب إلزاميًا في الشوارع وأصبح حتميًا على النساء إما ارتداء أثواب طويلة داكنة اللون وتغطية رؤوسهن بأوشحة كبيرة أو ارتداء الشادور، وحظرت الجماعات السياسية التي تعارض الحكومة الإسلامية أو حتى تنتقدها، وأعلن أن ارتداء رابطات العنق واستخدام العطور ومساحيق التجميل ونمص الحواجب وطلاء الأظافر «رجس من عمل الشيطان» ومن ثم تعرض صاحبتها للعقاب الشديد، وفي المدارس وقبل دخول الفصول كل يوم، يجبر الطلبة على الانتظام في صفوف والهتاف بشعارات مفعمة بالكراهية مثل «الموت لأمريكا» و«الموت لإسرائيل».

وفي مارس ١٩٨١، ألقى رئيس الجمهورية أبو الحسن بني صدر خطابًا انتقاديًّا للحكومة في جامعة طهران، وأقر بوجود التعذيب في السجون الإيرانية، هذا الخطاب أثار كثيرًا من ردود الفعل المتباينة لدى رجال السياسة في إيران. وفي يونيو ١٩٨١ زادت خلافاته مع الحزب الجمهوري الإسلامي والخميني، واُتهم أبو الحسن بني الصدر من قبل رئيس البرلمان الإيراني وعدد من النواب الذين كانوا ينتمون للحزب الجمهوري الإسلامي، بالتقصير وعدم الكفاءة السياسية بل الخيانة، بإيعاز من الخميني بدعوى أنه يتحرك ضد رجال الدين في السلطة، وبسبب معارضة بني صدر لإعدام السجناء السياسيين وكتابته خطابات إلى الخميني يحذره فيها من الديكتاتورية، وفي النهاية تمت إقالته من منصب رئاسة الجمهورية، وصدر قرار بالقبض عليه لكنه استطاع الفرار في اللحظة الأخيرة إلى فرنسا، لكن ألقي القبض على العديد من أصدقائه ونفذت فيهم عقوبة الإعدام.

أما حسن لاهوتي أشكوري فقد قامت قوات الأمن باعتقال ابنه بسبب انتمائه لمجموعة مجاهدي خلق، وبعدها بأيام تم اعتقاله نفسه لأسباب غير معروفة ونقلوه إلى سجن إيفين بطهران، ويعتقد البعض أن مخالفته لعزل الرئيس الجمهوري أبوالحسن بني صدر كانت السبب الرئيسي لاعتقاله، وبعد أيام من الاعتقال، أعلنت الحكومة الإيرانية أنه مات إثر السكتة القلبية، أما عائلة حسن لاهوتي فقد أقرت في مقابلة صحفية مع جريدة «شهروند امروز» (المواطن اليوم) أن تقرير الطبيب الشرعي صرح بأن سبب موته هو وجود سم «استريكنين» في معدته ولم يمت بشكل طبيعي.

أما صادق قطب زاده فقد كان علمانيًا ليبراليًا، وكان من الطبيعي أن يقف قطب زاده ضد سلطة رجال الدين، فقد عارض السلطة الإلهية للخميني الملقبة بـ «ولاية الفقية»، وقد أيده في ذلك المرجع الديني «محمد كاظم الحسيني شريعتمداري»، وكانت زمرة الخميني تصف زاده بأنه «شخص فاسق يعاقر الخمر والنساء»، وحدث أن هاجم زاده الحزبَ الإسلامي الجمهوري (حزب الخميني الحاكم) في نوفمبر ١٩٨٠ فتم اعتقاله لفترة وجيزة، ثم ما لبث الخميني أن عفا عنه، وفي ٦ أبريل ١٩٨٢ تم اعتقال صادق قطب زاده بتهمة التآمر والتخطيط لانقلاب عسكري والإطاحة بالحكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية واتهمته السلطات بزرع مواد متفجرة قُرب بيت الخميني بهدف اغتياله، وقد نفى قطب زاده أثناء محاكمته تلك الاتهامات قائلًا: «إنني أختلف مع الحكومة لكنني لم أفكر بالانقلاب العسكري»، وحكم القاضي «محمد ري شهري» بإعدام صادق قطب زاده، وفي ١٥ سبتمبر ١٩٨٢، نفذ فيه الحكم في طهران.

وفي مطلع ١٩٨٢، لم يبق للخميني من عدو سوى شريعتمداري، الذي بقي يجاهر علنًا بمعارضته بدعة الخميني المسماة ولاية

الفقيه، وظل يدعو إلى إقامة جمهورية مدنية تعمل بهدي الإسلام، فاتهمته السلطات بالتآمر، وبمحاولة اغتيال قيادات في الثورة، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله، ومُنِع من التدريس، وتعرض أتباعه للتنكيل وتعرض هو للضرب والإهانة وتم إحراق مكتبته وبعد تعرضه للمرض تم منع إسعافه وعلاجه فتوفي في بيته، ودفن سرًا من قبل الأجهزة الرسمية في الليل في مقبرة مهجورة، بالرغم من أنه قد أنقذ الخميني من الإعدام في السابق في زمن الشاه رضا بهلوي، وفي ٢٠ يناير ١٩٨١، أطلق الخميني سراح الرهائن الأمريكان بعدما قضوا ٤٤٤ يومًا في الأسر، وفي الثالث من يونيو ١٩٨٩، توفي آية الله الخميني بعد صراع مع السرطان، بعدما تجاوز عدد الذين أعدمتهم المحاكم الثورية في حياته أربعين ألف شاب وشابة وشيخ وشيخة، ثلاثون ألفًا منهم فقط من منظمة مجاهدي خلق، كما أن بين هؤلاء الضحايا بضعة آلاف من الفتيات والفتيان الذين لم يبلغوا سن الرشد، ولكن الجلادين لم يرحموا الصغار كما لم يرحموا الكبار.

لا أحد يتعلم من التاريخ
ثورة رومانيا
مرحلة ما قبل الثورة

أحلك لحظات الليل ظلمة هي تلك التي تسبق بزوغ الفجر..

في العام ١٩٨٩، كان المرجل الآخذ في الغليان منذ سنوات قد أصبح انفجاره وشيكًا، لكن النظام الحاكم وحده كان يرى أن ما يحدث هو سحابة صيف عابرة.

في ٣٠ ديسمبر ١٩٤٧، سقطت الملكية في رومانيا وأعلن قيام الجمهورية الشعبية الرومانية بعدما تنازل الملك ميشيل آخر ملوك رومانيا عن عرشه. وفي مارس ١٩٦٥، توفي «جورجي جورجيو ديج Gheorghe Gheorghiu-Dej» أول زعماء رومانيا الشيوعية، الذي أرسى قاعدة الزعيم الملهم والأب القائد، ورسخ في عقول الرومانيين أن بلادهم ضحية للمؤامرات الخارجية طيلة الوقت، وفي نفس الشهر، تولى نيقولاي تشاوشيسكو منصب السكرتير الأول لحزب العمال الشيوعي الروماني، وبعد تسعة أعوام فقط استطاع تشاوشيسكو أن يقبض بيديه على كل مفاصل الدولة، وفي ٢٨ مارس ١٩٧٤ أصبح ماسح الأحذية السابق نيقولاى تشاوشيسكو رئيسًا لجمهورية رومانيا الاشتراكية الشيوعية.

كان الحزب الشيوعي الحاكم الذي يرأسه تشاوشيسكو مؤسسة ضخمة تضم ٣،٧ مليون شخص، وهو ما كان يعادل ربع البالغين وثلث القوى العاملة، وفي غضون سنوات قليلة تفوق تشاوشيسكو علي سلفه جورجيو ديج، وتركزت السلطة بالأساس في يده هو وزوجته «إلينا» التي تركت المدرسة بدرجة ممتازة في فن التطريز وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وكان قد قام

بتصعيدهـا لتصبـح عضـوًا في اللجنـة السياسـية التنفيذيـة للجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي الرومـاني.

وبالرغـم مـن اتجـاه الدولـة الشـيوعي، لكـن سياسـات تشاوشيسـكو أدت إلى توتـر العلاقـات بالاتحـاد السـوفييتي مقابـل ترحيـب كامـل مـن الغـرب، وكانـت رومانيـا مـن أوائـل دول شرق أوروبـا الـتي تنضـم إلى صنـدوق النقـد الـدولي، واسـتطاع تشاوشيسـكو الـذي ابتـدع فكرة «القائـد المعبـود» الحصـول عـلى قـروض ضخمـة مـن الصنـدوق خـلال السـبعينيات، ليـصرف منهـا ببـذخ عـلى مشـاريع تخلـد اسـمه وتعكـس جنونـه للعظمـة، مثـل إنشـاء «بيـت الجمهوريـة» شـديد الفخامـة، و«متحـف تشاوشيسـكو»، وكان يتـم اسـتغلال الإعـلام والأحـداث الرياضيـة في الملاعـب والشـوارع لـه ولزوجتـه وللحـزب الشـيوعي الحاكـم، ممـا أرهـق ميزانيـة الدولـة بشـدة.

وكعـادة الديكتاتوريـين في القيـام بمشـاريع ضخمـة تخلـد أساميهم دون أن يكـون لهـا منفعـة حقيقيـة، بـدأ تشاوشسـيكو في نهايـة السـبعينيات في تنفيـذ مشروعـه المجنـون بتحديـث رومانيـا الـذي دعـاه «سيسـتيماتيزاريا»، وفي المقابـل قـام بعمليـات تهجـير قـسري واسـعة النطـاق لسـكان وسـط بوخارسـت وهـدم منازلهـم، ودمـر عـددًا ضخمًـا مـن المبـاني الأثريـة التاريخيـة المهمـة بمـا يعـادل ٢٥٠ هكتـارًا مـن وسـط بوخارسـت التاريخـي مثـل شـارع «شـتيربي فـودا» التاريخـي، ومجمـع «فاكاراشـتي» الهائـل للأديـرة الـذي يعـود للقـرن الثامـن عـشر، وديـر «باتليمـون» الـذي يعـود أيضـا للقـرن الثامـن عـشر، وكنيسـة «اني» الـتي تعـود للقـرن السـابع عـشر مـن أجـل مـشروع بنـاء «قـصر الشـعب»، ثـم عـاد ودمـر منطقـة مسـتطيلة طولهـا خمسـة كيلومـترات وعرضهـا كيلومـتر واحـد مـن أجـل إنشـاء شـارع مشـابه للشـانزليزيه في باريـس الـتي كان مولعًـا بهـا أسـماه شـارع «انتصـار الاشـتراكية»، وبلغـت حصيلـة التدمـير التاريخيـة ٢٧ كنيسـة أرثوذكسـية، وسـتة معابـد يهوديـة، وثـلاث

كنائس بروتستانتية، وأطلقت المعارضة على عملية التهجير القسري لفظ «تشاوشيما» الذي يتكون من مقطعين، «تشاو» نسبة إلى تشاوشيسكو، و«شيما» نسبة إلى قنبلة هيروشيما، وانتهى العمل بمشروع «سيستيماتيزاريا» عام ١٩٨٨.

مشروعات تشاوشيسكو المكلفة وحرية الاقتراض من الغرب أغرقت رومانيا في الديون إلى حد اضطرت معه الحكومة إلى تصدير بعض السلع على حساب الاستهلاك المحلي، وتدهور الاقتصاد الروماني إلى حد غير مسبوق، وانهارت مستويات المعيشة للغالبية العظمى من الرومانيين، حتى وصفت رومانيا في ذلك الوقت بإثيوبيا أوربا. ومع بداية الثمانينيات، أصبح سداد هذا الدين عبئًا كبيرًا على مالية الدولة، فقرر تشاوشيسكو سداد ديون رومانيا بالكامل، ونظم استفتاء على إجراء تعديل دستوري يمنع رومانيا من تلقي قروض من الخارج في المستقبل، وبناء على هذا القرار، جرى توجيه معظم الإنتاج الصناعي والزراعي للبلاد من أجل سداد الدين، وكانت نتيجة هذه الإجراءات كارثية على الأغلبية الساحقة من الشعب، حيث تم تعميم نظام الحصص من السلع الغذائية في جميع أنحاء البلاد باستثناء العاصمة، وجرى تقليص هذه الحصص على نحو مستمر، وتراجع استهلاك الطاقة بصورة مروعة، وتوقفت أنظمة التدفئة المركزية، وحتى التلفزيون الرسمي قلصت قنواته لتصبح قناة واحدة تبث لمدة ساعتين فقط يوميا، أما الكهرباء فكان يتم قطعها لساعات طويلة وخاصة في الليل من أجل التوفير، وبلغ الفقر وضيق المعيشة مستويات غير مسبوقة، وتم وقف الاستيراد بصورة شبه كاملة، باستثناء استيراد السلع الفاخرة لتشاوشيسكو والزمرة المحيطة به، حتي تم سداد ديون رومانيا كاملة في صيف ١٩٨٩.

أحكم تشاوشيسكو الذي لقب بـ«الملك الأحمر» سيطرته على

البلاد تحت مثل هذه الظروف المعيشية القاسية من خلال جهاز أمن الدولة «السيكيوريتات Securitate» الذي كان من أقدم أجهزة النظام الستاليني في رومانيا وأسوأها سمعة وأكثرها توحشًا وقمعًا للمعارضين الذين رفعوا شعارا «نريد الخبز»، وعلى الرغم من أن تشاوشيسكو قد وعد في بداية حكمه بتحجيم دور هذا الجهاز، فإن الواقع كان على عكس ذلك تماما، فقد تضخم الجهاز في عهده وتوسع في عمله، واخترق جميع المؤسسات المدنية إلى حد أن البعض قدر أن واحدا من بين كل أربعة رومانيين بالغين كان عميلا لأمن الدولة، ولم يكن يتم إبداء أي تسامح مع من يشكك في إنجازات تشاوشيسكو التي لقبت بـ «عصر الانتصار»، ولم يتردد تشاوشيسكو في توجيه الأوامر لقواته بإطلاق النار على إضراب العمال في ١٩٨٧.

إلى جانب ذلك، كانت الأقلية المجرية تتعرض لاضطهاد شديد، حيث كان النظام دائمًا ما يقوم بالتأليب ضدها باعتبارها مخرجًا لتفريغ الغضب الشعبي، وفي ظل هذا الوضع، لم تكن هناك مساحة لظهور أي شكل من أشكال المعارضة المنظمة، واقتصرت المعارضة قبيل اندلاع الثورة على أشخاص معدودين في العاصمة، بينما كانت الأقاليم تشهد معارضة أكثر نشاطًا، وأصيب تشاوشيسكو في سنواته الأخيرة بجنون العظمة، فكان يطلق على نفسه القائد العظيم والملهم، و«دانوب الفكر» نسبة لنهر الدانوب، والمنار المضيء للإنسانية، والعبقري الذي يعرف كل شيء، وأسهم في تنامي جنونه للعظمة جوقة المنافقين المحيطين به الذين شبهوه بيوليوس قيصر وبالإسكندر الأكبر، ولقبوه بمنقذ الشعب، و«الشمس التي تشع الدفء»، وأن عصره هو العصر الذهبي لرومانيا.

امتلك تشاوشيسكو خمسة قصور أحدها به ألف حجرة، وقدرت قيمة بناء ذلك القصر بعدة مليارات من الدولارات فقد

بلغت مسطحات بناء ذلك القصر ٤٥٠٠٠م٢ وارتفاعه عن الأرض مائة متر، وقد شارك في بنائه خمسة عشر ألف عامل عملوا ليلًا ونهارًا حتى تم بناؤه، كما كان يمتلك تسعة وثلاثين فيلا فاخرة، وتسع طائرات مجهزة كقصور طائرة، وثلاثة قطارات خاصة به كبيوت متنقلة عبر أنحاء رومانيا، وقدرت ثروته الشخصية في بنوك سويسرا عند إعدامه بثمانية مليارات دولار، في وقت كان الشعب كله يئن في فقره، وبالرغم من القبضة الأمنية القوية التي أحكمها تشاوشيسكو حول شعبه، فإن ذلك لم يمنع من تنامي السخط الشعبي بشكل مضطرد، وبدأ يفقد موقعه الدولي المتميز، خصوصًا مع التغيرات التي بدأت تطرأ على طبيعة دول الكتلة الشرقية وانحسار المد الشيوعي، وقاوم تشاوشيسكو بشدة دعوات الزعيم السوفييتي جورباتشوف إلى الإصلاح، وعلى جانب آخر بدأت القوى الغربية تشعر بالقلق أكثر لتقلباته المزاجية المستمرة، ولم تعد علاقاتها الخاصة بنظامه ذات قيمة إضافة إلى كونها أصبحت مصدر حرج.

في بداية عام ١٩٨٩، كانت الأنظمة الديكتاتورية في شرق أوروبا تتهاوى الواحدة تلو الأخرى مما شجع بعضًا من حركات المعارضة على الظهور على استحياء، فحاول صحفيو ثاني أكبر جريدة في رومانيا نشر عدد ينتقد تشاوشيسكو مباشرة، لكن تم اعتقالهم على الفور وحكم عليهم بالإعدام، لكن لم ينفذ الحكم وأنقذت الثورة حياتهم لاحقًا، بينما بعث ستة من القادة الشيوعيين وكبار موظفي الدولة السابقين في رومانيا رسالة إلى تشاوشيسكو لقبت بـ «رسالة الستة»، وانتقدوا فيها وبشدة حكمه الديكتاتوري، ونشرت الرسالة على العلن، فما كان من تشاوشيسكو إلا أن وضع بعض كاتبيها تحت الإقامة الجبرية، ونفى البعض الآخر إلى مناطق نائية داخل رومانيا، لكن الرسالة انتشرت بكثافة، وأعطت للرومانيين انطباعًا بأن حتى بعض

مـن كبـار رجـال الدولـة لـم يعـد بإمكانهـم التعايـش مـع نظـام تشاوشيسكو، وأن ثمة ثـورة مـا تلـوح في الأفـق، لكـن المقربـين مـن الزعيـم أقنعـوه أن مـا يحـدث مجـرد زوبعـة في فنجـان، ومضـت الأمـور عـلى طبيعتهـا في بوخارسـت، وعقـد الحـزب الشـيوعي الرومـاني الحاكـم مؤتمـره الرابـع عـشر، وأعـاد انتخـاب تشاوشيسـكو رئيسـا بالإجمـاع، وألقـى الزعيـم خطابـه التقليـدي الـذي امتـد لنحـو سـت سـاعات، وألقـى فيـه باللـوم عـلي المؤامـرات الخارجيـة الـتي تحيكهـا الـدول الرأسـمالية عـلى رومانيـا.

في التاسـع مـن نوفمـبر ١٩٨٩، انهـار جـدار برلـين منـذرًا بتداعـي الشـيوعية مـن أوروبـا بالكامـل، وبعـد أقـل مـن شـهر تقريبًـا تلقـى راعـي الكنيسـة البروتسـتانتية في مدينـة تيمشـوارا الـتي تعـج بالأقليـة المجريـة القـس «لازلـو توكيـش» أمـرًا مـن السـلطات بإبعـاده إلى قريـة نائيـة، لكـن الكاهـن المنتمي إلى الأقليـة المجريـة، الـذي عـرف عنـه مجاهرتـه ونقـده الـلاذع للنظـام، رفـض تنفيـذ أمـر الإبعـاد، فما كان مـن قيـادة كنيسـته إلا أنهـا طلبـت مـن السـلطات أن تنفـذ أمـر الإبعـاد بنفسـها، وحـددت يـوم الخامـس عـشر مـن ديسـمبر ١٩٨٩ لتنفيـذ الأمـر.

في هـذا اليـوم تجمـع الآلاف مـن المتظاهريـن مـن الأقليـة المجريـة في الميـدان المواجـه للكنيسـة لمنـع تنفيـذ الأمـر، وألقـى الراعـي خطبـة انتقـد فيهـا تشاوشيسـكو، وعـلى الفـور توافـدت قـوات الأمـن، واشـتبكت مـع المشـاركين واسـتطاعت فـض التجمـع، ومـر اليـوم دون تنفيـذ أمـر إبعـاد راعـي الكنيسـة، لكـن في صبـاح اليـوم التـالي ١٦ ديسـمبر، تظاهـر مـا يقـرب مـن عـشرة آلاف متظاهـر معظمهـم مـن الطلبـة في ميـدان «أوبـيري» منددين بسياسـات تشاويسـكو، واندلعـت الاشـتباكات بـين المتظاهريـن وقـوات الأمـن، وسـقط مئـات الضحايـا، وفشـلت قـوات الأمـن في احتـواء حركـة الشـارع بالرغـم مـن العنـف الشـديد.

وفي صباح اليوم الثالث ١٧ ديسمبر، دعا تشاوشيسكو اللجنة السياسية التنفيذية للحزب الشيوعي إلى اجتماع طارئ حضرته زوجته إيلينا، وفيه صب الديكتاتور وزوجته جام غضبهما على مسئولي الدولة وعلى وزير الدفاع وقائد قوات أمن الدولة بشكل خاص لما اعتبراه تقاعسًا عن مواجهة المظاهرات بالحزم المطلوب، ووجه تشاوشيسكو أمرًا مباشرًا بإطلاق النيران على مثيري الشغب والعملاء والخونة -كما سماهم- الذين يحاولون العبث بأمن رومانيا، ثم كلف أحد مساعديه ليتولى بنفسه قيادة عملية قمع الانتفاضة في تيميشوارا، وفى مساء الأحد الدامي ١٧ ديسمبر، فتحت قوات الأمن النظامية المدعومة من الجيش يعاونها أفراد بملابس مدنية النار على الحشود المجتمعة في «أوبيري» فأردت المئات صرعى، وغادر تشاوشيسكو بوخارست صباح اليوم التالى ١٨ ديسمبر في زيارة رسمية مقررة سلفًا إلى إيران بعد أن أطمأن على سحق التمرد بالكامل، واستمر إطلاق النار طيلة اليومين التاليين مسببة انتقال عدوى الإضرابات والتظاهرات والثورة إلى جميع أنحاء البلاد وإلى العاصمة الرومانية بوخارست.

عدد الضحايا في هذا اليوم ليس معروفا على وجه الدقة، التقارير الأولى ذكرت أن القتلى بالمئات ولكن التقدير الرسمي لحكومة ما بعد الثورة حدد العدد بمائة قتيل، وفي ١٩ ديسمبر، قام العمال بإضرابات في المنطقة، وهدد بعضهم بتدمير المصانع إذا تعرضت لهم قوات الأمن، وتظاهر نحو ٨٠ ألف شخص، واستطاعوا الاستيلاء على السلاح من قوات الأمن، وبحلول ٢٠ ديسمبر، حدث انقلاب مفاجئ لموقف قوات الجيش في تيميشوارا، فبعد مشاركتها في إطلاق النار على المتظاهرين طوال الأيام الثلاثة الماضية أظهرت التضامن معهم، وهو ما دفع الجماهير إلى الهتاف «الجيش معنا»، وأدى هذا التحول إلى

إنهاء الاشتباكات في المدينة وتكوين أولى اللجان الثورية الشعبية بها، لتصبح تيميشوارا أولى المدن الرومانية التي تتحرر من حكم الديكتاتور.

عاد تشاوشيسكو إلى بوخارست في هذا اليوم نفسه وأدرك عمق الأزمة، وفي صباح اليوم التالي ٢١ ديسمبر، اقترف تشاوشيسكو أسوأ أخطائه قاطبة عندما حاول استرضاء الشعب وألقى خطبة من شرفة مبنى اللجنة المركزية للحزب أمام حشد من العمال الذين يُفترض ولاؤهم له، ونقلت عبر البث الحي للتلفاز إلى المشاهدين في منازلهم، وحذر من الفوضى العارمة التي ستحدث إن أصروا على رحيله، وتوقع مظاهرة تأييد ضخمة تلقي بالرعب في قلوب من سولت لهم أنفسهم الخروج على طاعة الزعيم القائد.

لكن الأمور لم تمض كما صور له خياله، وتعالت الهتافات، وقاطعت الجماهير الغاضبة خطابه بأصوات الاستهجان والازدراء، وبدا الذهول واضحًا على وجهه، فقالت له إيلينا من داخل الشرفة: «أعطهم مائة إضافية»، فبدأ تشاوشيسكو يقطع الوعود بإجراء الإصلاحات ورفع الأجور والمعاشات على أمل أن يصمتوا، غير أن الحشود لم تعد ترغب بالإصغاء لأقواله، وبدأوا بسحق رايات الشعارات المؤيدة تحت أقدامهم، وبعد دقائق فقط من بداية الخطاب كان بالإمكان سماع صيحات من بين صفوف الجماهير تردد «تيميشوارا» و«تشاوشيسكو ديكتاتور»، مما دفعه إلى المغادرة، ومع انقطاع البث كان واضحا أن الميدان الذي يعج بالجماهير قد تحول إلى ساحة للفوضى، وأدرك الناس أن النظام يواجه أزمة ضخمة، واندلعت الحرب الأهلية بين قوات الأمن والثوار في مختلف مناطق رومانيا وخلَّفت آلاف القتلى والجرحى والمصابين بالرصاص الحي في محاولة لإخماد الثورة، وانهارت الشرطة حرفيًا أمام سيل المتظاهرين الذي لا يجف،

فأمـر تشاوشيسـكو قـوات الجيـش بالـنزول لـضرب المتظاهريـن وقمـع الثـورة.

وفي اليـوم التـالى ٢٢ ديسـمبر، تواتـرت الأنبـاء حـول حـدوث خلافـات بـين تشاوشيسـكو والجيـش، وقـرر وزيـر الدفـاع سـحب الجيـش مـن المعركـة فاغتالتـه قـوات الأمـن عـلى الفـور، وأعلـن مـن خـلال الإذاعـة أن وزيـر الدفـاع قـد انتحـر بعدمـا تـم افتضـاح خيانتـه، ولـم يكـن ثمـة شـك لـدى كثيريـن أن تشاوشيسـكو قـد أمـر بقتـل الرجـل بعدمـا رفـض تنفيـذ أوامـره بإطـلاق النـار عـلى المتظاهريـن، ممـا أدى إلى حـدوث تمـرد شـامل بالجيـش، وفي النهايـة أعلـن الجيـش انضمامـه لمعسـكر الثـورة وإعـلان ولائـه لحكومـة جبهـة الإنقـاذ الوطـني الـتي أعلـن تشـكيلها عـلى عجـل يـوم ٢٢ ديسـمبر.

وعـلى أي حـال، فـإن مقتـل وزيـر الدفـاع أدى إلى أن يـدرك كبـار الضبـاط أن الخيـار الأفضـل هـو الانحيـاز إلى الثـورة، وتلقـى المجنـدون الأوامـر بمنـع إطـلاق النـار عـلى المتظاهريـن، ممـا دفـع النـاس في الشـوارع للهتـاف «الجيـش معنـا»، وقـدم المتظاهـرون الزهـور لجنـود الجيـش واعتلـوا أسـطح الدبابـات والتقطـوا الصـور التذكاريـة بجانبهـا.

فى نفـس اليـوم ٢٢ ديسـمبر، حـاول تشاوشيسـكو للمـرة الأخـيرة مخاطبـة شـعبه مـن شرفـة القـصر ولكـن الميكروفـون لـم يعمـل وكانـت أعـداد مـن المتظاهريـن قـد بـدأت بالفعـل تدخـل إلى المبـنى بعـد اقتحامـه، وأخـذت أصـوات المتظاهريـن تهـدر ممـا أصـاب تشاوشيسـكو بالرعـب، و بالـكاد تمكـن تشاوشيسـكو و زوجتـه و أربعة مرافقـين مـن الهـرب بواسـطة طائـرة مروحيـة كانـت فى إنتظارهـم عـلي سـطح القـصر ، و بينمـا كان المفـترض بهـذه المروحيـة أن تؤمـن لـه سـبيل الفـرار ، إلا أن قائـد المروحيـة خـان تشاوشيسـكو و تركـه مـع إيلينـا زوجتـه ومرافقيـه عـلى جانـب أحـد الطـرق خـارج

بوخارست ، فأستقل بعدها سيارة سرقها رفاقه من إحدى المزارع، ولم يمض وقت طويل قبل أن يلقي بعض الجنود القبض على تشاوشيسكو وزوجته فيقتادونهما إلى قاعدة عسكرية في مدينة تدعى تيرجوفيستى بعد أسبوع واحد من اندلاع الثورة، وطوال اليومين التاليين تم إبقاء تشاوشيسكو معظم الوقت في مدرعة عسكرية ظلت تجوب أنحاء القاعدة العسكرية كإجراء إضافي خوفا من تمكن أفراد أمن الدولة الموالين له من اكتشاف مكانه والتدبير لإطلاق سراحه.

الفترة من ٢٢ إلى ٢٥ ديسمبر ١٩٨٩ شهدت تحول شوارع بوخارست إلى ساحة حرب شوارع دامية، وعلى الرغم من أن الجيش الذي كان يطلق النار على المتظاهرين في الأيام السابقة، قد أعلن «حماية الثورة» ووقوفه بجانب المتظاهرين، فإن ذلك لم يمنع توالي سقوط الضحايا، فمن الذي كان يطلق النيران؟ النظرية التي فسرت سقوط الضحايا بالمئات هي أن أفراد أمن الدولة الذين بقوا على ولائهم لتشاوشيسكو هم الذين كانوا يطلقون النيران في محاولة بائسة أخيرة للحفاظ على النظام الذي كان يحميهم، وسرت شائعة تتحدث عن قوات خاصة تم تشكيلها خارج سلسلة القيادة العادية لأمن الدولة، تتكون من رجال أخذوا في صغرهم من دور الأيتام ويدينون بالولاء الكامل للزعيم، وسرت شائعة أخرى تتحدث عن مرتزقة جلبوا لدعم نظام الديكتاتور وإثارة الفوضى من بلدان مثل ليبيا وإيران كان لتشاوشيسكو علاقات وثيقة معها، وأكد تلك الشائعات أنه لم يتم اعتقال أو محاكمة أي من هؤلاء بعد الثورة، وحتى العدد القليل جدا منهم الذين ألقي القبض عليهم بعد إصابتهم أو استسلامهم، قد اختفوا بشكل غامض من أسرَّة المستشفيات وزنازين السجون التي نقلوا إليها، ولم يمثل أي منهم أمام أي جهة تحقيق أو يقدم للمحاكمة.

لكن التفسير الأقرب للواقع أن الجيش الذي كان يطلق النيران على المتظاهرين طوال الفترة من ١٧ إلى ٢٢ ديسمبر كان في حاجة إلى عملية تجميل لصورته التي لطخها دوره في قتل الثوار، وبالتالي كان لابد من اختلاق عدو خفي وشرس للثورة يتولى الجيش مواجهته، ليظهر بمظهر حامي الثورة والشريك الذي لا غنى عنه في إنجاحها، كما أن تعليق الشكوك بجهاز أمن الدولة كطرف محتمل وراء الاعتداءات الدامية يسهم في تلطيخ سمعة هذا الجهاز الذي كان طوال عقود منافسا هاما للجيش النظامي ويتمتع رجاله بالقرب أكثر من مركز السلطة في القصر الرئاسي.

دمرت أحداث العنف مباني كثيرة في العاصمة دون أن تمس مبنى الإذاعة والتليفزيون ولا مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الذي كان أفراد جبهة الإنقاذ الوطني في حالة اجتماع دائم به بدون تفسير مقنع رغم عدم منطقية ذلك، وبث التليفزيون الروماني تقارير مصورة حية لأحداث العنف في الشوارع ونداءات الاستغاثة التي طالبت الجماهير بالتضامن مع الثوار ودعمهم في مواجهة العدو الخفي الذي يطلق عليهم نيرانه، وكانت أصوات المعلقين على الأنباء من داخل الاستوديو تختلط بصوت إطلاق الرصاص الذي لم ينقطع خارجه.

وفي يوم عيد الميلاد «الكريسماس» ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٨٩، شكلت محكمة عسكرية على عجل، وكان القضاة مجموعة من جنرالات الجيش، وحوكم تشاوشيسكو وزوجته في جلسة علنية أشبه بتمثيلية هزلية أعدت بهدف التخلص السريع من تشاوشيسكو وزوجته بإطار من الشرعية القانونية، تم تسجيلها على أشرطة سينمائية وبثتها إحدى شبكات التلفزيون الفرنسية لاحقًا، ومثل أمامها تشاوشيسكو وزوجته وتم مواجهتهما بقائمة طويلة من التهم، منها التصفية العرقية، والقتل الجماعي، وتدمير الملكية العامة، والكسب غير المشروع، وإرهاب الشعب

وتجويعه، وقتل المتظاهرين وتهم أخرى تتصل بالفساد.

كان من الواضح في تفاصيل الحوار الذي دار بين تشاوشيسكو وإيلينا وبين القضاة الذين مثلا أمامهم أن هناك معرفة شخصية بين الطرفين إلى حد أن إيلينا توجهت بالحديث إلى أحدهم في إحدى اللحظات قائلة: «لقد كنت بمثابة أمك»، وربما كانت تلك العلاقة والمعرفة بينهم كمتهمين وبين القضاة هي أحد أسباب رفض تشاوشيسكو وزوجته الاعتراف بشرعية المحاكمة وقضاتها وهو ما كرراه عدة مرات. على جانب آخر، عمد ممثل الدفاع عن المتهمين الذي عينته المحكمة إلى التسليم نيابة عنهما بصحة الاتهامات المنسوبة إليهما، ولم يحاول تقديم أي دفوع ضد هذه التهم أو ضد سلامة الإجراءات.

كان تشاوشيسكو مع زوجته أثناء محاكمتهما في غاية العصبية، فقاما بشتم القضاة، واستمرت المحاكمة التي عرض شريط لبعض أجزائها على شاشات التليفزيون فيما بعد لعدة ساعات، وانتهت بإدانة تشاوشيسكو وإيلينا بجميع التهم الموجهة إليهما، وأصدر القضاة حكمهم بإعدام المتهمين، وحين رأى تشاوشيسكو جدية الموضوع أخذ يبكي كالأطفال وخصوصًا حين قام الجنود بتقييده قبل إطلاق الرصاص عليه، وقامت زوجته العجوز والبالغة من العمر ثلاثة وسبعين عامًا بضرب أحد الجنود على وجهه حين حاول تقييدها قبل تنفيذ حكم الإعدام بها، ويقال أن الزوجة قد تبرزت في ملابسها من الخوف أثناء اقتيادها إلى ميدان ضرب النار، ونفذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص في خلال دقائق من إصداره بإشراف من جبهة الإنقاذ الوطني، وشارك عضوان من هيئة المحكمة بنفسيهما في توجيه الرصاصة القاتلة إلى رأس كل منهما.

الجدير بالذكر أن هذين العضوين تحديدًا شغلا فيما بعد مناصب هامة في الحكومة الجديدة التي تشكلت في أعقاب الثورة،

وأصبح أحدهما رئيس جهاز المخابرات الجديد، وفى مساء ٢٥ ديسمبر، أذاع التلفاز صور جثته هو وزوجته، وشهد اليوم ذاته اختفاء العناصر الإرهابية التي أحدثت الفوضى خلال الأيام السابقة بشكل مفاجئ وكأنها تبخرت في الهواء، واحتفل الشعب بنجاح ثورة الياسمين.

لا أحد يتعلم من التاريخ
ثورة رومانيا
مرحلة ما بعد الثورة

رحـل تشاوشيسـكو وزوجتـه ونظامـه بغـير رجعـة، أو هكـذا ظـن الثـوار وقتهـا وابتلعـوا الطُعـم...

في الأيـام التاليـة لإعـدام تشاوشيسـكو، كان الثـوار منشـغلين بحـرق صـور الديكتاتـور، والتقـاط الصـور التذكاريـة أسـفل مركبـات ومدرعـات الجيـش، وكانـت رومانيـا بالكامـل تغـني للثـورة، وطـلاب الجامعـات والمـدارس يسـتشرفون مسـتقبلًا مشرقًـا للبـلاد.

أثـارت السرعـة والسـهولة الـتي تشـكلت بهـا حكومـة جبهـة الإنقـاذ الوطـني الشـك في وجـود مؤامـرة مـا لقلـب نظـام الحكـم في أروقـة الحـزب والسـلطة منـذ زمـن، فقـط كانـت تنتظـر فرصـة سـانحة للانقـلاب وهـو مـا أتاحتـه لهـا الثـورة، أكـد ذلـك التحـول المفاجـئ لموقـف الجيـش مـن معـاداة الثـورة في البدايـة إلى تأييدهـا لاحقًـا، وحـتى تشـكيل جبهـة الإنقـاذ الوطـني كان محـل تسـاؤل وشـكوك، فقـد ضمـت الجبهـة عـددا محـدودا مـن المعارضـين البارزيـن، أمـا الغالبيـة العظمـى مـن أفرادهـا فكانـوا مـن رجـال الحـزب الشـيوعي الحاكـم ومـن المقربـين للرئيـس المخلـوع، إضافـة إلى عـدد كبـير مـن جـنرالات الجيـش وقـادة جهـاز أمـن الدولـة الذيـن قامـت ضدهـم الثـورة في الأسـاس، بـل ورأسـها إيـون إيليسـكو أحـد رجـال الديكتاتور المخلـوع ونائبـه، ممـا يعـد إشـارة عـلى ثمـة اتفـاق قـد عقـد بـين قيـادات الجيـش وبـين الحكومـة الجديـدة، يؤيـد الجيـش بموجبـه

الثـورة ظاهريًـا، مقابـل التأكيـد عـلى عـدم المحاسـبة لاحقًـا، إضافـة الى الحفـاظ عـلى مناصبهـم، وطمأنـة جـنرالات الجيـش بـأن قيـادة البـلاد سـتؤول للنظـام القديـم ذاتـه وليـس للثـوار، لكـن في وسـط الفرحـة الزائفـة ونشـوة الانتصـار، أغفلـت قـوى المعارضـة تلـك التسـاولات، ووضعـت كل ثقتهـا بالجبهـة.

قبضـت جبهـة الإنقـاذ الوطـني عـلى زمـام الأمـور، وكانـت الخطـوة الأولى الـتي قامـت بهـا الجبهـة هـي توجيـه أمـر بتسـليم جميـع الأسـلحة إلى الجيـش، وتوعـدت مـن يخالـف ذلـك الأمـر بعقـاب قـاس، واضطلعـت الجبهـة بمحاكمـة وسـجن القلـة القليلـة مـن رمـوز النظـام القديـم مـن المقربـين مـن تشاوتشيسـكو، والذيـن لـم يكـن لهـم في الحقيقـة أي دور حقيقـي في الحـزب، واتخـذت في البدايـة خطـوات إزاء حـل الحـزب الشـيوعي الرومـاني الـذي كان قـد احتكـر السـلطة منـذ نهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة، وأعلنـت الجبهـة أن هدفهـا إقامـة اقتصـاد يرتكـز عـلى السـوق الحـر ونظـام ديمقراطـي تعـددي، وتـولى إيـون إيليسـكو إدارة شـئون المرحلـة الانتقاليـة لحـين الإعـداد للانتخابـات تحـت مظلـة وحمايـة الجيـش والأمـن، وامتـدح الثـورة واحتفـى بهـا، وأوهـم الثـوار والحـركات الثوريـة بأنـه مـع الثـورة قلبـا وقالبـا.

وفجـأة.. حـدث انفـلات أمـني رهيـب في رومانيا، وبـدأت مجموعات مـن الأشـخاص المجهولـين يهاجمـون المنـازل والمنشـآت الحيويـة، وانتـشرت حـوادث الاغتصـاب والسرقـة وقطـع الطـرق والسـطو، ممـا تسـبب في إحسـاس المواطنـين بالهلـع وانعـدام الأمـن بالرغـم مـن تصريحـات الجيـش المسـتمرة بالتصـدي للبلطجـة والانفـلات الأمـني، في نفـس الوقـت لعـب الإعـلام الخاضـع للنظـام دورًا في نـشر الذعـر عـن طريـق الشـائعات الكاذبـة المتواليـة وتضخيـم حالـة الذعـر العامـة، ومـن ناحيـة أخـرى افتعـل الحـزب الشـيوعي أزمـات متواليـة في السـلع الأساسـية والوقـود لإيجـاد رأي عـام مضـاد

للثـورة، وارتفعـت الأسـعار وأصبحـت الحيـاة صعبـة للغايـة، ولـم يجـد الشـعب الوقـود الـكافي للحيـاة، وفقـدت رومانيـا ٩٤٢ قتيـلًا بسـبب أحـداث الانفـلات الأمـني المفتعلـة، وقـضى الرومانيـون في هـذه اللحظـات أيامًـا قاسـية للغايـة ولـم يجـدوا أمامهـم مفـرًا إلا بالالتفـاف حـول إيليسـكو نائـب الديكتاتـور الـذي قامـت الثـورة ضـده، رغبـة في عـودة الأمـن والأمـان للشـارع الرومـاني مـرة أخـرى، ثـم تبـين فيمـا بعـد أن الفـوضى والانفـلات الأمـني كانـت مـن تخطيـط إيليسـكو بمسـاهمة مـن الأجهـزة الأمنيـة، وبـدأ رجـل الشـارع البسـيط ينـدم عـلى الاسـتقرار والأمـان الـذي عاشـه في عهـد المخلـوع تشاوشيسـكو.

بـدأت الخلافـات بـين الثـوار وبـين جبهـة الإنقـاذ الوطـني منـذ الأسـابيع الأولى عقـب الإطاحـة بتشاوشيسـكو، وبعـد أسـبوعين مـن إصـدار الأوامـر للشـعب بتسـليم السـلاح، أدرك الثـوار أن إيليسـكو يسـعى لإجهـاض الثـورة ويقـود الثـورة المضـادة، خصوصًـا مـع اسـتمرار كبـار المسـئولين في النظـام القديـم في وظائفهـم، واسـتمرار ضبـاط قـوات الأمـن في مواقعهـم، دون تقديمهـم لمحاكمـات حقيقيـة عـلى مـا ارتكبـوه مـن جرائـم، وتـولى الكثـير مـن أنصـار النظـام القديـم مناصـب قياديـة في جبهـة الإنقـاذ الوطـني، ولـم تتوقـف أعمـال القمـع، واسـتمرت سـيطرة النظـام عـلى الإعـلام.

مـع تنامـي الضغـوط مـن الثـوار، وعـدت جبهـة الإنقـاذ الوطـني بتنظيـم أول انتخابـات ديمقراطيـة في تاريـخ رومانيـا خـلال شـهر مايو ١٩٩٠، وأعلنـت بحسـم عـن نيتهـا عـدم خـوض الانتخابـات المقبلـة، واتخـذت هـذه الحكومـة عـدة إجـراءات تعـبر عـن أن البـلاد قـد دخلـت في عهـد جديـد، فأسـقطت صفـة الجمهوريـة الاشـتراكية مـن الاسـم الرسـمي للدولـة، وأعلنـت وقـف مـشروع تشاوشيسـكو لإعـادة هيكلـة الريـف، وأنهـت الوضع الخـاص للحزب الشـيوعي في الدسـتور الـذي كان يحظـر تشـكيل أحـزاب أخـرى بخلافـه، لكـن دون أن تحـل

الحـزب نفسـه، وبسرعـة تشـكل نحـو ٢٠٠ حـزب جديـد بعـد الثـورة، تمحـورت معظمهـا حـول شـخصيات وليـس برامـج، وتراجعـت الجبهـة عـن وعدهـا بحـل الحـزب الشـيوعي الحاكـم تحـت مـبرر أن مثـل هـذا الإجـراء لـن يكـون دسـتوريًّا، لكـن مـع مـرور الوقـت انحـل الحـزب الشـيوعي تلقائيًّـا عندمـا اسـتقال معظـم أعضائـه، وأعـادوا تكويـن نسـخة مصغـرة منـه تحـت اسـم «حـزب العمـال الاشـتراكي»، ومـع اسـتمرار الاضطرابـات في شـهر فبرايـر وافقـت جبهـة الإنقـاذ عـلى تقاسـم شـكلي للسـلطة في إطـار مجلـس للوحـدة الوطنيـة، يشـارك فيـه بعـض عنـاصر المعارضـة وإن ظـل في معظمـه تحـت سـيطرة الجبهـة.

مـع اقـتراب الانتخابـات الأولى بعـد الثـورة في مايـو ١٩٩٠، ورغـم إعـلان الجبهـة نيتهـا عـدم خـوض انتخابـات المقبلـة، وإعـلان إيليسـكو عـدم رغبتـه هـو وأعضـاء حكومتـه في الاسـتمرار بالحكـم، فـإن جبهـة الإنقـاذ الوطـني أعلنـت عـن تأسـيس حـزب سـياسي عنـد اقـتراب موعـد عقـد الانتخابـات، وعـلى جانـب آخـر ترشـح إيـون إيليسـكو لمنصـب رئيـس الجمهوريـة، واسـتخدمت جبهـة الإنقـاذ الوطـني وسـائل الإعـلام الحكوميـة بكثافـة، وقامـت بتعبئـة الناخبـين مـن خـلال شـبكات الحـزب الشـيوعي القديمـة في الريـف والحـضر، وبالتـوازي كانـت القـوى الـتي أشـعلت شرارة الثـورة رافضـة للطريقـة الـتي تـم بهـا التحـول وأدت إلى بقـاء النظـام القديـم عـلى حالـه، وفي أبريـل ١٩٩٠ وقبيـل موعـد الانتخابـات بأسـابيع، نظـم الطلبـة اعتصامًـا مفتوحًـا في سـاحة جامعـة بوخارسـت، شـارك فيـه عـشرات الآلاف مـن المعارضـين تحـت شـعار«لا تسرقـوا الثـورة»، اعتراضـا عـلى عـودة النظـام القديـم والتراجـع في الوعـود، وطالبـوا بتطهـير الأجهـزة الحكوميـة مـن كل أعضـاء الحـزب الشـيوعي القديـم، وإلغاء وتفكيـك جهـاز أمـن الدولـة سـيئ السـمعة، فاسـتجابت الجبهـة إلى طلبـات للمعارضـة بتأجيـل الانتخابـات شـهرًا إضافيًّـا لإتاحـة

الفرصة للأحزاب الجديدة حتى تنظم أمورها، دون أن تتراجع عن تأسيسها لحزب سياسي.

وفي مايو أُجريت الانتخابات، وكان الإقبال على مراكز الاقتراع هائلًا، حيث صوت ١٤ مليون ناخب من ضمن ١٦ مليونًا يحق لهم الانتخاب، وحققت جبهة الإنقاذ انتصارًا ساحقًا، فقد حصدت الجبهة الوطنية للإنقاذ ٦٥٪ من مقاعد أول برلمان بعد الثورة بما يقارب ثلثي عدد المقاعد في ظل استمرار الاعتصام، أما إيون إيليسكو فقد فاز بالرئاسة بأغلبية ساحقة بنسبة ٨٥٪ بحثا عن الاستقرار، فقد كانت قطاعات واسعة من الشعب ترى في إيليسكو ممثلًا للثورة، خصوصًا عندما اتخذ قرارًا فوريًا فور تشكيل الحكومة المؤقتة في فبراير ١٩٩٠ بإعادة الأرض التي انتزعها تشاوشيسكو من الفلاحين لدمجها في مزارع جماعية مما أكسبه تأييد الريف والاقاليم.

وبالرغم من أن هذه الانتخابات لم تتصف بالنزاهة الكاملة، وشابها كثير من الانتهاكات ربما تصل إلى التزوير المنظم في بعض المناطق، وساعدت قوى النظام القديم في الدفع باتجاه التصويت لجبهة الإنقاذ، فيما جرى التضييق على القوى الأخرى، لكن نتائج الانتخابات كانت تعكس بالفعل المزاج العام للجماهير في أعقاب الثورة، وتشير إلى أن أغلب الشعب الروماني من الفلاحين والعمال لم يشارك النخبة المثقفة توجهاتها، وفضل الاستقرار الذي مثلته جبهة الإنقاذ الوطني.

بمرور الأيام اتسعت الفجوة شيئًا فشيئًا بين الثوار والشارع، حيث أصبح الشارع يرى في الثوار قوة معطلة تمنع الاستقرار وتحول دون الاستفادة من ثمرات الثورة، وأصبح الثوار يفتقرون إلى الحساسية إزاء مزاج الشارع، وهو ما ظهر من خلال النزوع إلى التعالي على التجربة الانتخابية، والإصرار على الاعتصام حتى لو كان ذلك يؤدي إلى المزيد من العزلة عن الشارع، وفي أعقاب

الانتخابات تزايدت عزلة المعتصمين في اعتصام ساحة الجامعة في بوخارست، لكنه ظل صامدًا حتى منتصف يونيو حينما بدأت أعداد المشاركين تتناقص باطراد، مما أغرى إيليسكو بمحاولة فض الاعتصام عبر استخدام قوات الأمن التي تدخلت لفض الاعتصام بوحشية، وهو ما أثار حفيظة آلاف الثوار واندفعوا في اتجاه التصعيد، فخرجوا إلى الشوارع احتجاجا على قمع الشرطة للمعتصمين، وتطورت تظاهراتهم الغاضبة إلى هجوم على بعض المباني الحكومية، فاقتحموا مبنى الإذاعة والتليفزيون، ثم هاجموا مبنى وزارة الداخلية وأشعلوا النار فيه قبل التوجه إلى قسم الشرطة الرئيسي وتحرير المساجين والبدء في الاستيلاء على السلاح، ولما كان إيليسكو غير واثق بالكامل من رد فعل الجيش، وفي محاولة فائقة الذكاء لاحتواء التظاهرات، وجه إيليسكو نداءً عبر الإذاعة إلى العمال والفلاحين والطبقة العاملة الذين لقبهم بـ «مواطنين رومانيا الشرفاء» بالتدخل لحماية الديمقراطية والحكومة من «التمرد الفاشي»، وشجعت اعتداءات الثوار إيليسكو على الادعاء بأن البلد يتعرض لمحاولة انقلاب، وصور للعمال أن شباب رومانيا الثائر هم خونة وعملاء ويريدون خراب البلاد.

وفي ١٤ يونيو، جلبت الحكومة نحو ١٠ آلاف من عمال المناجم في «وادي جيو» في قطارات وشاحنات إلى قلب العاصمة بوخارست، وحياهم إيليسكو بنفسه وطالبهم بالتصدي للخونة، قبل أن يطلق يدهم في المدينة لاستعادة «الاستقرار والنظام» إليها، وحشدت جبهة الإنقاذ المظاهرات المؤيدة لها تحت شعار «نحن نعمل ولا نفكر»، وطوال يومين، انتشر العمال في شوارع المدينة مسلحين بالفئوس والهراوات، وهاجموا بوحشية مئات الطلبة والمثقفين والثوار ممن اعتبروهم من أعداء النظام أثناء تظاهرهم احتجاجا على اختطاف الثورة، بما في ذلك أفراد من الغجر الذين لم تكن لهم علاقة بأي توجهات سياسية، وسط

تعاون تام من قوات الشرطة والأمن التي أغفلت البصر عن المذبحة، واقتحم المؤيدون مقار ومكاتب أحزاب المعارضة التي كانت قد بدأت في العودة إلى الحياة لتوها مثل حزب الفلاحين القومي والحزب الليبرالي القومي، وأسفر الصدام عن وقوع ٦ قتلى ومئات المصابين وحوالي ١٠٠٠ معتقل، وبعد أن أدى المواطنون الشرفاء واجبهم على أكمل وجه نظمت مسيرة وداع للعمال، ووجه إيليسكو الشكر لعُمال المناجم بنفسه عمّا قدموه من خدمه لوطنهم، وأثار العنف الذي مارسه عمال المناجم ضد الطلاب والمثقفين غضب الكثيرين من عمال بوخارست أنفسهم بالرغم من عدم تأييد الكثير منهم للثوار.

في الوقت ذاته، دفع إيليسكو بحملة ممنهجة لتشويه الثوار واتهمهم الإعلام بدون دليل أنهم خونة وعملاء ومأجورون ويتلقون أموالًا من الخارج وتحديدًا من الدول الرأسمالية من أجل إسقاط الدولة وتخريب الوطن، وزعزعة استقرار البلاد، مع إيهام الشعب البسيط بأنه هو الوحيد القادر على توصيل رومانيا إلى بر الأمان وحماية البلاد من الخطر الخارجي، وشوه صورة أحزاب المعارضة الحقيقية، ومع الهلع والأزمات الطاحنة تأثر عموم الشعب من البُسطاء بحملات التشويه، وصارت خيانة الثوار وعمالتهم من الحقائق التي لا تقبل النقاش، وصارت الثورة لعنة لدى الأغلبية، وبدأ إيليسكو في محاكمة رموز الثورة بتهم واهية وزج بعدد كبير منهم في السجون ليقضي على المعارضة تمامًا.

قال المفكر الاشتراكي الراحل كريس هارمان تعليقًا علي الوضع السياسي: «إن هذه المشاعر الرافضة لخيانة الثورة وأهدافها قد تؤدي إلى طريقين مسدودين، إذا فشلت هذه الطليعة الثورية في اجتذاب الجماهير إلى جانبها، فإما اليأس وفقدان الثقة في الجماهير والانسحاب من الحياة السياسية برمتها، أو الانخراط

في أعمـال بطوليـة للسـيطرة عـلى النظـام ولكـن مـن دون دعـم جماهـيري، وهـو مـا سـيؤدي إلى فشـلها الأكيـد».

القضـاء عـلى المعارضـة تقريبًـا لـم يمنـع اسـتمرار الأوضـاع الاقتصاديـة في التدهـور، وأدى ارتفـاع الأسـعار إلى اشـتعال غضـب المواطنـين وبـدأ العمـال في التململ نتيجـة تـدني مسـتويات معيشـتهم، وفي نهايـة عـام ١٩٩٠، ظهـر كيـان جديـد في محاولـة لصهـر قـوى المعارضـة في بوتقـة واحـدة وسـمي بـ «التحالـف المـدني»، ودعـا التحالـف إلى مظاهـرة ضخمـة حشـدت نحـو ١٠٠ ألـف شـخص في بوخارسـت، ثـم اسـتمر الشـحن لمشـاعر الغضـب مـن قبـل المعارضـة.

وفي سـبتمبر ١٩٩١، عـاد عمـال المناجـم إلى بوخارسـت ليـس لتأييـد إيليسـكو تلـك المـرة، بـل لـكي يعلنـوا غضبهـم عـلى حكومـة رئيـس الـوزراء بيـتري رومـان ويطالبـون بعزلـه وبسـقوط الرئيـس إيـون إيليسـكو، وفي تلـك المـرة وقـف الطلبـة والمعارضـون والمثقفـون إلى جانـب العمـال في تظاهراتهـم بالرغـم مـن أنهـم كانـوا عرضـة لاعتداءاتهـم سـابقا، وهاجـم المتظاهـرون مـرة أخـرى مبنـى الإذاعـة والتليفزيـون وحـاصروا القـصر الرئـاسي، وفي النهايـة كان لابـد مـن التضحيـة بـوزارة رومـان، ثـم هـدأت الأمـور عندمـا أعلـن البرلمـان عـن انتهائـه مـن كتابـة الدسـتور الجديـد، ودعـي الرومانيـون للاسـتفتاء عليـه وهـو حـدث تطلـع إليـه الرومانيـون طـوال الفـترة التاليـة للثـورة، وفي ديسـمبر ١٩٩١، تـم إقـرار الدسـتور الجديـد في اسـتفتاء شـعبي بنسـبة ٧٧٪، وفي أول انتخابـات للمحليـات بعـد الثـورة وبعـد إقـرار الدسـتور الجديـد حصـل حـزب جبهـة الإنقـاذ الوطـني عـلى ٣٣٪ فقـط مـن المقاعـد، وهـو نصـف مـا حققـه في الانتخابـات البرلمانيـة السـابقة، وبـدأ صعـود كل مـن الأحـزاب الليبراليـة المعارضـة وكذلـك تحالـف جديـد بـين حـزب العمـال وريـث الحـزب الشـيوعي وخليـط مـن الأحـزاب اليمينيـة المتطرفـة.

نجحت جبهة الإنقاذ الوطني في إجهاض الثورة الرومانية خلال عام ونصف فقط من قيامها، وفقدت الثورة الكثير من التعاطف الدولي لها، وظل إيون إيليسكو في منصبه رئيسًا للجمهورية حتى عام ١٩٩٦ وتولى إميل كونستانتينسكو منصب رئيس الجمهورية خلفًا له، وفي العام ٢٠٠٠ ترشح إيون إيليسكو مرة أخرى في الانتخابات الرئاسية وفاز على منافسه القومي المتطرف كورنيليو تيودور وظل في منصب الرئاسة حتى عام ٢٠٠٤.

العسكر والديمقراطية
أزمة مارس ٥٤ مثالًا

في أواخر فبراير عام ١٩٥٤، اشتدت وطأة الصراع بين عبدالناصر ومحمد نجيب داخل مجلس قيادة الثورة، بسبب محاولة الضباط أن يجنوا ثمار نجاح الحركة ولو على حساب المبادئ والأخلاق، فكان أول شيء فعله ضباط القيادة أنهم غيروا سياراتهم الجيب وركبوا سيارات الصالون الفاخرة، وترك أحدهم شقته المتواضعة واستولى على قصر من قصور الأمراء حتى يكون قريبا من إحدى الأميرات التي كان قصرها قريبا من القصر الذي استولى عليه، وترك ضابط آخر من ضباط القيادة الحبل على الغارب لزوجته التي كانت تعرف كل ما يدور في مجلس القيادة، وتستغل هذا لصالحها ولصالحه، وطارد آخر ناهد رشاد زوجة الطبيب يوسف رشاد، حتى شاع بين الناس أن الثورة طردت ملكًا وجاءت بثلاثة عشر ملكًا، وصدمت هذه التصرفات باقي الضباط الأحرار الذين يتصفون بالمثالية، فحمل بعضهم هذه الفضائح وواجهوا بها ضباط القيادة، لكنهم سمعوهم وقرروا التخلص منهم مثلما حدث مع ضباط المدفعية.

كان أول خلاف حول محكمة الثورة التي تشكلت لمحاكمة زعماء العهد الملكي، ثم حدث خلاف ثانٍ بعد صدور نشرة باعتقال بعض الزعماء السياسيين الذين تولوا مناصب في عهد فاروق، وكان من بينهم مصطفى النحاس، فرفض نجيب اعتقال النحاس باشا ومحي اسمه من القائمة، لكنه فوجئ بعد توقيع الكشف

بإضافة اسم النحاس، ثم أصدرت محكمة الثورة قرارات ضاعفت من كراهية الناس للثورة، ومنها مصادرة ٣٢٢ فدانا من أملاك زينب الوكيل حرم النحاس باشا، كما حكمت على أربعة من الصحفيين بالمؤبد وبمصادرة صحفهم بتهمة إفساد الحياة السياسية، ويضاف إلى هذه القرارات قرارات أخرى صدرت رغم رفض محمد نجيب التوقيع عليها، منها القرار الجمهوري بسحب الجنسية المصرية من ستة من المصريين من الإخوان المسلمين، وزاد الصدام بينه وبين مجلس القيادة عندما اكتشف أنهم ينقلون الضباط دون مشورته، ورفض زكريا محيي الدين أن يؤدي اليمين الدستورية أمامه بعد تعيينه وزيرا للداخلية، وكذلك رفض جمال سالم، وذكر في مذكراته أنه اكتشف أن رجال الثورة كانوا قد عقدوا العديد من الاجتماعات بدونه، كل هذه الأمور دفعته لكي يفكر جديًا في تقديم استقالته.

لم تكن أزمة مارس مجرد صراع علني علي السلطة بين اللواء محمد نجيب وأعضاء مجلس قيادة الثورة، بل كانت الأزمة أكثر عمقًا، كانت صراعا بين اتجاهين مختلفين، اتجاه يطالب بالديمقراطية والحياة النيابية السليمة تطبيقًا للمبدأ السادس للثورة وهو إقامة حياة ديمقراطية سليمة، واتجاه آخر يصر على تكريس الحكم الفردي وإلغاء الأحزاب وفرض الرقابة على الصحف، وكتب نجيب في مذكراته قائلًا «لقد خرج الجيش من الثكنات.. وانتشر في كل المصالح والوزارات المدنية فوقعت الكارثة التي لا نزال نعاني منها إلى الآن في مصر، كان كل ضابط من ضباط القيادة يريد أن يكون قويًا، فأصبح لكل منهم شلة، وكانت هذه الشلة غالبًا من المنافقين الذين لم يلعبوا دورًا لا في التحضير للثورة ولا في القيام بها».

في ٢٤ فبراير ١٩٥٤، فاجأ اللواء محمد نجيب رئيس جمهورية مصر مجلس قيادة الثورة باستقالته، وفى ٢٥ فبراير، أصدر

مجلس القيادة بيان إقالة محمد نجيب، وحاول البيان الانتقاص من دوره، وتشويه صورته أمام الجماهير، فقد أكد البيان أن محمد نجيب طلب سلطات أكبر من سلطات أعضاء المجلس، وأن يكون له حق الاعتراض على قرارات المجلس حتى ولو كانت هذه القرارات قد أخذت بالإجماع، وادعى البيان أنه اختير قائدا للثورة قبل قيامها بشهرين، وأنه علم بقيام الثورة ليلة ٢٣ يوليو من مكالمة هاتفية من وزير الداخلية فتحرك إلى مبنى القيادة وهناك تقابل مع عبدالناصر الذي وافق على ضمه وتنازل له عن رئاسة المجلس.

وفي الأيام التالية، نشرت الصحف اتهامات مجلس القيادة لنجيب على لسان صلاح سالم وتعقد الموقف أكثر فأكثر، فقد أيد ضباط سلاح الفرسان محمد نجيب ولكن التأييد الأهم جاء من الشارع الذي تحرك فور إذاعة بيان إقالته على الملأ على نطاق واسع للمطالبة بعودته، وخرجت الجماهير في مظاهرات احتجاج قوية، وقد لعب الإخوان والشيوعيون -في التقاء مصالح مؤقت- دورًا كبيرًا في تحريك الشارع ضد عبدالناصر وقيادة الثورة، وانهالت البرقيات على المجلس ودور الصحف ترفض الاستقالة، واندلعت المظاهرات التلقائية في القاهرة والأقاليم لمدة ثلاثة أيام تؤيد نجيب، وكانت الجماهير تهتف «محمد نجيب أو الثورة»، وفي السودان اندلعت مظاهرات جارفة تهتف «لا وحدة بلا نجيب»، وانقسم الجيش بين مؤيد لعودة اللواء محمد نجيب وإقرار الحياة النيابية، وبين المناصرين لمجلس قيادة الثورة، وأشرفت البلاد على حرب أهلية.

تداركًا للموقف أصدر مجلس القيادة بيانا في السادسة من مساء ٢٧ فبراير ١٩٥٤ جاء فيه «حفاظا على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيسا للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك»، وهكذا عاد محمد

نجيب إلي الحكم محمولًا على أكتاف الجماهير التي خرجت في مظاهرات شعبية لم تعدها مصر من قبل.

وبدأ نجيب فور عودته إلى الحكم مشاوراته مع مجلس القيادة للتعجيل بعودة الحياة البرلمانية، وفي ليلة ٥ مارس، صدرت قرارات ركزت على ضرورة عقد جمعية لمناقشة الدستور الجديد وإقراره، وإلغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف، والإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين، وفى اليوم التالى ٢٨ فبراير، خرجت مظاهرات إخوانية مؤيدة لنجيب، قوامها حوالي مائة وخمسين ألفًا تقريبًا من المتظاهرين، عرفت لاحقًا باسم «مظاهرات عابدين»، تهتف «إلى الثكنات إلى الثكنات.. إلى الثكنات رجال الجيش»، ليس بسبب مطالبتهم بالديمقراطية وإنما عداءً لعبدالناصر ومحالة اقتناص أي مكاسب سياسية، وتحرك المتظاهرون من جامعة القاهرة إلى قصر عابدين.

كان يقود المظاهرة عبدالقادر عودة لسبب غير مفهوم، لأن العلاقة بين عبدالقادر عودة وعبدالناصر كانت حسنة جدًا، حتى إنها لم تتأثر باشتداد الخصومة والصراع بين عبدالناصر والهضيبي، وحينما أصدر عبدالناصر قراره باعتقال قيادات الإخوان كان عبدالقادر عودة هو الوحيد من بينهم جميعًا الذي استثني من قرار الاعتقال، بل سمح له بزيارة السجن الحربي حيث كان الإخوان يمضون فترة الاعتقال، وكان عودة يحاول جاهدًا خلال زيارته، التقريب بين قيادات الإخوان وعبدالناصر سعيًا لعقد المصالحة بين الجانبين، وكان يقول ويكرر إنه لا يوجد مبرر للصدام مع عبدالناصر أو الثورة، قد يوجد مبرر للخلاف ولكنه لا يرقى إلى مستوى الصدام، خاصة أن كل القرارات التي اتخذها عبدالناصر حتى الآن لها ما يسندها في الشريعة الإسلامية، هذا هو رأى عبدالقادر عودة الذي كان يجاهر به في وجوه الإخوان في ذلك الوقت.

ويعتقد أن قيادة عودة للمظاهرات جاءت بسبب الخصومة التي حدثت بين عبدالقادر عودة والهضيبي، لأن الهضيبي قد عزله من منصب وكيل الجماعة وجاء مكانه برجل آخر هو محمد خميس حميدة، فجاءت تلك المظاهرات فرصة لإثبات زعامته وشعبيته بين جموع الإخوان، وحين وصلت المظاهرة إلى ميدان عابدين، بدأت الهتافات في الهجوم على عبدالناصر، ورفعوا عودة على الأعناق، وتعالت الهتافات «الله أكبر ولله الحمد»، ثم حمل عودة بين أيديه قميصًا ملوثًا بدم أحد القتيلين اللذين كانا قد سقطا برصاص الجيش أثناء تصديه للمظاهرة عند كوبري قصر النيل وهى في طريقها إلى قصر عابدين، وتعالت هتافات عبدالقادر عودة وهو يلوح بالقميص الملوث بالدم وهو يهتف «هذا عمل المفسدين.. هذا عمل المجرمين»، وفى هذه الأثناء كان عبدالناصر في شرفة القصر ومعه عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة، متابعين للمظاهرات الإخوانية بقيادة عبدالقادر عودة، وحينما اقترب عبدالناصر من عودة محاولًا مصافحته، أبى أن يصافح عبدالناصر أمام جمهور الإخوان حرصًا على كسب تأييدهم وثقتهم على حساب خصمه اللدود حسن الهضيبي، واعتقد أنه برفضه مصافحته عبدالناصر أمام هذه الحشود الكبيرة، سوف يكسب ورقة يلعب بها مع الهضيبي على زعامة الإخوان وقيادتهم..

اشتعلت المظاهرة أكثر فأكثر، وخشى محمد نجيب أن تحدث مصادمات بين المتظاهرين وبين قوات الجيش الموالية لعبدالناصر ورفاقه، فخرج محمد نجيب مع عبدالناصر من شرفة قصر عابدين محاولًا تهدئة المتظاهرين، وصاح بهم نجيب لمرات عديدة كي ينصرفوا دون جدوى، وبدا أن عبدالناصر فقد السيطرة على الشارع، فاستنجد محمد نجيب بعبدالقادر عودة لكي يصرف الجماهير، ووافق عبدالقادر عودة على أن ينضم

إليهما في شرفة القصر بعد أن طلب منه محمد نجيب ذلك، ودخل نجيب داخل شرفة القصر، وغاب مع عودة بالداخل لدقائق معدودة، ثم عاد مرة أخرى مصطحبًا عودة، الذي وقف في شرفة قصر عابدين على مقربة من عبدالناصر ليخطب في المتظاهرين خطبة حماسية، وبعد أن انتهى، أشار عودة بيده إلى المتظاهرين وقال لهم ثلاث كلمات فقط: «انصرفوا دون هتاف»، فانصرف المتظاهرون الإخوان طائعين في دقائق معدودة.. انتهت المظاهرة لكن لم ينس ناصر ما حدث قط!

بعد أقل من شهر على مظاهرة عابدين الشهيرة، وفي ٢٠ مارس ١٩٥٤، زار الملك سعود ملك السعودية مصر، وتوسط لدى عبدالناصر للإفراج عن الإخوان بناءً على طلبهم، كان عبدالناصر بعد استقالة نجيب القصيرة قد أصبح رئيسًا للوزراء مما سمح له بإحكام قبضته على الأمور وزمام الجيش، ولذلك بعد أن انتهت الأزمة، كان عبدالناصر هو المسيطر الحقيقي على الأحداث، فاستجاب عبدالناصر لطلب ملك السعودية وأصدر قراره بالإفراج عن جميع الإخوان المعتقلين بمن فيهم حسن الهضيبي في الخامس والعشرين من ذات الشهر وسط اندهاش الجميع، وزاد المفاجأة وقعًا بأن توجه ناصر في مساء نفس يوم الإفراج إلى منزل الهضيبي ليزوره ويطيب خاطره، ولكن الهضيبي قابله باستعلاء تجلى واضحًا في لحظة مغادرة عبدالناصر لبيت الهضيبي فلم يكلف نفسه بمصاحبة عبدالناصر حتى باب المنزل، ونشرت صحيفة المصري في اليوم التالى أن عبدالناصر والهضيبي قد اتفقا على أن تعود الجماعة لممارسة نشاطها بحرية كاملة، وأن يفرج عن كل المعتقلين من أعضائها وأن يعلن مجلس قيادة الثورة أسباب حل الإخوان، وأكد الهضيبي أن الجماعة ستكون عونًا للحكومة على طرد الإنجليز، وبالطبع لم تكن تلك الأخبار مؤكدة.

وفي نفس يوم الإفراج عن الهضيبي ٢٥ مارس ١٩٥٤، اجتمع مجلس قيادة الثورة كاملًا، وانتهى الاجتماع إلى إصدار عدة قرارات خطيرة، ونشرت جريدة المصري بتاريخ ٢٦ مارس ١٩٥٤ تلك القرارات في مانشيتها الرئيسي «حل مجلس الثورة يوم ٢٤ يوليو وتسليم البلاد لممثلي الشعب.. السماح بقيام الأحزاب.. مجلس الثورة لا يؤلف حزبًا.. رئيس الجمهورية تنتخبه الجمعية التأسيسية.. لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا تتأثر حرية الانتخابات»، وقال الخبر في تفاصيله أن مجلس الثورة قد عقد اجتماعًا طويلًا دام لمدة خمس ساعات كاملة بحث خلالها الموقف الداخلي، وبعد انتهاء الاجتماع خرج الصاغ كمال الدين حسين إلى الصحفيين وأذاع عليهم القرارات التاريخية التي اتخذها المجلس واستجاب فيها لرغبات الشعب ونص القرار على «قرر مجلس قيادة الثورة بجلسة اليوم ٢٥ مارس ١٩٥٤ على التالي:

أولًا: يسمح بقيام الأحزاب.

ثانيًا: المجلس لا يؤلف حزبًا.

ثالثًا: لا حرمان من الحقوق السياسية حتى لا يكون هناك تأثير على حرية الانتخابات.

رابعًا: تنتخب الجمعية التأسيسية انتخابًا حرًا مباشرًا بدون أن يعين أي فرد ويكون لها السيادة الكاملة والسلطة الكاملة وتكون لها سلطة البرلمان كاملة وتكون الانتخابات حرة.

خامسًا: حل مجلس الثورة في ٢٤ يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسليم البلاد لممثلي الأمة.

سادسًا: تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

كانت تلك القرارات في ظاهرها إيجابية، لكن الحقيقة أن ذلك لم يكن إلا تراجعًا تكتيكيًا من عبدالناصر ومجموعته لإزالة

الاحتقـان في البـلاد.

ويقـول محمـد نجيـب في مذكراتـه «كانـت هـذه القـرارات في ظاهرها ديمقراطيـة وفي باطنهـا فتنـة وتوتـر، فقـد أثـارت النـاس الذيـن لـم يـرق لهـم أن تعـود الأحـزاب القديمـة بـكل مـا توحـي مـن فسـاد وتاريـخ أسـود، وبـكل مـا توحـي لهـم بنهايـة الثـورة الـتي عقـدوا عليهـا كل آمالهـم في التطهـر والخـلاص، وأثـارت هـذه القـرارات ضبـاط الجيـش الذيـن أحسـوا أن نصيبهـم مـن النفـوذ والسـلطة والمميـزات الخاصـة قـد انتهـى».

في خضـم الـصراع بـين «عبدالنـاصر» و«نجيـب»، حـاول كل مـن الطرفـين أن يسـتقطب الإخـوان إلى جانبـه، فأرسـل محمـد نجيـب رسـله للاتصـال بالإخـوان طلبًـا للتأييـد والعـون، ولكـن الإخـوان رفضـوا الوقـوف مـع نجيـب ليـس حبًـا في عبدالنـاصر أو خوفًـا منـه، فقـد كانـت تقديراتهـم للموقـف تقـول إنهـم لـو تركـوا عبدالنـاصر ونجيـب يتصارعـان بقواهمـا الذاتيـة دون معاونـة منهـم لأي مـن الطرفـين، فإنهمـا سـوف ينتهيـان بالفنـاء معًـا بمـا يفتـح الطريـق لهـم لـكي يتقدمـوا فيـه دون مزاحمـة، أمـا إذا قدمـوا مسـاعدتهم لأي مـن الطرفـين فسـوف يقـوى موقفـه بهـم فيخـرج منتـصرًا ليسـتدير عليهـم في نهايـة الأمـر، ولهـذا أصـدر الهضيـبي تعليماتـه للإخـوان بأنـه «لا شـأن لنـا بالـصراع الدائـر بـين العسـكر»، وقـال اليوزبـاشى محمـد ريـاض السـكرتير الصحفي للرئيـس محمـد نجيـب ١٩٥٤: «نجيـب أرسـلني إلى الهضيـبي وقـال لى قـل لى مـاذا أصنـع إذا أصروا عـلى إلغـاء الديمقراطيـة والقـرارات، فالهضيـبي قـال لى بالحـرف الواحـد: كل ظـرف ولـه معالجتـه وكل موقـف يحسـم في حينـه ولـم يعطـني جوابًـا شـافيًا، فعـدت للرئيـس نجيـب ونقلـت لـه مـا قالـه الهضيـبي فقـال لى أنـا أعلـم يـا ابـني ريـاض أن الهضيـبي وهـو مرشـد الإخـوان لا يرتـاح ولا يرغـب في عـودة الديمقراطيـة لأن سـيكون الوفديـون عـلى رأسـها وهـم القـوة الكبـيرة المنافسـة أمـام

الإخـوان أمـام الشـعب».

قـررت القـوى الوطنيـة إقـرار ٢٨ مـارس ١٩٥٤ يـوم الإضراب العـام في البـلاد، وشـارك فيـه عمـال النقـل، ونقابـة المحامـين، وتجمعـات أعضـاء هيئـات التدريـس بالجامعـات المصريـة، والجبهـة الطلابيـة، وكان مـن المعلـن أن تنضـم إلى الإضراب النقابـات العماليـة بمـا فيهـا نقابـة النقـل المشـترك، كان الهـدف واضحًـا.. إنهـاء الحكـم العسـكري فـورًا وعـدم الانتظـار حـتى نهايـة الفـترة الانتقاليـة في ٢٤ يوليـو ١٩٥٤ كمـا وعـد العسـكر، بالإضافـة إلى تشـكيل حكومـة مدنيـة انتقاليـة تجـري الانتخابـات البرلمانيـة، ومحاسـبة المسـئولين عـن الانتهـاكات الـتي تعـرض لهـا المعتقلـون في السـجن الحـربي.

كانـت نقابـة النقـل المشـترك هـي الطريـق لتحقيـق كل فريـق لهدفـه، فريـق أنصـار الديمقراطيـة، وفريـق أنصـار الدولـة الاسـتبدادية، وكانـت هنـاك اتصـالات بـين القـوى الديمقراطيـة وبـين قـادة نقابـة النقـل المشـترك الـتي تضـم عمـال شركات الأتوبيـس الكـبرى، لإقناعهـم بالانضمـام لحركـة الإضرابـات العماليـة الـتي ستشـترك فيهـا معظـم النقابـات العماليـة، الـتي كان الاتجـاه الغالـب فيهـا تأييـد الديمقراطيـة، وأهميـة هـذه النقابـة أن إضراب عمالهـا سيشـل حركـة المواصـلات في العاصمـة تمامًـا، لكـن رئيـس اتحـاد نقابـات النقـل المشـترك الصـاوي أحمـد الصـاوي توجـه إلى مقـر هيئـة التحريـر والتقـى باثنـين مـن ضبـاط الصـف الثـاني المسـئولين عـن النقابـات العماليـة، وهمـا الصـاغ أحمـد طعيمـة والصـاغ إبراهيـم الطحـاوي، وأبلغهمـا بمحـاولات جـذب النقابـة إلى الإضراب المؤيـد لعـودة الديمقراطيـة، وكانـت هنـاك بعـض القيادات النقابيـة الأخـرى الـتي تؤيـد مـا كان يسـمى «اسـتمرار الثـورة»، فتـم الاتفـاق عـلى تحويـل الإضراب والاعتصـام مـن تأييـد الديمقراطية إلى المطالبـة بإلغـاء قـرارات ٢٥ مـارس، وتـم اختيـار «الصـاوي أحمـد الصـاوي» زعيمًـا للحركـة.

وساعد ضباط الصف الثاني في تنظيم الضباط الأحرار في ضرب الحركة العمالية في مقتل، فقد قام الصاغ مجدي حسنين الذي كان مشرفًا على مشروع مديرية التحرير في تحريك العاملين في المشروع إلى القاهرة للانضمام إلى القوى المعادية للديمقراطية، كذلك تحرك البكباشي أحمد أنور قائد الشرطة العسكرية بثقله ليساعد الحركة المعادية للديمقراطية، بعد أن تردد اسمه في اجتماع الجمعية العمومية للمحامين كمسئول عن الاعتداءات على المعتقلين في السجن الحربي ليحول بأي ثمن دون عودة الحياة الديمقراطية.

ولعب إعلام الدولة أقذر أدواره على الإطلاق، عندما بدأت الإذاعة المصرية تذيع بيانات صادرة عن النقابات العمالية تعلن فيها الاعتصام والإضراب عن الطعام وعن العمل حتى تتحقق مجموعة من المطالب، أولها عدم السماح بقيام الأحزاب، واستمرار مجلس قيادة الثورة في مباشرة سلطاته حتى يتم جلاء المستعمر، وتشكيل هيئة تمثل النقابات والروابط والاتحادات والجمعيات والمنظمات تساند مجلس قيادة الثورة، وتعرض عليها قراراته قبل إصدارها، وأخيرًا عدم الدخول في معارك انتخابية، المشكلة هنا ليست في محتوى المطالب التي تعني تصفية الحياة الديمقراطية في مصر تمامًا، لكن المشكلة الحقيقية أن النقابات العمالية لم تصدر هذه البيانات، ولم توافق عليها بل لم تعرض عليها أصلًا، وإن الإذاعة المصرية شاركت في مؤامرة ضد الديمقراطية بتزوير بيانات باسم النقابات العمالية وإذاعتها في محاولة لإظهار أن الحركة العمالية ضد عودة الديمقراطية، وبدأت النقابات العمالية المؤيدة للديمقراطية تتنبه للمؤامرة التي تحاك باسمها فأصدرت مجالس إدارات عدد من نقابات العمال التي أذيعت بيانات كاذبة باسمها في الإذاعة المصرية بيانًا تعلن فيه حقيقة موقفها وتنفي ما نسب إليها كذبًا.

وفي يـوم ٢٨ مـارس ١٩٥٤، خرجـت أغـرب مظاهـرات في التاريـخ تهتـف بسـقوط الديمقراطيـة والدسـتور والأحـزاب والحريـة، وبحيـاة الجيـش والثـورة وعبدالنـاصر، ودارت المظاهـرات حـول البرلمـان والقـصر الجمهـوري ومجلـس الدولـة وكـررت هتافاتهـا ومنهـا «لا أحـزاب ولا برلمـان»، «تسـقط الديمقراطيـة.. تسـقط الحريـة».

وفي مسـاء اليـوم التـالي ٢٩ مـارس، وصـل المتظاهـرون إلى مقـر مجلـس الدولـة بالجـيزة، وعـلا الهتـاف ليشـمل الدكتـور عبدالـرزاق السـنهوري رئيـس مجلـس الدولـة، الذي كان يـرأس اجتماعًـا للجمعية العموميـة لمجلـس الدولـة في هذا الوقـت، وبدأ المتظاهـرون ينادونه بالجاهـل والخائـن، ويسـبونه بأقـذع الألفـاظ ويطالبون بسـقوطه هو الآخـر، وتوقفـت المسـيرة خـارج بوابـة المجلـس المغلقـة بسلاسـل الحديـد، فدخـل أحـد الضبـاط إلى مكتـب السـنهوري، وطلـب منـه الخـروج إلى حديقـة المحكمـة لمخاطبـة المتواجديـن بهـا والتهدئـة مـن روعهـم، وبمجـرد أن لمحـه جمـوع المتظاهريـن حـتى اقتحمـوا فنـاء المجلـس وانقضـوا عليـه بالسـب والـضرب، وكادوا أن يفتكـوا بـه ذلـك اليـوم، لـولا أن تلقـى الضربـة أحـد السـعاة بمجلـس الدولـة، ولـم يتمكـن مـن مغـادرة المـكان إلا بعـد قـدوم الصـاغ صـلاح سـالم الـذي اصطحبـه إلى الخـارج، وحينئـذ فقـط أدرك السـنهوري أن الأمـر لـم يكـن مجـرد مظاهـرة عاديـة، وقـال: «حينئـذٍ أدركـت أن الأمـر لـم يكـن مظاهـرة أخاطـب فيهـا المتظاهريـن -كمـا ادعـى الضابـط- بـل أمـر اعتـداء مبيـت عـليّ، ومـا لبـث المتظاهـرون أن دفعـوني دفعـا إلى الحديقـة وتـوالى الاعتـداء».

في هـذا الوقـت، اقـترح أنصـار نجيـب في الجيـش عليـه أن يتدخلـوا لحسـم الموقـف بالقـوة لصالحـه ولصالـح عـودة الديمقراطيـة، اقـترح عليـه ذلـك قائـد حرسـه محمـد ريـاض، كمـا توافـد عـلى مـنزل الرئيـس نجيـب أعـداد مـن الضبـاط المؤيديـن لـه، منهـم قائـد حاميـة القاهـرة أحمـد شـوقي، وأبـدوا اسـتعدادهم للتحـرك ضـد

مجلس الثورة، لكن نجيب رفض، فقد كان يخشى من صراع داخل الجيش، وفي نفس الوقت لا يرى إعادة الديمقراطية بانقلاب عسكري، كان يراهن على قدرة الشعب وقواه الديمقراطية على حسم المعركة.

لاحقًا اعترف «الصاوي» بأنه حصل على مبلغ ٤ آلاف جنيه مقابل تدبير هذه المظاهرات، إلى جانب تدبير سلسلة من التفجيرات هزت أنحاء القاهرة، ويروي خالد محيي الدين في مذكراته «والآن أتكلم» أن عبدالناصر اعترف له أنه دفع أربعة آلاف جنيه من جيبه لتدبير مظاهرات العمال الرافضة للديمقراطية، وأنه قال له «لما لقيت المسألة مش نافعة قررت أتحرك، وقد كلفني الأمر ٤ آلاف جنيه»، وهو يتفق مع ما اعترف به الصاوي، وفي موضع آخر في مذكراته يقول خالد محيي الدين أن القاهرة «شهدت في خضم أزمة مارس ستة انفجارات دفعة واحدة، منها انفجاران في الجامعة وانفجار في جروبي وآخر في مخزن الصحافة بمحطة سكة حديد القاهرة، كلها لم تتسبب في خسائر مادية، لكنها أثارت هواجس شديدة وسط الجميع حول مخاطر انفلات الوضع ومخاطر إطلاق العنان للديمقراطية دون قبضة حازمة للدولة، وبدأ الكثيرون يشعرون أن الأمن غير مستقر وأنه من الضرورى إحكام قبضة النظام وإلا سادت الفوضى.

وقد روى لي عبداللطيف بغدادي أنه زار عبدالناصر في أعقاب هذه الانفجارات هو وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم فأبلغهم عبدالناصر أنه هو الذي دبر هذه الانفجارات لإثارة مخاوف الناس من الاندفاع في طريق الديمقراطية والإيحاء بأن الأمن قد يهتز وأن الفوضى ستسود إذا مضوا في طريق الديمقراطية»، وفي اليوم التالي للمظاهرات، أدلى السنهوري بأقواله إلى النيابة العامة من على فراشه بالمستشفى، موجهًا الاتهام صراحة إلى الصاغ جمال عبدالناصر بتدبير الاعتداء عليه يوم ٢٩ مارس، بسبب

الخلافات الأخيرة التي وقعت بينهما، بسبب رغبة عبدالناصر في حل مجلس الدولة وتصفية رجال القضاء العاملين به، وبسبب رغبة السنهوري في إقرار سلطة قضائية مستقلة تكون هي الحكم بين الدولة الجديدة وبين الجماهير، حتى أن هذا الأخير قد ألغى العديد من القرارات الحكومية الصادرة من عبدالناصر نفسه بصفته رئيس الهيئة القضائية، وعندما ذهب عبدالناصر لزيارة السنهوري والاطمئنان عليه في المستشفى، رفض هذا الأخير دخول ناصر عليه الغرفة بتاتًا، وبالطبع حسم الصراع لصالح عبدالناصر بإخراج السنهوري من الساحة القانونية تمامًا، وكان عبدالناصر يردد بحماس شديد «إما الثورة أو الديمقراطية» طيلة الأشهر التي سبقت أزمة مارس ١٩٥٤، التي انتهت باستيلاء عبدالناصر على السلطة.

في ذات يوم إضراب العمال مساءً، عقد مكتب إرشاد الإخوان اجتماعًا طالب فيه بضمانات تجنب عودة الحياة النيابية مساوئ الماضى، وفي ذات الليلة، زار الهضيبي ناصر في منزله في العاشرة مساءً واجتمع به واتفقا على تأييد الإخوان للثورة مرة أخرى ومعاداة الديمقراطية، وهنا رجحت الكفة لمعسكر أعداء الديمقراطية، وفي صباح اليوم التالى ٢٩ مارس ١٩٥٤، اجتمع مجلس قيادة الثورة، وقرر تحمل المسئولية كاملة مع احتفاظ الرئيس نجيب بمنصبه رئيسًا للجمهورية، وجاءت القرارات في صيغة غائمة، تتضمن تشكيل مجلس وطني استشاري يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة، وإرجاء تنفيذ قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ إلى حين نهاية الفترة الانتقالية التي لم تنته إلى الآن، ونشرت جريدة الجمهورية بعدها على لسان الهضيبي في كلمته أمام مؤتمر الإخوان «أن الأحزاب كان عملها لوجه الشيطان».

وفي يوم ١٥ أبريل، بدأت الخطوات العملية لتصفية الديمقراطية

ومصادرة الحريات السياسية في مصر، فصدر قرار من مجلس قيادة الثورة بحل مجلس نقابة الصحفيين، وتعيين مجلس إداري مؤقت لحين وضع قانون جديد للصحافة، بدعوى أن سبعة من أعضاء المجلس الاثنى عشر تقاضوا مبالغ من المصاريف السرية في العهد الماضي، وطال الاتهام عددًا من الصحفيين الوطنيين الذين دافعوا باستماتة عن الديمقراطية طوال العامين التاليين لانقلاب الضباط الأحرار، منهم حسين أبو الفتح وأبو الخير نجيب وإحسان عبدالقدوس وفاطمة اليوسف ومرسي الشافعي وإبراهيم عبده وعبدالرحمن الخميسي وكامل الشناوي.

وبدا الأمر كما لو أن الربيع الديمقراطي الذي عاشت فيه مصر بين ٥ و٢٩ مارس كان فخًا لاصطياد أنصار الديمقراطية والحرية، وبدأت محكمة الثورة وهي محكمة عسكرية استثنائية كانت قد تشكلت في سبتمبر ١٩٥٣، في محاكمة عدد من الصحفيين والساسة والضباط المناصرين للديمقراطية، وأصدرت بحقهم أحكامًا بالسجن لمدد متفاوتة، وفي يوم ١٧ أبريل تخلى نجيب عن رئاسة الوزراء لجمال عبدالناصر، وفي اليوم التالي، نزعت سلطات الحاكم العسكري المنصوص عليها في قانون الأحكام العرفية منه وخولت لعبدالناصر، ونص قرار تعيينه حاكمًا عسكريًا على الترخيص له باتخاذ أي إجراء لازم للمحافظة على النظام والأمن في جميع نواحي الجمهورية فوق ما نص عليه القانون.

خلال شهر أبريل، جرت محاولة من بعض ضباط الجيش بالتعاون مع بعض الساسة المدنيين للإطاحة بمجلس قيادة الثورة، واعتقال جمال عبدالناصر، لكن المحاولة فشلت وتمت محاكمة من قاموا بها محاكمة عسكرية، وصدر الحكم في يونيو على قائد المحاولة الضابط أحمد المصري بالسجن ١٥ عامًا، وفي سبتمبر صدر الحكم على اليوزباشي مصطفى كمال صدقي و٢٠ متهمًا في محاولة انقلابية أخرى اتهم فيها أيضًا عدد من

الشـيوعيين وبعـض أعضـاء الأحـزاب القديمـة الـتي تـم حلهـا، أمـا القائمقـام أحمـد شـوقي الـذي عـرض عـلى نجيـب القبـض عـلى مجلـس قيـادة الثـورة فقـد اكتفـوا بالحكـم عليـه بالسـجن عـشر سـنوات بتهمـة إحـداث فتنـة في الجيـش خـلال شـهر مـارس وأفـرج عنـه صحيًـا فيمـا بعـد، بعـد رفـض اقـتراح جمـال سـالم بإعـدام جميـع ضبـاط المدفعيـة الذيـن اعترضـوا عـلى بعـض قـرارات المجلـس، وتـم إبعـاد الضبـاط المؤيديـن للديمقراطيـة عـن الجيـش، كمـا تـم إبعـاد خالـد محـي الديـن الذيـن كان رمـزًا للقـوى الديمقراطيـة خـارج البـلاد في مهـام رسـمية لسـنوات عـدة.

هكـذا تـم توجيـه الضربـات المتواليـة للقـوى الديمقراطيـة ولمعاقـل النضـال الوطـني والديمقراطـي خـلال عـام ١٩٥٤، وهكـذا انهـزم محمـد نجيـب في معركـة مـارس ١٩٥٤، والواقـع أنهـا لـم تكـن خسـارته فقـط وإنمـا كانـت خسـارة لمسـيرة الديمقراطيـة في وادي النيـل.

كيف صار هؤلاء رؤساء للجمهورية؟!

يقول بعض الناس إن الوصول إلى قمة هرم السلطة في مصر يلزمه فقط أن تكون مطيعًا، بلا رأي، وبلا فكر، يلزمه فقط أن تكون.. مسمارًا بلا رأس.

أنور السادات رئيسًا للجمهورية.. بالصدفة

جاء السادات للحكم خلفًا لعبدالناصر عندما لم يجد أحدًا ينافسه على المنصب.

ففي إطار خطة ناصر للانفراد بالسلطة، لم يكن هو نفسه شخصيًا يدرك أنه كان يخلي الساحة للسادات بعده.

بعدما استتبت مقاليد الحكم في يد عبدالناصر، راح يضع خطة دقيقة شديدة الإتقان للخلاص من رفقاء الثورة، فبدأ بالبكباشي عبدالمنعم أمين وأسند إليه مهمة السفر إلى الخارج للعمل سفيرًا لمصر في بلجيكا، وحين اعترض على ذلك هدده ناصر بالنفي الإجباري فرضخ الرجل بعد أن شاعت أنباء عديدة حول نفوذ زوجة أمين، ثم تصادم ناصر مع اليوزباشي يوسف صديق منصور، وواصل الضغط عليه حتى قام باعتقاله نحو ثلاث سنوات، وحين ساءت حالته الصحية بعد إصابته بنزيف حاد في الرئة أفرج عنه، وأرغمه على الرحيل إلى سويسرا منفيًا، ولكن استبد الشوق بيوسف وأرقه الحنين فعاد سرًا إلى البلاد وقضى ردحًا من الزمان في قريته بصعيد مصر حتى انكشف أمره، فأعاد عبدالناصر اعتقاله مرة أخرى ثم أفرج عنه ووضعه تحت الوصاية والتحفظ رهين بيته.

أما خالد محيي الدين أشهر مؤيدي محمد نجيب فقد ساءت العلاقة بينه وبين جمال عبدالناصر وتدهورت، حتى نفاه جمال عبدالناصر إلى سويسرا وغادر خالد البلاد وقضى في سويسرا سنوات عديدة، وحين اشتاق إلى رؤية والدته بعث إلى جمال عبدالناصر يطلب منه العودة لرؤيتها على أن يغادر البلاد مرة أخرى دون أي اعتراض منه، ووافق جمال على طلبه وعاد خالد لأحضان أمه ثم عاد مرة أخرى منفيًا إلى سويسرا، وبعد سنوات قضاها في جنيف أرسل ثانية إلى ناصر يترجاه في العودة بعد أن أوجعته الغربة وأرقه الحنين للوطن، مع عدم الانخراط في أي أعمال سياسية، فوافق ناصر وعاد خالد ليعمل صحفيًا في أخبار اليوم.

وبدأ ناصر في ضرب جمال سالم وقام بتجريده من سلطاته وتحفظ عليه وظل رهين البيت، ثم اتجه على الفور إلى صلاح سالم الذي كان عائدًا لتوه من الخرطوم، وقد زعم جمال عبدالناصر أنه فشل في مهمته التي أوكله إليها في توحيد السودان، وقد روى البعض أن جمال عبدالناصر هو الذي قام بتأليب القبائل السودانية ضد صلاح سالم فقاموا بطرده، حتى يتسنى لناصر اتخاذ قرار يتناسب مع فشل مهمته، وهكذا أدرك صلاح سالم أنه أمام مخطط يهدف إلى التخلص منه، فذهب إلى مجلس قيادة الثورة وصرخ في وجه جمال عبدالناصر وزكريا محيي الدين مؤكدًا لهما أنه عرف بما كانا يفعلانه ضده في السودان من أجل إفشال مهمته والخلاص منه، وطالب صلاح سالم بمحاكمته محاكمة علنية لإظهار الحقائق، وهدد جمال عبدالناصر بإبراز دوره الخفي في ضرب الوحدة مع السودان وطعنه في الظهر من أجل الانفراد بالسلطة، ولم يعلق جمال، ولكنه دعا مجلس قيادة الثورة إلى اجتماع عاجل طارئ دون أن يخبر صلاح سالم، وقرر مجلس القيادة إنهاء خدمة صلاح سالم وإيداعه رهن

التحفـظ لمـا بـدر منـه في الاجتمـاع السـابق وفشـله في مهمتـه في السـودان، والجنـون الـذي اسـتولى عليـه، وهكـذا لحـق صـلاح سـالم بشـقيقه جمـال بعـد أن كان الأخـوان مـلء الأسـماع والأبصـار في جميـع دور الصحـف.

لـم يكتـف جمـال عبدالنـاصر بالتخلـص مـن جمـال سـالم وشـقيقه صـلاح فقـد كان يخـشى دائمـا مـن قـوة علاقـة عبداللطيـف البغـدادي، وراح يكيـل لـه الاتهامـات زاعمًـا أن والـد عبداللطيـف وأشـقاءه يسـتغلون نفـوذه ويفرضـون سـيطرتهم على أبنـاء قريتهم، فأمـر عبدالنـاصر بالتحفـظ عـلى والـد عبداللطيـف البغـدادي واعتقـال أشـقائه وأزواج شـقيقاته ومنـع أهـالي القريـة مـن الـتردد عـلى بيـت والـده، وحـين اعـترض البغـدادي عـلى تلـك الإجـراءات التعسـفية، أمـر عبدالنـاصر بوضعـه هـو الآخـر رهـن التحفـظ، وابتعـد عبداللطيـف البغـدادي عـن دائـرة العمـل السـياسي وتـلاشى دوره واختفـى نجمـه أمـام شـمس نـاصر الحارقـة.

أمـا كمـال الديـن حسـين صديق عبداللطيـف البغدادي فقد سـاءه مـا تعـرض لـه زميلـه البغـدادي، ورغـم أن كمـال الديـن حسـين كان يتـولى مناصـب عديـدة، فإنـه جاهـر علنـا أمـام جمـال عبدالنـاصر باعتراضـه عـلى مـا فعلـه بالبغـدادي وأسرتـه، وسرعـان مـا واجـه كمـال الديـن حسـين نفـس الإجـراءات، وتـم تجريـده مـن جميـع مناصبـه، وإيداعـه فيـلا بضاحيـة الهـرم تحـت حراسـة مشـددة، وقـد كانـت معـه زوجتـه وأولاده الذيـن افترشـوا أرض الفيـلا للنـوم فيهـا، وتدهـورت حالـة زوجـة كمـال الديـن حسـين الصحيـة أمـام هـذا الظلـم وهـذه الإجـراءات القمعيـة، وتعرضـت لنكسـة صحيـة خطـيرة، وحـين اسـتدعى حـرس الفيـلا الطبيـب المعالـج كانـت قـد لفظـت أنفاسـها الأخـيرة، وكان عبدالنـاصر قاسـيًا حـين أمـر بدفـن زوجتـه دون أن يمـشي في جنازتهـا عقابًـا لـه عـلى اعتراضـه عـلى مـا فعلـه بالبغـدادي، وهكـذا انكمـش دور كمـال الديـن حسـين وانـزوى.

والتفت جمال عبدالناصر حوله فرأى زكريا محيي الدين الذي كان يتصف بالمكر والدهاء ويتحلى بالصمت الطويل، فأسند إليه وظائف لا ترقى إلى مستواه العملي بعيدا عن النفوذ بعد أن جرده من منصب مدير المخابرات العامة، وهكذا عاش زكريا بعيدًا عن الأنظار، وهو الثوري الوحيد الذي لم يتحدث إطلاقا عما تعرض له على يد جمال عبدالناصر، بل الوحيد الذي رفض كتابة مذكراته، واتجه بعد ذلك إلى تجارة المواشي في قريته ومسقط رأسه كفر شكر إحدى قرى ريف القليوبية.

وعاد ناصر ببصره مرة ذات اليمين وأخرى ذات الشمال فلم يجد أمامه سوى حسين الشافعي وعبدالحكيم عامر وأنور السادات، أما حسين الشافعي فقد كان زاهدًا متصوفًا عابدًا ناسكًا راضيًا بما وصل إليه، رافضًا الجهر بطموحه أو البوح بما تكنه نفسه أمام جمال عبدالناصر، حيث كان قد استوعب الدرس الذي عاشه مع زملائه الثوار، فرضي أن يعيش في الظل، مكتفيًا بمنصبه كنائب رئيس لا يهش ولا ينش، وهكذا ارتاح له ناصر وأسند إليه مهام الاحتفالات مع وزارة الأوقاف والأزهر والطرق الصوفية والمناسبات الدينية على أن يبتعد تمامًا من دائرة العمل السياسي.

أما عبدالحكيم عامر فاستعصى على ناصر التخلص منه، فقد نجح عامر في بسط نفوذه وشعبيته بين صفوف الجيش والشعب وأحاط نفسه بجوقة من رجاله الذين اتصفوا بالدموية والوحشية، مثل شمس بدران وزير الحربية، وصلاح نصر مدير المخابرات العامة، وعباس رضوان وزير الداخلية العنيف، وعلي شفيق مدير مكتب شمس بدران، والسفاح حمزة البسيوني قائد السجن الحربي وغيرهم، أما ناصر فكان ينتهز الفرصة بين الحين والآخر للانقضاض على عصابة المشير للتخلص منهم، وكان يعرف أن شوكتهم داخل ثكنات الجيش قوية وصلبة لا تقوى

عليها رياحه مهما بلغت درجة قوتها، حتى جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ فرصة سانحة لناصر للتخلص من عامر، وعزله من قيادة الجيش.

كان المشير عامر قد علم أن ناصر ينوي القضاء عليه والتخلص منه، وهنا قام بتحصين بيته في الجيزة وتدشينه بجميع أنواع الأسلحة الثقيلة، فأسند ناصر مهمة اختراق بيت المشير للواء عبدالمنعم رياض، واللواء محمد فوزي، وقاد الرجلان قوة عسكرية كاسحة اقتحمت بيت المشير الذي تحول إلى ثكنة عسكرية، وتبادل الطرفان النيران حتى استسلم عبدالحكيم، وقام عبدالمنعم رياض ومحمد فوزي باقتياده في سيارة عسكرية أمام زوجته وأولاده واتجها به ناحية الهرم، حتى انتحر أو قتل كما تتناقل الروايات بالسم المدسوس في عصير الجوافة.

أما السادات، فقد كان يجيد اللعب على جميع الحبال، فأوهم جمال عبدالناصر أنه ينتظر الموت بين لحظة وأخرى حيث ادعى أنه مصاب بأزمة قلبية، وقد أوصى جمال عبدالناصر على رعاية أولاده من بعده، ثم راح يؤلف كتابًا مليئًا بالنفاق والكذب كان عنوانه «يا ولدي هذا عمك جمال»، وزاد السادات في العزف على أوتار النفاق حتى أنه سمى ابنه على اسم جمال عبدالناصر لكي يوهم جمال عبدالناصر بأنه من عشاقه ومحبيه ومريديه، وابتلع ناصر طعم السادات الماكر ولم يتعرض له، بعد أن اطمأن قلبه لسلامة تصرفاته وتلاشي خطره.

كان السادات في ما مضى وعند بداية نشوب الثورة يعلن صراحة في اجتماعات مجلس قيادة الثورة تأييده وولاءه التام لجمال عبدالناصر، حتى قال هو نفسه في كتابه «البحث عن الذات» أنه قام بتوثيق توكيل أعطاه لعبدالناصر للتصويت لصالح جمال حال غيابه عن أي اجتماع طارئ، أو إذا كان خارج

البلاد في مهمة عمل رسمية أو طريح الفراش، ولم يكن غريبًا أن أطلق أعضاء مجلس قيادة الثورة على السادات لقب «مستر نعم» أي الرجل الذي لا يقول «لا» لجمال عبدالناصر أبدًا.

ومعروف أيضا أن السادات كان ينادي جمال عبدالناصر علنًا أمام الجميع بلقب «المعلم» وكان يحدثه تليفونيًا كل صباح قائلا له «صباح الخير يا معلم»، أضف إلى ذلك أحاديث الزهد والتصوف التي كان يرددها أنور السادات كثيرًا أمام ناصر، فضلًا عن دعوات العشاء التي كانت تعدها زوجته جيهان السادات بنفسها كل ليلة للزعيم في بيتها تقديرًا له واحتفالًا بقدومه السعيد إلى بيتهم، وهكذا بعث السادات الطمأنينة في قلب ناصر حتى اتخذه جمال نائبًا له.

ذكر أنيس منصور في أحد مؤلفاته أنه قال ذات مرة للرئيس أنور السادات أنه مندهش لعلاقته بالرئيس جمال عبدالناصر ويستغرب بقاءه بجواره طوال فترة حكمه دون أن يتعرض لما تعرض له زملاؤه من أعضاء مجلس قيادة الثورة، واستطرد أنيس منصور قائلًا للسادات: «إن لدي تفسيرًا لهذا يا ريس»، فنظر إليه السادات في اهتمام شديد لسماع هذا التفسير، فأردف أنيس قائلًا: «إن أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أشبه بمسامير لها رؤوس، فكان سهلًا على جمال عبدالناصر خلعها، إلا أنك يا سيادة الرئيس كنت تبدو أمام عبدالناصر مسمارًا بلا رأس فكان عسيرًا عليه أن يخلعك كما خلعهم، أليس كذلك؟!»، فضحك الرئيس السادات ملء شدقيه، ويبدو أنه لم يفهم المعنى، وقال «والله يا أنيس أنت أسوأ من العقاد»، والحقيقة أن تفسير أنيس منصور كان دقيقًا، فلقد عاش السادات طيلة فترة حكم ناصر مسمارًا بلا رأس، فعاش واستقر حتى عينه نائبًا يدين له بالطاعة ويشهد أمامه بالولاء، وبعد موت عبدالناصر، كان السادات هو الوريث الشرعي لحكم مصر بصفته نائب رئيس

الجمهوريـة الراحـل.

هل كان مبارك رئيسًا للجمهورية.. بالصدفة مرة أخرى؟

عـلى مـا يبـدو أن تكـون «السـيد نعـم» هـو الـشرط الرئيـسي في مـصر كي تصبـح رئيسًـا للجمهوريـة.

في أحـد الأيـام، وبينمـا كان السـادات يتشـاور مـع قـادة الجيـش حـول قـراره بالاسـتغناء عـن المستشـارين السـوفييت، اعـترض أحـد القـادة وكانـت النتيجـة أن أطـاح بـه وعـين مبـارك بـدلًا منـه لأنـه مطيـع وعينـه نائبًـا لوزيـر الحربيـة، وقائـدًا لأركان حـرب القـوات الجويـة واصطحبـه معـه في زيـارة للاتحـاد السـوفييتي، وأثنـاء حـرب أكتوبـر حـاز مبـارك عـلى إعجـاب السـادات لإطاعتـه الأوامـر، بعكـس عـدد مـن القـادة الذيـن عـرف عنهـم معارضـة السـادات، مثـل الفريـق سـعد الديـن الشـاذلي رئيـس الأركان.

في أبريـل ١٩٧٥ وبـدون أي مقدمـات، فوجـئ مبـارك بالرئيـس السـادات يطلـب لقـاءه في منزلـه بالقناطـر دون أن يبلغـه أنـه قـد اختـاره نائبًـا لـه، بعدمـا قـرر السـادات إقالـة حسـين الشـافعي نائبـه، وآخـر مـن تبقـى مـن رجـال عبدالنـاصر داخـل نظامـه وقـرر تعيـين مبـارك بـدلا منـه.

يقـول مبـارك: «الرئيـس السـادات أرسـل مـع الجمـسي وطلبـني أن أكـون عنـده في السـاعة السادسـة في القناطـر وكان يـوم خميـس.. وكنـت معزومًـا في الخـارج، وأخـبرت زوجـتي أنـه سيسـألني عـن القـوات الجويـة والأحـوال، وقلـت لهـا إنهـا سـاعة أو اثنتـين عـلى الأكـثر وسـأعود، وذهبـت السـاعة السادسـة مسـاء، وفي البلكونـة بالـدور العلـوي جلـس يحـكي عـن تاريخـه، والسـاعة ٨،٣٠ جـاء العشـاء وكانـت المقدمـات حـول الثـورة وأيـام عبدالنـاصر، وكيـف كانـت تسـير الأمـور وقصـص طويلـة، ولـم يكـن هنـاك غـيري، وبعـد العشـاء أخـبرني وقـال لي: وبعديـن مـن سـاعتها يـا ابـني أنـا بفكـر

أختـار نائبًـا لرئيـس الجمهوريـة.. كنـت أفكـر في أحمـد إسـماعيل ولكنـه كان مريضًـا، ورجعـت أقـول إن الجمـسي ينفـع وزيـر دفـاع، ومحمـد عـلي فهمـي خبـير صواريـخ، وطلّـع لـكل واحـد صفـة، وطـوال هـذه المـدة لـم يـأت عـلى بـالي إلى أن قـال فاضـل أمامـي أنـت.. فأنـا اخترتـك لمنصـب نائـب الرئيـس»، وصـدم مبـارك، فلـم يكـن يتخيـل أن يختـاره الرئيـس نائبًـا لـه.

ونقـل د. محمـود جامـع المـؤرخ في كتابـه «عرفـت السـادات» أن السـادات اسـتدعى مبـارك وسـأله: «عـاوز تبقـى إيـه؟» فأجـاب مبـارك: «أبقـى رئيـس شركـة مـصر للطـيران»، وهـذا مـا ذكـره مبـارك نفسـه لعمـاد أديـب في حديثـه الطويـل بمناسـبة ترشـيحه لفـترة سادسـة، أنـه كان يحلـم بـأن يكـون سـفيرا في لنـدن «علشـان بلـد إكسلانسـات» عـلى حـد تعبـيره، وأضـاف مبـارك: «لـم أتوقـع أن يتم اختيـاري في منصـب سـياسي.. لـم يكـن لي طمـوح سـياسي، كنـت أقـول إن حيـاتي كلهـا حـروب، قلمـا أذهـب للبيـت، وأغلـب حيـاتي قضيتهـا في الوحـدات، وأقـول بعـد سـنة ممكـن أكـون سـفيرًا في بلـد مريـح وأعيـش شـوية قبـل أن أصـل إلى سـن المعـاش، وأقـصى شيء أفكـر فيـه كان أن أسـتريح، فطـوال الوقـت مجهـود ضخـم وثكنـات عسـكرية ورمـال، وأريـد أن أجلـس مـع العائلـة، ولكـن بعـد ذلـك حـدث مـا حـدث».

وقـال د. محمـود جامـع في لقائـه مـع برنامـج خـط أحمـر عـلى قناة دريـم٢: «كان السـادات قـد أخـبرني قبلهـا بأنـه سـيعين نائبـا مدنيـا لرئيـس الجمهوريـة، ممـا جعلـني أقبـل رأسـه، ولكـن عندمـا أخـبرني بأنـه عـين حسـني مبـارك، قلـت لـه: يـا نهـار أسـود، وذكرتـه بنيتـه بتعيـين نائـب مـدني، لكنـه أثـنى عـلى مبـارك، لأن السـادات كان يريـد شـخصا يسـتطيع التحكـم فيـه، ولـم يكـن يريـد شـخصية قويـة تقرفـه»، وتشـير روايـات كثـيرة إلى أنـه بعـد تعيينـه نائبًـا لرئيـس الجمهوريـة، كان حسـني مبـارك يجلـس في هـدوء وصمـت بجـوار

السادات يستمع لما يقوله بعناية، ويبتسم بأدب للنكات التي يطلقها السادات حتى لو لم يفهم مغزاها.

كان الرئيس السادات صاحب تاريخ، ولديه بعض القراءات السياسية والخبرات، كما كان مولعًا بالسخرية من السياسيين اليساريين الذين يقولون كلامًا ضخمًا وألفاظًا وتعريفات سياسية مثل الإمبريالية والرجعية، ولم يكن مبارك على دراية بمثل هذه الكلمات وربما لم يفكر في التعرف عليها، كان مبارك نموذجيًا بالنسبة لرئيس مثل أنور السادات، عصبي وكثير الحركة وقراراته مفاجئة، وبالتالي فقد كان حسني مريحًا بالنسبة للسادات، ولم يثبت أبدا أنه عارضه، لدرجة أن هنري كيسنجر وزير الخارجية عندما رآه لأول مرة بجوار السادات لم يتصور أن هذا هو الرجل الثاني في مصر، واعتقد أنه مجرد مساعد درجة ثانية للسادات أو موظف كبير في الرئاسة.

بعد ست سنوات من ذلك التاريخ، وكما حدث للسادات عندما توفي عبدالناصر فجأة، كان من الطبيعي أن يتولى مبارك كنائب للرئيس منصب رئاسة الجمهورية، وخلف الأبواب الموصدة تمت الترتيبات لتوليه الرئاسة، وكالعادة تقرر إجراء استفتاء شعبي نتيجته كانت أمرًا محسومًا، وفي يوم ١٤ أكتوبر ١٩٨١، وقف مبارك أمام مجلس الشعب ليقسم رئيسًا للجمهورية.

لم يكن الضابط مبارك يتخيل أن تنتهي حياته العسكرية إلى هذا المسار، لكنها ضربات القدر التي جعلت السادات يعينه نائبًا له، ثم يلقى السادات مصرعه ويجرى استفتاء معروفة نتيجته مسبقًا فيصبح مبارك رئيسًا للجمهورية.

من قال لا في وجه من قالوا نعم
شارل ديجول

هتف ديجول بصوته الحاد عبر المذياع: «لقد انتهكت باريس، لقد تحطمت باريس، لقد عذبت باريس.. لكن باريس قد تحررت».

كانت تلك العبارة هي بمثابة حكم الإعدام على نظام الجنرال بيتان الديكتاتوري، الذي هرب قبل أن يخط ديجول بقدميه مرة أخرى على تراب باريس، لم يعتقد المارشال بيتان، الذي نزل الشعب الفرنسي يومًا ما إلى الشوارع لتفويضه لإدارة شئون البلاد، أن يكون مصيره هو الإعدام.

جاءت البداية يوم أن خطط هتلر للانتقام من فرنسا التي أذلت ناصية ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

في بداية الأمر، سيطر هتلر بجيوشه على الدول المجاورة الناطقة بالألمانية، معتبرها مساحة الأمان الخاصة بألمانيا، قبل أن تتفاقم أطماعه ويقرر السيطرة على أوروبا كلها، وبالفعل اجتاح الجيش النازي معظم دول أوروبا، وصار على بعد خطوات من حدود فرنسا، وكرد فعل طبيعي، أقال رئيس الوزراء الفرنسي «باول رينود» الجنرال «جوستاف جاملان» قائد الجيش الفرنسي في ١٧ مايو ١٩٤٠، بعد أن أخفق هذا الأخير في إيقاف تقدم الجيش الألماني، وعين الجنرال «ماكسيم ويجان» بدلًا منه، ولرفع المعنويات عين «رينود» الجنرال «فيليب بيتان» البالغ من العمر اثنين وثمانين عامًا نائبًا له، نظرًا لشهرته الواسعة، كونه بطل معركة «فردان» الشهيرة في الحرب العالمية الأولى.

لـم يفلـح «ويجـان» في مهمتـه، ففـي الرابـع مـن يونيـو ١٩٤٠، استولى الألمـان عـلى «دينكـرك»، وأصبحـت فرنسـا عـلى قيـد أنملـة مـن الانهيـار التـام، فعـرض الجـنرال «بيتـان» فكـرة الاستسـلام لتجنـب الحـرب والدمـار، لكـن رئيـس الـوزراء «رينـود»، ووكيـل وزارة الدفـاع والحـرب الجـنرال «شـارل ديجـول» رفضـا الاستسـلام وأرادا متابعـة القتـال، لكـن القـدر لـم يمهلهـا فرصـة، ففـي العـاشر مـن يونيـو ١٩٤٠، أعلـن الديكتاتـور الإيطـالي «موسـيليني» نبـأ إعـلان الحـرب عـلى بريطانيـا العظمـى وفرنسـا وسـط تأييـد عاصـف مـن الشـعب الإيطـالي، فجـاء إعـلان الحـرب مـن قبـل إيطاليـا بمثابـة طعنـة في الظهـر.

لـم يستسـلم الفرنسـيون وأظهـروا بسـالة في الدفـاع عـن بلادهـم، لكـن الأمـر كان أكـبر مـن شـجاعتهم، فأعلنـت الحكومـة أن باريـس «مدينـة مفتوحـة»، أي أنـه قـد تـم تسـليمها للعـدو بـلا قتـال لـكي تتجنـب مصـير «وارسـو» و«روتـردام» المجاورتـين اللتـين تـم تدميرهمـا بالكامـل، وانتقلـت الحكومـة إلى «بـوردو» في جنـوب غـرب البـلاد، واقـترب الألمـان مـن باريـس بـأسرع ممـا كان يتصـور الجميـع، فخـرج الملايـين مـن سـكان باريـس وكل مـدن فرنسـا إلى الشـارع هاربـين بعـد إهمـال الحكومـة لهـم، متوجهـين الى إقليـم «لـوار» الحصـن الأخـير أمامهـم، وكان ذلـك حدثًـا هائـلًا، عـرف لاحقًـا باسـم «سـفر الخـروج».

وفي فجـر ١٤ يونيـو ١٩٤٠، دخـل الألمـان باريـس بسـهولة قطـع قالـب مـن الزبـد بسـكين حـامٍ، ورفـرف شـعار النازيـة «سواسـتيكا» أو الصليـب المعقـوف عـلى بـرج إيفـل في مشـهد مـذل، واسـتمر الألمـان في تقدمهـم السريـع جنوبًـا، بالرغـم مـن المقاومـة الشرسـة الـتي أبداهـا الجيـش الفرنـسي الشـجاع، الـذي مـات منـه مـا يقـرب مـن ١٠٠ ألـف جنـدي فرنـسي في شـهر واحـد، وأسر منـه ١،٨٥ مليـون جنـدي، و٦٣ ألـف ضابـط، وفي هـذه الأوقـات العصيبـة الـتي تمـر

بهـا البـلاد، أراد الجـنرال بيتـان إيقـاف القتـال في «بـوردو» مقـر الحكومـة الفرنسـية الحـالي خوفًـا عـلى أرواحهـم.

وفي ١٧ يونيـو، اسـتمع المواطنـون الذيـن تبقـوا في باريـس إلى المارشـال «بيتـان» وهـو يعلـن أنـه يسـعى إلى هدنـة مـع الألمـان قائـلًا: «لقـد طلبـت مـن العـدو وقـف العـدوان، لقـد قـررت رغم أن القـرار يؤلـم قلـب الجنـدي لكـن الوضـع العسـكري يتطلـب ذلـك»، وترجمـت الإذاعـة الألمانيـة هـذا الخطـاب باعتبـاره الإعـلان الرسـمي لاستسـلام فرنسـا، وتجمهـر الفرنسـيون في الشـوارع يؤيـدون قـرارات «بيتـان» الحاسـمة، ويفوضونـه بـإدارة شـئون البـلاد، والعمـل عـلى وضـع دسـتور جديـد، مؤثريـن الاسـتقرار، ناظريـن تحـت أقدامهـم، آملـين في سـلام وقـتي سريـع بـدلًا مـن الكفـاح لأجـل تحريـر الأرض المحتلـة.

وفي اليـوم التـالي ١٨ يونيـو، شـجب ديجـول الهدنـة وسـجل خطابًـا جديـدًا بـث إلى فرنسـا مـن لنـدن عـلى موجـات إذاعـة BBC قـال فيـه: «أيهـا الفرنسـيون لقـد خسرنـا معركـة، لكننـا لـم نخـسر الحـرب، وسـوف نناضـل حـتى نحـرر بلدنـا الحبيـب مـن نـير الاحتـلال الجاثـم عـلى صـدره، هـذه الحـرب لا تقتـصر عـلى خسـارة إقليـم في بلادنـا، هـذه الحـرب لـم تنتـه بخسـارة معركـة فرنسـا، هـذه الحـرب هـي حـرب عالميـة واسـعة، أيًـا كان مـا سـيحدث، فـإن شـعلة المقاومـة الفرنسـية لا يجـب أن تنطفـئ ولـن تنطفـئ، نحـن نؤمـن أن شرف فرنسـا هـو في متابعـة الحـرب إلى جانـب حلفائنـا، وليـس الاستسـلام المهـين للنازيـين».

في ٢٠ يونيـو عـام ١٩٤٠، وصـل هتلـر إلى «كامبيـان» قـرب باريـس، نفـس المـكان الـذي وقعـت فيـه اتفاقيـة استسـلام ألمانيـا في الحـرب العالميـة الأولى ١٩١٨، وأراد مـن التجهـيزات الـتي أمـر بهـا إذلال المهزومـين، لدرجـة أنـه أحـضر معـه مـن ألمانيـا عربـة السـكة الحديديـة ذاتهـا الـتي وقعـت فيهـا اتفاقيـة استسـلام ألمانيـا في

الحرب العالمية الأولى، وتحقق الانتقام، وترأس الجنرال «تشارلز هانتزيجر» -قائد الجيش الفرنسي الرسمي الذي عينه بيتان- الوفد الفرنسي، وقرأ المترجم نقدًا ساخرًا اتهم فيه فرنسا بإعلان الحرب بلا مبرر، وجلس هتلر متابعًا للمحادثات ولمراسم توقيع اتفاقية استسلام فرنسا دون أن ينبس ببنت شفة، فقط أخذ ينظر بصمت لوفد الجانب الفرنسي، ثم وقف وتركهم قبل انتهاء التوقيعات، ويبدو أنه لم يستطع السيطرة على أعصابه في تلك اللحظة المثيرة، فذهب ليستمتع بمحيط برج إيفل، قبل أن يأمر بإعادة عربة السكة الحديدية إلى برلين بعد الانتهاء من توقيع الاستسلام.

كانت من الشروط المهينة في معاهدة الاستسلام أن تدفع فرنسا لألمانيا مبلغًا نقديًّا باهظًا يوميًّا كتكاليف للاحتلال الألماني لفرنسا، وبناء على معاهدة الاستسلام وللحفاظ على جيشه، قرر هتلر أن يسمح لفرنسا باستعادة سيادة جزئية بإشراف حكومة تحت إمرته، وبجيش محدود مجرد من الأسلحة الثقيلة لحفظ النظام الداخلي فقط، وقسمت فرنسا إلى قسمين، منطقة محتلة في الشمال على امتداد الساحل الأطلسي تحت السيادة النازية، والجزء الثاني غير محتل رسميًا سمي «المنطقة الحرة» تحت الحكم والسيادة الفرنسية بشكل صوري، مع عاصمة جديدة لها هي «فيشى»، التي انتقل إليها المارشال «بيتان» مع الحكومة في أوائل شهور يوليو.

لاحقًا انضم «بيير لافال» السياسي الفرنسى الشهير للحكومة الجديدة، واستطاع إقناع الجمعية الوطنية الفرنسية أن تعطي «بيتان» كل الصلاحيات اللازمة لإصدار دستور جديد للبلاد، وبالفعل عقدت الجمعية الوطنية الفرنسية، الاجتماع المشترك لمجلسي النواب والشيوخ الفرنسيين في فيشي في ١٠ يوليو ١٩٤٠ وكان التصويت مثيرًا للجدل، فقد صوتوا بالأغلبية المطلقة لصالح

مرسـوم دسـتوري يعطـي الحريـة المطلقـة لـ «بيتـان» لصياغـة دسـتور جديـد ويمنـح «بيتـان» كل شيء، السـلطات القضائيـة، والإداريـة، والدبلوماسـية، والتشريعيـة بنـاء عـلى التفويـض الشـعبي السـابق، ثـم انتخبـوه رئيسًـا للدولـة رغبـة في الاسـتقرار وسـط ترحيب شـعبي جـارف، وتـم عـزل «رينـود»، وأصبـح «بيتـان» بذلـك يتمتـع بالسـلطتين التشريعيـة والتنفيذيـة في الدولـة الفرنسـية.

صـار «بيتـان» هـو الدولـة والدولـة هـي «بيتـان»، وأصـدر مـا عـرف باسـم «المرسـوم الدسـتوري الثـلاثي»، وعقـد اتفاقًـا مـع الألمـان المحتلـين لتقنـين حكمه، وأقسـم كل المسـئولين العسـكريين والسياسـيين ولاء اليمـين الدسـتورية لـ «بيتـان»، وفي أكتوبـر ١٩٤٠، أصـدر نظـام فيـشي دعوتـه لإقامـة «نظـام جديـد»، وإعـلان «ثـورة وطنيـة» مدعيـا أن الغـرض منهـا هـو الدفـاع عـن العمـل والأسرة والبـلاد، كبديـل للحريـة والمسـاواة والأخـوة، داعيًـا النـاس إلى العـودة إلى احـترام الله والبلـد ومفهـوم الأسرة، وبالفعـل أبدلـت حكومـة فيـشي شـعار الجمهوريـة الفرنسـية -الـذي هـو نفسـه شـعار الثـورة الفرنسـية- «حريـة.. مسـاواة.. أخـوة» بشـعار جديـد هـو «العمـل.. الأسرة.. الوطـن»، وأصـدرت ميثـاق العمـل، وأطلقـت مـا سـمي بـ «الثـورة الوطنيـة» كأيديولوجيـة رسـمية للنظـام الفيـشي، لكـن لـم يكـن مـا يسـمى بـ«الثـورة الوطنيـة» سـوى خـداع الـرأي العـام، وكانـت سـلطة بيتـان الشـخصية والديكتاتوريـة صفـة مميـزة لحكومـة فيـشي، حـتى أنهـا بـدأت تصـدر جميـع الوثائـق الرسـمية عـلى الشـكل الملـكي، واصطلـح أن تبـدأ المكاتبـات الرسـمية الصـادرة مـن الحكومـة بعبـارة «أعلـن أنـا فيليـب بيتـان مارشـال فرنسـا ورئيـس الدولـة الفرنسـية».

ارتبطـت حكومـة فيـشي الفرنسـية والمجلـس العسـكري الرجعـي ارتباطًـا وثيقًـا بمصالـح البرجوازيـين، وشـارك العديـد من الرأسـماليين الاحتكاريـين مبـاشرة في حكومـة «بيتـان»، إذ أصبـح رئيـس بنـك

الهنـد الصينيـة «بونتـا دويـه» وزيـرا للشـئون الخارجيـة، وعمـلاق صناعـة المعـادن والجلـود «سـكوتيا» وزيـرًا للصناعـة، وبالطبـع حظى نظـام فيـشي بتأييـد واسـع مـن الكنيسـة الرسـمية ومـن رجـال الديـن الكاثوليـك وغيرهـم مـن اليمـين المتطـرف، وفي المقابـل تلقـت الكنيسـة الاهتمـام الوطـني والحمايـة، وأصبحـت ركنـا مهمـا مـن نظـام فيـشي، واتخـذ نظـام فيـشي جميـع التدابـير السياسـية لحمايـة مصالـح البرجوازيـة، لترسـيخ ديكتاتوريـة الرجعيـة، وقـضى عـلى جميـع الحـركات الديمقراطيـة والحريـات، ومنـع الجمعيـة الوطنيـة مـن القيـام بانتخابـات مجلـس البلديـة المحليـة، وحـل جميـع الأحـزاب السياسـية، ومجلـس أصحـاب الأعمـال، وجميـع المنظمـات النقابيـة، وأنشـأ مجموعـة متنوعـة مـن اللجـان المنظمـة الـتي يسـيطر عليهـا الرأسـماليون الاحتكاريـون، بجانـب القمـع الوحـشي ضـد الشـيوعيين.

وقدمـت سـلطات فيـشي المسـاعدة للنازيـين في القبـض عـلى اليهـود وغيرهـم مـن «غـير المرغـوب فيهـم» بالتعـاون مـع سـلطات الاحتـلال الألمـاني، بـل إن فرنسـا المحتلـة بقيـادة حكومـة فيـشي صـارت ثالـث دولـة مـن حيـث العـدد بعـد روسـيا وبولنـدا في تزويـد النازيـين بالعمالـة المجانيـة، فقـد فرضـت حكومـة فيـشي «نظـام الخدمـة الإلزاميـة للعمـل»، وسـحبت ٦٠٠ ألـف عامـل فرنـسي للعمـل مـن أجـل ألمانيـا، بـل إنـه مـع اقـتراب الزحـف النـازي عـلى موسـكو، بـدأ متطرفـو اليمـين في الـدول المحتلـة وعـلى رأسـهم «شـبان فيلـق المتطوعـين الفرنسـيين» تحـت إمـرة «بيتـان» بالتطـوع في الجيـش الألمـاني، وارتـداء زى النازيـين، والمحاربـة عـلى الجبهـة الشرقيـة بـدلًا مـن الجنـود الألمـان، وسـط مباركـة كل الشـعب الفرنـسي، مبرريـن دعـم «بيتـان» للنازيـة بحجـة اتقـاء شرهـم للحفـاظ عـلى اسـتقلال وسـلامة أراضي فرنسـا، وتحولـت حكومـة فيـشي إلى نظـام يخـدم المصالـح الألمانيـة وسـط تهليـل ومباركـة الفرنسـيين لبيتـان

وخطواته واستقراره، وأصبح دور الجنرال «بيتان» وحكومته هو تغيير نظرة الرأي العام الفرنسي من كراهية الألمان الذين يحتلون الأراضي الفرنسية، واعتبارهم أصدقاء يحمون فرنسا وتحويل الإنجليز حلفاء فرنسا في الحرب إلى أعداء يجب قتالهم، وبمنتهى السرعة تحولت العشرات من الأحزاب والصحف لدعم الديكتاتور وتحول الرأي العام إلى تأييد كاسح للمارشال بيتان وحلفائه الألمان.

سمح هتلر لحكومة فيشي بالاستمرار في السيطرة على امبراطورية فرنسا الاستعمارية الواسعة وقوتها البحرية، بشرط تجريد سفنها من السلاح وبقائها في المرافق لخشيته من تعاونها مع بريطانيا، وخشى تشرشل من العكس، أي أن تقع تحت سيطرة الألمان، فأمر البحرية البريطانية بجعلها محايدة، فأبحرت قوة بحرية بريطانية إلى مرسى «الكبير» في الجزائر، أحد أكبر قواعد فرنسا البحرية، لم يخاطر تشرشل وأرسل إنذارًا لقادة القاعدة قائلًا: «إما أن تنضموا إلينا وتغرقوا سفنكم أو تبحروا مع قوة مرافقة لتجريدكم من الصفة العسكرية في الكاريبي»، وبالطبع رفضت البحرية الفرنسية التابعة لحكومة فيشي كل العروض، ففتح البريطانيون النار عليهم بلا تردد، فتضررت سفينتان حربيتان فرنسيتان بشكل كبير وغرقت الثالثة بالكامل، وقتل ١٢٩٧ بحارًا فرنسيًا جراء تعنت حكومة فيشي، وقرر تشرشل معاداة حليفه السابق «بيتان»، وبعد يومين من الهجوم قطعت حكومة فيشي علاقتها الدبلوماسية مع بريطانيا وسط تأييد شعبي كبير.

وسط كل ذلك ارتفع صوت واحد بالمعارضة عاليًا الى عنان السماء.. الجنرال «شارل ديجول».

بمجرد أن استشعر «ديجول» نية «بيتان» في السيطرة على فرنسا وتحويلها إلى مطية في يد النازيين، هرب إلى بريطانيا ليقود المقاومة من هناك، ونظم ديجول جيشًا صغيرًا يحارب مع

البريطانيين في أفريقيا، بدأ تكوينه منذ ١٨ يونيو ١٩٤٠ دعي بـ «القوات المسلحة الفرنسية الحرة»، وجسد ديجول أسمى معاني المقاومة الفرنسية ضد النازية، وهكذا أصبح لفرنسا حكومتان في نفس الوقت، حكومة فيشي الرسمية بقيادة بيتان، وحكومة فرنسا الحرة في المنفى بقيادة ديجول الذي اتخذ من «صليب اللورين Croix de Lorraine» شعارًا لحركة فرنسا الحرة، وتدريجيا تحول الرأي العام ضد حكومة فيشي وسلطات الاحتلال الألمانية، ولاحقًا تشكلت مجموعات المقاومة السرية والتمرد ضد النازيين وضد حكومة فيشي لقبت باسم «ماكيز maquis»، تألفت من طبقات المجتمع كافة، من المحافظين ومن المسيحيين الكاثوليك بمن فيهم الرهبان (في تحد واضح لموقف الكنيسة الرسمي الداعم لبيتان) جنبًا إلى جنب مع اليهود والليبراليين والأناركية (اللاسلطويين) والاشتراكيين والشيوعيين، وكانوا يقومون بتوزيع المنشورات المعارضة لـ «بيتان»، وأنشأوا شبكة محطات إذاعية لمساعدة جنود الحلفاء.

وتنامت حركة المقاومة بسرعة في أنحاء البلاد بفضل الأعداد الضخمة من الشبان الفرنسيين الذين كانوا يلجأون للتلال والأرياف والغابات هربًا من قبضة السلطات الألمانية ومن قوانين العمل القسري والخدمة الإجبارية التي كانت حكومة فيشي تفرضها عليهم لصالح النازيين، وكان الثوار يعيشون في الريف كخارجين عن القانون، يتلقون الدعم والمساعدة من الفلاحين ومن الإمدادات التي كانت تلقيها لهم من الجو الطائرات البريطانية، وكانوا عاملًا مساعدًا للحلفاء أثناء قيامهم بعمليات الإنزال في فرنسا، وذلك من خلال تعطيلهم لقنوات الاتصال والنقل بين القوات الألمانية، وفي المقابل، أصدرت حكومة فيشي الموالية لألمانيا على ديجول وعلى كل من يردد أفكاره وعلى أعضاء جيشه بالإعدام، كونهم يحاربون النازيين

لتحرير وطنهم المحتل فرنسا، واعتبر الفرنسيون ديجول خائنًا وعدوًا للشعب، يريد أن يلقي بهم في التهلكة وويلات الحرب، بدلًا من أن يوافق على الاستسلام، بعكس بيتان، متناسين ذل ومهانة الاحتلال، وظل ديجول ومن معه رمزًا للخيانة من وجهة نظر الإعلام الفرنسي وقتها لمدة أربع سنوات كاملة.

فى ٩ نوفمبر ١٩٤٢، فتح الحلفاء جبهة جديدة في شمال أفريقيا كخطوة أولى لاحتلال البحر المتوسط، وعلى شواطئ كازابلانكا تم استقبال سفن البريطانيين والأمريكان بنيران المدافع من أسطول فيشي الفرنسية، فقام الحلفاء بالرد، فقد كان نظام فيشي المتعاون مع الألمان لا يزال يسيطر على شمال أفريقيا، وألقى قائد فرنسا الحرة الجنرال ديجول خطابًا عبر المذياع في لندن قال فيه: «إلى القادة الفرنسيين، الجنود، الطيارين، المواطنين والزعماء الفرنسيين في شمال أفريقيا، أقول لهم انهضوا، ساعدوا حلفاءنا، انضموا إليهم بلا تردد...»، وبعد يومين من القتال على سواحل المتوسط بين البريطانيين والأمريكيين من ناحية وقوات فيشي التي تحارب لصالح النازيين من ناحية، استسلم الادميرال «فرانسوا دارلان» قائد قوات فيشي، وصمتت المدافع للأبد وأمن الحلفاء إنزالهم في الجزائر، وفي عشية عيد الميلاد ٢٤ ديسمبر ١٩٤٢ اغتيل «دارلان» بيد «فريناند دي بونييه لا شابيل» أحد المناهضين لحكومة فيشي.

فجأة.. بدأت الضربات تنهال على هتلر بدون هوادة من كل صوب، وبدأت الخسائر تتوالى بلا حساب، مونتجمرى في العلمين وستالين في الشرق، والتحالف البريطاني الأمريكي الكندي الفرنسي (جيش فرنسا الحرة بقيادة الجنرال «جوان» الموالي لديجول) في الجنوب عبر إيطاليا، وبدت النهاية قريبة جدًا، وبدأ الإعداد ليوم الإنزال الأخير على خمسة شواطئ على شريط نورماندي الساحلي المقسم الى خمسة قطاعات «يوتاه، أوماها، جولد،

جونو، وسورد»، على مدى ١٠٠ كيلو متر، وشهدت الأشهر الستة التي سبقت إنزال الحلفاء في النورماندي حربًا أهلية خاضتها خلايا المقاومة الفرنسية ضد رجال الجستابو وميليشيات فيشي.

في منتصف ليلة الخامس من يونيو ١٩٤٤، بدأ الهجوم الكاسح على شواطئ فرنسا المحتلة، المعبر الوحيد لتحرير أوروبا، ولعب الجيش الفرنسي الحر الذي تم تشكيله دورًا أساسيًا في هذا الإنزال بمشاركة ضباط وجنود الجيش إلى جانب كمية هائلة من المتطوعين من الشعب الفرنسي الذي انقلب على بيتان، وأسهمت حركات المقاومة في حرب التحرير، ونهضت باريس وأنشأت الثكنات، وأخذت المدن الفرنسية تتوالى بالسقوط فاستولى الجيش الأمريكي على «سان لو» وسقطت «نانت» في ١٠ أغسطس، وبعد أسبوع تم تحرير مدينتي «سارتر» و«أورليان»، وأحرز الجنرال «منتجوري» انتصارًا حاسمًا على مقربة من «فاليز»، وعبرت وحدات بريطانية نهر السين.

ووصلت الأحداث إلى أوجها بحلول ١٩ أغسطس ١٩٤٤، حيث بدأ عصيان مسلح عام في كل أحياء باريس، وبدأ الألمان في الهروب، لكن الجنرال النازي «فون كولتز» تلقى أمرًا من هتلر مع عشرين ألفًا من رجاله بتدمير باريس قبل الانسحاب، واندلع قتال عنيف وسرى العصيان المسلح كالهشيم في النار في كل أنحاء فرنسا المحتلة، وفي اليوم الرابع للعصيان المسلح وصلت فرقة الجنرال «ليكلير» المسلحة الثانية من جيش فرنسا الحر، وحررت باريس أخيرًا صباح ٢٤ أغسطس ١٩٤٤، واستسلم الجنرال «فون كولتز»، وفي صباح ٢٦ أغسطس ١٩٤٤، وصل الجنرال ديجول إلى باريس منتصرًا محمولًا على الأعناق، حيث استقبل كالفاتحين بعد أن كان منذ سنوات قليلة خائنًا للشعب ومطاردًا من قبل السلطة، هتف ديجول عبر المذياع بصوته الحاد: «لقد انتهكت باريس.. لقد تحطمت باريس.. لقد عذبت باريس.. لكن باريس

قـد تحـررت»، وفي اليـوم التـالي، لوصـول ديجـول إلى باريـس، أعلـن قيـام الحكومـة الفرنسـية المؤقتـة برئاسـته، وأخـذ مقاليـد السـلطة مـن حكومـة فيـشي المنهـارة.

في سـبتمبر ١٩٤٤، وبعـد تحريـر باريـس أعلنـت حكومـة فرنسـا الحـرة برئاسـة ديجـول إلغـاء دولـة بيتـان الفرنسـية رسـميًا مـع كل قوانينهـا وتشريعاتهـا، وتعـرض العديـد مـن أعضـاء حكومـة فيـشي الفرنسـية للاعتقـال والسـجن بتهمـة الخيانـة، وهـرب «بيـير لافـال» إلى ألمانيـا ومـن ثـم في النمسـا ولكـن ألقـي القبـض عليـه لاحقـا وأعيـد إلى فرنسـا، حيـث حوكـم وأعـدم عـام ١٩٤٥، أمـا «فيليـب بيتـان» فقـد نقـل إلى بلـدة بلفـور ثـم أخـذ قـسرًا إلى شـتوتجارت في ألمانيـا تحـت الحجـر، وفي أبريـل ١٩٤٥، نجـح في السـفر إلى سـويسرا، فبعـث إليـه ديجـول برقيـة يرجـوه أن يظـل في منفـاه الاختيـاري، ولا يعـود للمحاكمـة، نظـرًا لبطولتـه في معركـة «فـردان»، لكـن بيتـان رفـض الاسـتماع إلى نصيحـة ديجـول، وعـاد إلى فرنسـا طواعيـة برغبته ليقُـدم للمحاكمـة بتهمـة الخيانـة العظمـى وحكـم عليـه بالإعـدام لتعاونـه مـع الألمـان، ولكـن تدخـل ديجـول وخفـض العقوبـة إلى السـجن الانفـرادي المؤبـد، إلى أن تـوفى بيتـان في المعتقـل في ٢٣ يوليـو ١٩٥١ عـن ٩٥ عامًـا.

من قال لا في وجه من قالوا نعم...
جاي فوكس

حتى خريف عام ١٦٠٢، كان مستقبل العرش في إنجلترًا يبدو مجهولًا تمامًا.

كانت «إليزابيث» الأولى ملكة إنجلترا التي أوشكت على عامها السبعين قد رفضت كل عروض الزواج طوال حياتها، وأصبحت مسألة خلافة العرش من القضايا الساخنة التي يتم مناقشتها في البرلمان، الذي عرض على الملكة أحد الخيارين، إما الموافقة على الزواج، أو القيام بتعيين وريث لها لمنع حدوث حرب أهلية بعد وفاتها، لكنها رفضت بصرامة كلا الخيارين، وأصرت أنها متزوجة من مملكة إنجلترا وشئونها، وفي نهاية الأمر تقبل كبار المسئولين في الحكومة فكرة أن الملكة لن تتزوج، ولن تعين وريثًا للعرش، ولقبت بالملكة العذراء.

في نهاية عام ١٥٩٨، تولى «روبرت سيسيل» منصب رئيس الحكومة، عاقدًا في نفسه العزم على تمهيد الطريق لخلافة سلسة، لتجنيب البلاد الدخول في حروب أهلية، ولسبب ما، دخل «سيسيل» في مفاوضات سرية مع «جيمس السادس» ملك اسكتلندا، حتى يصبح وريثًا لعرش بريطانيا، وفي فبراير ١٦٠٣، مرضت «إليزابيث» ودخلت في حالة مستمرة من الحزن الشديد بسبب وفاة ابنة ابن عمها وصديقتها المقربة «كاثرين»، وفي ٢٤ مارس ١٦٠٣، توفيت إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا في قصر «ريتشموند»، وبعد بضع ساعات، وضع كل من «سيسيل» والبرلمان خططهما قيد التنفيذ، وأعلنوا عن تنصيب «جيمس السادس» ملك اسكتلندا ملكًا لإنجلترا فصار «جيمس الأول»

ملـك إنجلـترا وسـط تأييـد الكاثوليـك المضطهديـن في إنجلـترا مـن قبـل البروتسـتانت.

كانـت إنجلـترا قـد أرسـت قوانـين عنصريـة بغيضـة ضـد الكاثوليـك في عهـد الملكـة «اليزابيـث» عرفـت بـ «قوانـين الحظـر» أو «قوانـين العصيـان»، تعـرض الكاثوليـك بمقتضاهـا للغرامـات والسـجن بـل أحيانًـا القتـل، فجـاء «جيمـس الأول» وأرخـى القبضـة الحديديـة عـن الكاثوليـك، وأبطـل بعضًـا مـن «قوانـين الحظـر»، وأبـاح للقساوسـة دخـول الريـف وإقامـة القـداس في الـدور الخاصـة، وراوده حلـم التوفيـق بـين الكنيسـتين الكاثوليكيـة والبروتسـتانتية في العالـم المسـيحي، ولكـن عندمـا تكاثـر عـدد الكاثوليـك بفضـل هـذه البارقـة مـن النـور والأمـل، نـدد البيوريتانيـون Puritans (البروتسـتانت المتشـددين) بتسـاهله مـع الكاثوليـك، وهـاج البرلمـان ضـد قـرارات الملـك المرتعـش، فعـدل جيمـس مـن قراراتـه، وأجـاز تجديـد قوانـين إليزابيـث المعاديـة للكاثوليـك، بـل زاد عليهـا وتوسـع في تطبيقهـا حرصًـا عـلى كسـب تأييـد البرلمـان، وأبعـد كل الإرسـاليات الكاثوليكيـة، وحـرم أي تعليـم كاثوليـكي، وفـرض عـلى كل الكاثوليـك الذيـن يمتنعـون عـن إقامـة الصلـوات البروتسـتانتية الإنجليكانيـة غرامـة قدرهـا عـشرون جنيهًـا في الشـهر، وأي تخلـف عـن دفـع مثـل هـذه الغرامـات يتبعـه عـلى الفـور مصـادرة الممتلـكات الأصليـة أو الشـخصية، والاسـتيلاء عـلى الماشـية مـن أرض المقـصر في الدفـع، وعـلى أثاثـه وملابسـه لمصلحـة التـاج.

أصـاب التراجـع في الحريـات الدينيـة، ونكـوص الملـك بوعـوده، الكاثوليـك المضطهديـن بالإحبـاط وخيبـة الأمـل، وألهـب الاضطهـاد خيـال «روبـرت كاتيسـبى Robert Catesby» للقيـام بعمـل غـير مسـبوق، بالتخلـص مـن الملـك «جيمـس الأول» ومجلـس اللـوردات وتدمـير الحكومـة الإنجليزيـة بأكملهـا في ليلـة واحـدة، بنسـف مجلـس اللـوردات في قـصر «وستمنسـتر» في الوقـت الـذي يجتمـع فيـه الملـك

والأسرة المالكة، واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان، والاستيلاء على مقاليد الأمور، كمقدمة لثورة شعبية لتتويج ابنة الملك جيمس الأول، الأميرة إليزابيث التي تبلغ من العمر تسع سنوات فقط، على العرش باعتبارها كاثوليكية.

ولم يضيع «كاتيسبى» وقتًا، فاتفق يوم ٢٠ من مايو عام ١٦٠٤ مع اثني عشرًا من أصدقائه ممن عرف عنهم معارضتهم الشديدة للنظام، وهم توماس وينتور Thomas Wintour، روبرت وينتور Robert Wintour، جون رايت، John Wright، كريستوفر رايت Christopher Wright، جون جرانت John Grant، وتوماس بريسى Thomas Percy، وفرانسيز تريشام Francis Tresham، روبيرت كيز Robert Keyes، توماس باتس Thomas Bates، أمبروس روكوود Ambrose Rookwood، سير إيفرارد ديجبى Sir Everard Digby، وأخيرًا جاى فوكس Guy Fawkes، وتعاهد الرجال الثلاثة عشر فيما بينهم على الكتمان، وأقسموا على سرية الموضوع، ووثقوا عهدهم بتناول القربان المقدس على يد الراهب الجيزويتي (اليسوعي) «جون جيرار»، ثم انضم إليهم لاحقًا بعض الرجال حتى صار عددهم واحدًا وثلاثين رجلًا.

كانت الفكرة هي حفر نفق تحت مجلس اللوردات البريطاني، وتفجيره من أسفل بالبارود، فاستأجر الثوار دارًا ملاصقة للقصر، وبدأوا بحفر نفق إلى قبو مجلس اللوردات، مسابقين الزمن بالحفر لمدة ست عشرة ساعة يوميًا، ووصلوا قبو القصر قبل الموعد المحدد لافتتاح المجلس، لكن تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد جاءهم خبر تأجيل انعقاد البرلمان إلى شهر فبراير لعام ١٦٠٥، ثم تأجل مرة أخرى حتى ٧ يوليو ١٦٠٥، ثم مرة ثالثة بسبب انتشار مرض الطاعون حتى الثالث من أكتوبر ١٦٠٥، ثم مرة أخيرة حتى صباح الخامس من نوفمبر ١٦٠٥، وهكذا تعطلت

الخطـة لمـدة عـام ونصـف العـام بسـبب تكـرار تأجيـل انعقـاد المجلـس مـرة بعـد أخـرى، وسـط قلـق مشـوب بالشـك مـن بعـض المشـاركين في جـدوى العمليـة برمتهـا، أو في ذنـب الأرواح البريئـة الـتي سـيحصدها الانفجـار حصـدًا.

في إعـادة الطمأنينـة إلى نفـوس الثـوار، سـأل «كاتيسـبى» أسـقف الجيزويـت (الآبـاء اليسـوعيين) في إنجلـترا الأب «هـنري جارنـت» عـن جـواز الاشـتراك في أعمـال قـد تـودي بحيـاة نـاس غـير محاربـين أثنـاء الحـرب، فأجـاز «جارنـت» هـذا الأمـر، لكنـه حـذر «كاتيسـبى» مـن القيـام بـأي أعمـال ضـد رجـال الدولـة والحاشـية لأنهـا لـن تجـر إلا مزيـدًا مـن الشـقاء والاضطهـاد عـلى الكاثوليـك، كمـا أفـضى «كاتيسـبى» -أثنـاء الاعـتراف- إلى الأب «أوزوالـد جرينـواي» بـسر الثـورة المرتقبـة الـتي تضمنـت الآن اتخـاذ تدابـير أخـرى لقيـام الكاثوليـك في إنجلـترا بثـورة عامـة، فأبلـغ «جرينـواي» زميلـه «جارنت» بالموضـوع، وفوجـئ أنـه يعلـم بالأمـر، وحـار الرجـلان بـين إفشـاء الـسر إلى الحكومـة، أو الصمـت، لكنهـم آثـرا الخيـار الثـاني، ومـع ذلـك بـذلا قصـارى جهدهمـا ليثنيـا «كاتيسـبى» عـن تنفيـذ خطتـه.

وفي محاولـة أخـيرة للتخفيـف مـن وخـز الضمـير عنـد زملائـه ومـن مخاوفهـم، اقـترح «كاتيسـبى» إرسـال خطابـات عاجلـة إلى أعضـاء البرلمـان المتعاطفـين مـع الكاثوليـك في صبيحـة اليـوم المحـدد للاجتمـاع، تسـتدعيهم إلى خـارج «وستمنسـتر»، لكنـه تراجـع عـن اقتراحـه خشـية أن ينفضـح الأمـر، إلا أن «فرانسـيز تريشـام» أحـد المشـاركين في العمليـة، خالـف السريـة، وأرسـل منفـردًا تحذيـرًا لنسـيبه «مونتيجـل» موقعًـا مـن مجهـول، يقـول:

«سـيدي العزيـز، بسـبب مـا لـدي مـن اهتمـام بالحفـاظ عـلى سـلامتك الشـخصية، إذا كنـت تأبـه لحياتـك، يجـب أن تتحـل أي عـذر لعـدم حضـورك البرلمـان، لأن الله وشـخصًا مجهـولًا سـيقومان بمعاقبـة الـشر في وقتنـا هـذا، ولا تفكـر مليًـا في هـذا العـرض، بـل

قم بالذهاب إلى بلدك، وأرجوك أن تحرق الرسالة بمجرد قراءتها، وأتمنى من الله أن يحفظك وأن تكون في رعايته».

لم يفكر «مونتيجل» في الأمر مرتين، بل على الفور أطلع أحد أعوان الملك على الأمر، ومن ناحية أخرى، أرسل «توماس وارد» خادم «مونتيجل»، رسالة لـ «كاتيسبى» يخبره فيها عن الرسالة وعن الخيانة التي حدثت، وبمجرد معرفته بأمر رسالة «مونتيجل»، شك «كاتيسبى» أن من يكون خلف تلك الخيانة هو «تريشام»، فقام «كاتيسبى» بمواجهته أمام الباقين، لكنه أنكر تمامًا، بل نجح في إقناعهم بأنه لم يكتب هذا الخطاب، فاقتنع كاتيسبى أن الأمر سيقف عند «مونتيجل»، وقرر بأن يستمر بالخطة كما هي.

في الأول من نوفمبر، اطلع الملك على الخطاب، وقرر أن يقوم اللورد «تشامبرلين توماس هوارد» بإجراء عملية تفتيش كاملة للبرلمان، وفي الثالث من نوفمبر، اجتمع «بيرسى»، و«كاتيسبى»، و«ونتور» للمرة الأخيرة، حيث قال بيرسى لزملائه بأنهم يجب أن «يلتزموا بتلك العملية إلى أقصى درجة»، وذكرهم بأن السفن التي سوف يفرون عن طريقها سوف تكون في انتظارهم عند مرساة نهر التايمز.

وفي اليوم نفسه، قام «بيرسي» بزيارة أحد أصدقائه المقربين من حاشية الملك ليرى إذا كان بإمكانه استشفاف أي شيء عن الشائعات بخصوص رسالة «مونتيجل»، وعندما لم يعلم شيئًا، عاد إلى لندن وطمأن الجميع بألا شيء يدعو إلى القلق، وبحلول مساء الرابع من نوفمبر، وضع الثوار ستة وثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع في مجلس اللوردات مباشرة تكفي لتحويل مجلس اللوردات إلى أنقاض، وكلفوا «فوكس» بمسئولية المتفجرات، حيث كانت لديه خبرة عسكرية بسبب مشاركته في حرب «الثمانين عامًا»، وقام «فوكس» بزيارة «كيز» ليأخذ منه

ساعة صغيرة ليضبطها على وقت إشعال الفتيل وانفجاره، في الوقت نفسه كان العمل يجري بهمة ونشاط من قبل أعوان الملك لتفتيش المبنى بأكمله، فوصلوا إلى القبو قبل التفجير بساعات قليلة، وهناك عثروا على «فوكس»، مرتديًا عباءة سوداء وقبعة، ومُنتَعلًا حذاء طويلًا في نهايته مهماز، وحاملًا في يده مصباحًا، وتم اكتشاف براميل البارود مُخبأة تحت أكوام من الحطب والفحم، فقبضوا عليه واعترف بما كان يقصد إليه من نسف البرلمان في اليوم التالي، لكنه أصر على كونه المنفذ الوحيد للعملية.

لاذ معظم الثوار بالفرار من لندن بعد معرفتهم باكتشاف السلطات للمؤامرة، بينما أرسل «فوكس» إلى سجن برج لندن، حيث أمر الملك بتعذيبه، وفي خطاب أرسله الملك إلى العاملين في برج لندن، أوضح لهم أن عملية التعذيب التي يجب أن تستخدم مع «فوكس»، يجب أن تكون بدرجات، تبدأ بالأقل إلى أن تصل إلى أكبر درجة من التعذيب، وتمنى من الله أن يوفقهم في عملهم الدؤوب، ولكن على رغم التعذيب الشديد، رفض فوكس الإدلاء بأسماء المشتركين، أما الهاربون فقد كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاولة الهرب، فتم القبض عليهم بعد قتال عنيف، وحوكموا جميعًا وتم الحكم عليهم بالاعدام.

في يوم ٣٠ من يناير ١٦٠٦، تم تنفيذ الأحكام في إيفرارد ديجبي، روبرت ونتور، جون جرانت، وتوماس باتس، حيث تم وضعهم على حاملة خشبية وسحلهم في جميع شوارع لندن إلى باحة كنيسة القديس بولس، طلب ديجبي، وهو أول شخص يصعد على السقالة، الغفران من الشعب، كما أنه رفض أي اهتمام أو تعاطف من الكهنة المنتمين للمذهب البروتستانتي، وتم تجريده من ملابسه تم بتر أوصاله، وقطع خصيتيه، وهو لا يزال حيًا، ثم بقرت بطنه واستخرجت أحشاؤه ثم شدت أطرافه الأربعة

باستخدام الخيول، حتى انفصلت أطرافه عن جسده، وقد نُفذت هذه الطريقة في الإعدام أيضًا على روبرت ونتور، وجون جرانت، وتوماس بيتس.

وفي اليوم التالى ٣١ يناير، تم تنفيذ حكم الإعدام في توماس ونتور، وأمبروس روكوود، وروبرت كيز، وجاى فوكس، لكن لم ينتظر كيز أوامر الجلاد بالشنق حيث إنه قفز بنفسه بعد وضع حبل المشنقة حول عنقه، ولكنه نجا، ولذلك تعرض لعملية التعذيب التي يتعرض لها من ينجو من الشنق، ببتر أطرافه على عكس فوكس، الذي قام بالقفز أيضًا ولكنه دق عنقه، وبالتالي نجا من الجزء الأخير المتمثل في عمليات التعذيب البشعة، وتم التمثيل بجثثهم، فعلقت رؤوسهم خارج مجلس اللوردات، ليكونوا عِبرة لغيرهم، بينما أُعدِم هنري جارنت في الثالث من مايو عام ١٦٠٦، ولقبت تلك العملية بـ «مؤامرة البارود»، وصار «فوكس» رمزًا للثورة والكفاح المسلح ضد الحاكم الظالم.

في العام ٢٠٠٥، أنتجت هوليود فيلمًا خياليًا تدور أحداثه في بريطانيا في المستقبل عام ٢٠٣٨، حيث تصبح بريطانيا دولة شمولية يحكمها حزب يميني متطرف، ويتخذ الفيلم من تاريخ ٥ نوفمبر موعدًا هامًا، حيث يتم تفجير البرلمان، مستلهمًا الخطوط الرئيسية من الأحداث الحقيقية لمؤامرة البارود حيث يرتدي بطل الفيلم قناع جاي فوكس طوال الوقت.

المصدر:

موسوعة قصة الحضارة - بداية عصر العقل، للمؤرخ الأمريكي ويل ديورانت وزوجته أريل ديورانت.

من قال لا في وجه من قالوا نعم...
أبو الخير نجيب

لـم يمـر الكثـير مـن الوقـت بعـد انقـلاب يوليـو ٥٢ العسـكري، هـذا الـذي لقبـه أصحابـه زورًا بالثـورة المباركـة، حـتى عـاد أبـو الخـير نجيـب مـرة أخـرى إلى المعتقـل بنفـس التهمـة الـتي اعتقـل بسـببها في السـابق.. ألا وهـي المعارضـة!

كان فسـاد الحكـم في أواخـر سـنوات حكـم فـاروق قـد أزكـم الأنـوف، ولـم يعـد الشرفـاء قادريـن عـلى احتمـال المزيـد، بالتزامـن مـع تـوالي سـقوط النظـم الملكيـة في أوروبـا، وفي ٣٠ ديسـمبر ١٩٤٧، تنـازل الملـك ميشـيل آخـر ملـوك رومانيـا عـن عرشـه وأعلـن قيـام الجمهوريـة الشـعبية الرومانيـة، ونـشرت جريـدة الأهـرام المصريـة الـتي كان أبـو الخـير نجيـب يعمـل صحفيًـا بهـا، خـبرًا بالخـط العريـض عـلى صـدر صفحتهـا الأولى قالـت فيـه «إن ميشـيل ملـك رومانيـا قـد تنـازل عـن العـرش»، فقـرر نجيـب أن يدخـل إلي عـش الدبابـير بكامـل إرادتـه، ويهاجـم فـاروق علانيـة بوجـه مكشـوف، وفي لحظـة جنـون أو تهـور كتـب أبـو الخـير نجيـب مقالـه الأسـبوعي بتاريـخ ٦ يناير ١٩٤٨ تحـت عنـوان «التيجـان الهاويـة» قـال فيـه:

«إن قصـة الملـك ميشـيل هـي قصـة كل ملـك مغامـر لا يعـرف لنفسـه حـدودًا، ولا يقنـع بالقداسـة الـتي يتمتـع بهـا عرشـه، فيـأبى إلا أن يخـوض معـارك السياسـة المحليـة، ويقحـم نفسـه فيمـا ليـس مـن اختصاصـه ولا يدخـل ضمـن سـلطاته، وبذلـك يهـوي بنفسـه إلى مسـتوى المسـئولية، ومـتى هبـط ملـك بنفسـه إلى هـذا المسـتوى فإنـه يفقـد الحصانـة ويصبـح رجـلا عاديـا يجـري عليـه مـا يجـري

على رجال السياسة ورجل الشارع سواءً بسواء، وإن ضحية اليوم ملك، ولكنها ضحية تهون عندما تكون لحساب الشعب»، وكأنما كان يوجه رسالة مباشرة إلى الملك فاروق.

وعلى الرغم من أن حديثه جاء في العموم، فإن الملك وحاشيته قد فهموا المغزى، واهتز الرأي العام وانقلب جهاز أمن الدولة الذي كان يعرف حينها بالقلم السياسي رأسًا على عقب، وفي الساعة الرابعة والنصف صباحا وقبل أن يأوي نجيب إلى فراشه، دقت علي الباب أيادٍ قوية، وعندما فتح الباب اندفع منه ساعيان من الجريدة في فزع قائلين: إن مئات من رجال البوليس أغاروا على الجريدة وعلى المطبعة والمخزن، يجمعون الأعداد وينتشرون في الشوارع والميادين يختطفونها من أيدي الناس، وطلب الساعيان من أبو الخير التوجه صباحًا إلى محكمة مصر لحضور جلسة استثنائية طلبتها النيابة للحصول على حكم بتثبيت المصادرة.

وفي المحكمة فوجئ أبو الخير بعدد من المحامين والصحفيين، وفي تمام الثامنة، عقدت المحكمة جلستها وطالب رئيس النيابة بتثبيت المصادرة، وبعد المرافعة المستفيضة للدفاع حكمت المحكمة بإلغاء قرار النيابة والإفراج عن الجريدة، وعلم الملك فاروق بالحكم، فثار واستدعى حاشيته، ووصف ما حدث بأنه تواطؤ من حزب الوفد والبوليس السياسي والنيابة العامة والقضاة، وكان عليهم أن يتصرفوا بمنتهى الحزم، فأعيد القبض على أبو الخير مرة أخرى وقدموه للتحقيق في جلسة سرية، وأصدرت النيابة تلك المرة أمرًا بإبقاء أبو الخير في الحبس، فاتصل رئيس محكمة الاستئناف برئيس محكمة النقض الذي أبلغ الأمر لوزير العدل، وطلب منه التدخل لإيقاف عدوان النيابة على القضاة، وإذا ما كانت النيابة تريد التحقيق مع أبو الخير في تهمة أخرى فهذا عملها ولكن لابد من الإفراج عنه

أولا، فاتصل وزير الحقانية (العدل) بالنائب العام الذي قال إن هذه أوامر القصر ولا نستطيع إلا تنفيذها، فوضع الوزير سماعة التليفون ثم طلب النقراشي باشا رئيس الوزراء وقال له: أرجوك يا باشا قبول استقالتي لأنني لا أسمح بالعدوان على القضاء، فحاول النقراشي تهدئة الوزير الذي غادر مكتبه إلى منزله ليعتكف فيه إلى أن تنتهي الأزمة وإلا فسوف يعتبر نفسه مستقيلا، واتصل النقراشي باشا بإبراهيم عبدالهادي رئيس ديوان الملك الذي أكد له أن الملك مصمم على إبقاء أبو الخير في السجن، فشرح النقراشي الموقف لعبدالهادي وهدد باستقالته مع الوزارة إن لم يتم الإفراج عن أبو الخير نجيب، فطلب رئيس الديوان إمهاله يومين فقط يحاول فيهما إقناع الملك بترك الأمر للقضاء.

وعاد أبو الخير إلى السجن وفيه أفلح في الحصول على كعب قلم رصاص وورقتين وكتب مقالا ملتهبًا، واستطاع تهريب المقال إلى جريدة النداء، ونشر المقال في نفس المكان في العدد الأسبوعي الذي اعتاد النشر فيه، وأثار عاصفة هوجاء اضطر فاروق بعدها للتراجع، ثم استدعى النائب العام أبو الخير من السجن وعندما دخل مكتبه وجد فيه فكري أباظة نقيب الصحفيين وياسين سراج الدين صاحب الجريدة، وفي حضورهما قال النائب العام لأبو الخير: «مبروك لقد قررنا الإفراج عنك بلا ضمان بشرط أن تعدني وعد شرف بوقف نشر مقالات فيها هذه الحدة»، فكان رد أبو الخير على النائب العام: «أنا لا أقبل المساومة على حريتي»، ليقوم بعد ذلك بإصدار جريدة «الجمهور المصري» في العام ١٩٥١ ويرأس تحريرها.

في نهاية عام ١٩٤٨، احتدم الصراع بين الدولة وبين جماعة الإخوان المسلمين، وفي صباح الثلاثاء ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ اغتيل رئيس الوزراء محمود النقراشي على يد عبدالمجيد أحمد حسن من إخوان النظام الخاص، واشترك الملك فاروق في تشييع

جنـازة النقـراشي، وشـيع أنصـار الحكومـة جثمـان رئيـس وزرائهـم هاتفـين في صراحـة «المـوت لحسـن البنـا»، ثـم قصـد فـاروق مـنزل النقـراشي بمـصر الجديـدة ليعـزي أسرتـه، وعـاد إلى قـصر عابديـن ليجتمـع بإبراهيـم عبدالهـادي رئيـس الديـوان الملـكي ليقـرر تعيينـه رئيسًـا للـوزراء خلفًـا للنقـراشي، وتتشـكل الـوزارة في سـاعة متأخـرة مـن الليـل في نفـس يـوم وفـاة النقـراشي، وفي السـاعة الثامنـة مـن مسـاء السـبت ١٢ فبرايـر ١٩٤٩ أطلـق مجهولـون النـار عـلى حسـن البنـا أثنـاء خروجـه مـن بـاب جمعيـة الشـبان المسـلمين بشـارع رمسـيس مـن سـيارة فـورد ليموزيـن تحمـل رقـم ٩٩٧٩ فـأردوه قتيـلًا عـلى الفـور، وتبـين فيمـا بعـد أن السـيارة تابعـة لـوزارة الداخليـة، ومـرة أخـرى يكتـب أبـو الخـير نجيـب مقـالًا في رثـاء البنـا تحـت عنـوان «الإمـام الشـهيد الرجـل الـذي فتـح الطريـق أمـام القافلـة»، ويصفـه بالصلابـة والحكمـة مكتسـبًا عـداء القـصر والملـك.

أتى إبراهيـم عبدالهـادي خلفًـا للنقـراشي ليديـر ماكينـة العنـف الرسـمي ضـد الإخـوان إلى أقـصى مداهـا، هـؤلاء الذيـن باركـوا دورانهـا ضـد خصومهـم مـن الوفديـين والتقدميـين والشـيوعيين في السـابق، فـإذا بغـول الديكتاتوريـة يبتلعهـم أيضًـا، والمعتقـلات الـتي افتتحـت في ظـل مباركـة الإخـوان وتهليلهـم في ١٥ مايـو ١٩٤٨ بمناسـبة حـرب فلسـطين والـتي اسـتقبلت خصومهـم السياسـيين، أخـذت تتوسـع كي تسـتقبل الألـوف مـن أعضـاء الإخـوان فتشـمل ٤٠٠٠ معتقـل، وتعـرض بعـض المعتقلـين لأقـصى درجـات التعذيـب الوحـشي الـذي لـم تعـرف لـه مـصر مثيـلًا مـن قبـل، وكانـت السـتة أشـهر التاليـة لتـولي إبراهيـم عبدالهـادي الحكـم صـورة راسـخة في أذهـان المصريـين جميعًـا للسـلطة الرسـمية الغاشـمة، وراحـت المظاهـرات تخـرج ضـد انتهـاكات السـلطة والحكومـة مرددة الهتـاف الشـهير «عبدالهـادي كلـب الـوادي».

أثنـاء محاكمـات الإخـوان، ثارت شـائعة «العسـكري الأسـود» بادعاء

عبدالفتاح ثروت أحد المتهمين الإخوان في «قضية الأوكار» أمام النيابة قائلًا: «طالبوني في البوليس السياسي بالاعتراف وهددوني إن لم أفعل أن يعتدوا علي اعتداءً منكرًا.. وفعلًا تقدم واحد يريد الاعتداء علي.. فقلت له: أنا أعرف أنني لا أستطيع مقاومتك، وأنت يمكنك أن تفعل معي هذه الجريمة، ويمكنك أن تنجو من عقاب القانون.. ولكني أريد أن أقول لك قبل أن تبدأ.. إن الله لن يترك هذه الجريمة بلا حساب»، ولأن الرأي العام في ذلك الوقت كان ضد جماعة الإخوان المسلمين على طوال الخط، وكل صوت وكل قلم كان ينادي باحترام الإنسانية والآدمية كان يتم قصفه على الفور، فلم يؤخذ هذا الادعاء بمحمل الجد وتم تجاهله. لاحقًا عندما أصدر أبو الخير نجيب مجلة «الجمهور المصري» ورأس تحريرها لتكون صوتًا من أصوات المعارضة ضد النظام الملكي، أعاد فتح ملف الانتهاكات الجنسية في السجون المصرية، تلك التي عرفت بقضية «العسكري الأسود»، وتبني التحقيق في القضية الصحفيان إبراهيم البعثي وسعد زغلول فؤاد ولم يسفر التحقيق عن شيء.

في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قام الضباط الأحرار بانقلابهم العسكري على النظام الملكي، وقاموا بإجبار الملك فاروق على التنازل عن العرش لولي عهده الملك أحمد فؤاد الثاني والرحيل خارج البلاد، وأيدهم الشعب في انقلابهم ومنهم أبو الخير نجيب الذي توسم فيهم خيرًا، وخرجت الجماهير تهلل للانقلاب الذي أطلق عليه لاحقًا لفظ «الحركة»، ثم ألحقت فيما بعد بصفة «المباركة»، وصار الانقلاب يعرف بـ «حركة الجيش المباركة»، ولاحقًا عرف بـ «ثورة ١٩٥٢»، وأعلن العسكر عن فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات لإعادة الحياة الطبيعية حتى يتسنى لهم القضاء على الفساد الذي كان قد استشرى في البلاد وحتى يمكن إعداد البلاد لحكم ديمقراطي سليم، وقاموا بالعديد من

التجاوزات على الدستور والحريات، تقبلها الشعب على مضض، وعلى رأسها قرار غاشم بإقامة محكمة ثورية لا يجوز استئناف أحكامها أو الطعن فيها وتنفذ أحكامها في موعد أقصاه ٧٢ ساعة من وقت صدورها.

وحكم مجلس قيادة الثورة بالإعدام على مصطفى خميس ومحمد البقري في أحداث كفر الدوار، إلى جانب عشرات الأحكام بالسجن الجائر، وانتشر العسكر في جميع المناصب الإدارية، وسرق بعضهم فلوس معونة الشتاء، وسرقوا هدايا وبضائع قطارات الرحمة وباعوها علنًا، وسرقوا فلوس التبرعات الخاصة بالشئون الاجتماعية وسرقوا تحف ومجوهرات وبعص أثاث القصور الملكية، بل إن شقيق صلاح وجمال سالم قد طبع اسمه على بطاقة شخصية، وكتب تحتها «شقيق جمال سالم وصلاح سالم» ليسهل بها أموره ويكسب من ورائها الكثير.

وهنا تحول أبو الخير نجيب من مؤيد للثورة إلى معارض شرس لها وللعسكر، ولم تتوقف مقالات أبو الخير عن إبداء الرأي ونقد ضباط الثورة، وكتب مقاله الشهير «طردنا ملكا واستبدلناه بعشرة ملوك»، وطالب بسرعة رفع الأحكام العرفية التي كانت ثورة يوليو قد فرضتها، واحترام حرية الصحافة وسيادة القانون والإسراع في العودة إلى الحياة الطبيعية، وعندما حدثت أزمة مارس الشهيرة بين محمد نجيب رئيس الجمهورية وجمال عبدالناصر، انضم أبو الخير إلى جانب اللواء محمد نجيب الذي طالب الضباط بالعودة إلى ثكناتهم وترك الحكم للشعب، وهنا تحول أبو الخير نجيب الذي كانت كلماته عذبة على صدور عسكر يوليو وقتما كان يعارض الملك فاروق إلى «عميل» و«خائن» للبلاد عندما عارضهم.

انهالت الصحف القومية المؤيدة على نجيب بالتشنيع والتجريح، وادعوا أنه ابن المحتال الشهير حافظ نجيب الملقب

بـ «نابغة المحتالين»، وتارة أخرى ادعوا انتماءه لجماعة الإخوان المسلمين، لأنه قد كتب في السابق مقالًا في مديح حسن البنا بعد مقتله، متجاهلين أن عبدالناصر نفسه كان عضوًا سابقًا في الجماعة واسمه الحركي «زغلول عبدالقادر»، ثم أشاعوا على أبو الخير نجيب أن اسمه قد ورد ضمن كشوف الصحفيين الذين حصلوا على مصاريف سرية في عهد الملك فاروق، وبالرغم من عدم منطقية الاتهام لتاريخ أبو الخير المعروف في معارضة فاروق علانية، فقد صدقه المواطنون وعوام الشعب، وقدم أبو الخير لمحاكمة عسكرية، لقبت بـ «محكمة الثورة» لإعطائها نوعًا من أنواع الشرعية، وحوكم نجيب بتهمة فضفاضة سميت «إفساد الحياة السياسية»، ثم بالخيانة، مدعين أنه في غضون سنة ١٩٥٣ اتصل بجهات أجنبية تعمل ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم في البلاد بقصد معاونتها على تحقيق أهدافها، وفي غضون سنة ١٩٥٣ و١٩٥٤ عمد إلى الاتصال بطوائف العمال والطلبة وتحريضهم على التمرد والعصيان وامتهن الصحافة، ولا يلتزم دستورها وأهدافها القومية، ودافع عنه المحامي الشهير عبدالرحيم نافع، وفند أدلة الاتهام وقال «إن مثل أبو الخير لا يمكن اتهامه بالخيانة».

وفي منتصف المحاكمة رفعت الجلسة للاستراحة، وجاء ضابط صعد بأبو الخير إلى الدور الثاني من مبنى مجلس الثورة بالجزيرة الذي كانت فيه المحكمة، وقدمه لجمال عبدالناصر الذي رحب به وأجلسه إلى جانبه، وسأله عن سبب عدم تأييده للثورة بالرغم من إعجاب الثوار بما يكتبه، وأشاد بكتاباته وتاريخه وأعلن استعداد الثورة لتشييد دار صحفية كبرى له، فأجاب أبو الخير قائلًا إنه يحترم العرض ويقدم الشكر عليه، ولكنه يعرف قراءه وما يريدونه منه، فضلا عن أنه لم يتعود الكتابة دفاعا عن أحد غير الشعب، وإذا ما أحس الشعب منه

التقصير فسوف يخسره وعندها لن تكون له قيمة ولا يستطيع أن ينفع أحدا، سكت عبدالناصر برهة ثم صرف أبو الخير ليباشر جلسة محاكمته، في نهاية الجلسة حكمت محكمة الثورة العسكرية على أربعة من الصحفيين منهم أبو الخير نجيب صاحب جريدة «الجمهور المصري»، ومحمود أبو الفتح صاحب جريدة «المصري» بالسجن المؤبد ٢٥ عامًا، وبمصادرة صحفهم وإلغاء تراخيصها وإغلاق مقارها.

أمضى أبو الخير نجيب ١٩ عامًا في السجن، خرج بعدها بإفراج صحي بأمر من السادات معدمًا فقيرًا لا يملك شيئًا من حطام الدنيا، وفي ٧ ابريل ١٩٨٣، دخل نجيب إلى مبنى نقابة الصحفيين التي كانت قد بدأت في توزيع المواد الغذائية بالبطاقات داخل مقر النقابة حفاظًا على ما تبقى من كرامة الصحفيين وتجنيبهم الوقوف في الطوابير، واقتطعت النقابة جزءا من حديقتها حولته إلى حانوت لبيع السكر والأرز والصابون واللحم والفراخ المجمدة، وجاء أبو الخير واشترى كيسًا من لحم الجمعية الاستهلاكية، وعند خروجه من باب النقابة وعبوره الشارع، صدمته سيارة نقل عام مسرعة طوحت به في الهواء، وألقته على الطريق مضرجا بالدماء ليلقى مصرعه على الفور، وفي عام ١٩٨٦ أنتج الفيلم العربي السياسي «الهروب من الخانكة»، وقيل إن دور «عم صادق الصحفي» الذي لعبه الفنان الشهير فريد شوقي مقتبس من حياة أبو الخير نجيب.

سيناريو فيلم سياسي
الجزء الأول

هـذا السـيناريو سـاخر، هـزلي، يصنـف ككوميديـا سـوداء، غـير حقيقـي، وغـير موضوعـي، غـير محايـد، والأحـداث الـواردة بـه خياليـة، ولا تمـت للواقـع بصلـة، وأي تشـابه بينـه وبـين الواقـع فهـو أغـرب مـن الخيـال.

مشهد (١)

نهـار داخـلي - بيـت الريـس عبدالواحـد الجنايـني في عزبـة أفندينـا - الأعـوام الأخـيرة قبـل انقـلاب ٢٣ يوليـو ١٩٥٢ العسـكري

يتحـدث عـليٌّ الابـن الأكـبر مـع أبيـه وأمـه وأخيـه حسـين عـن أملـه في الالتحـاق بمدرسـة الحربيـة، وعـن اسـتحالة تحقيـق هـذا الحلـم، لأن المدرسـة الحربيـة تقتـصر عـلى أولاد الباشـوات ولا يمكـن لابـن جنايـنى فقـير أن يلتحـق بهـا بـدون واسـطة كبـيرة.

عـلي: الحكايـة إن أهـم حاجـة هـي الواسـطة.. الحربيـة بيقـدم فيهـا كل سـنة زيـادة عـن ألـف، مبياخـدوش منهـم غـير تلاتـين أو أربعـين.

الأم: ياخويا يمكن تكون منهم.

علي: مستحيل.

الريس عبدالواحد: ليه بس يا ابني؟

علي: لأني معنديش واسطة..

الأم: يا ابني واسطتك ربنا.

حسـين: هـو هايخـش الجنـة؟ ديـه المدرسـة الحربيـة.. إن مكانـش

فيه واحد كبير يسنده مينفعش.

الريس عبدالواحد (بتفاؤل كاذب): واحد كبير؟ هو فيه أكبر من أفندينا؟ ناخد منه كارت وتبقى المسألة قضيت.

حسين: بس ياما.. وادى كمان ظابط.. بكره نجيلك بالمدفع ونهد بيت العمدة.. ها نخربها ونقعد على تلها.

علي: هو ده معقول؟ وأفندينا يرضى؟ يابا ده إحنا في نظره عبيد، وفر على نفسك البهدلة، ومتذلش روحك عشان أمل يستحيل يتحقق إلا بمعجزة.

الريس عبدالواحد: يا علي يا ابني.. ربنا بيقول اسعى يا عبد وأنا اسعى معاك، هايخس علينا إيه.. نجرب.

***

نهار خارجي - حديقة عزبة أفندينا

الريس عبدالواحد يحاول إقناع إبراهيم أفندي باشكاتب العزبة أن يتوسط بالنيابة عنه لدى سمو الأمير حتى يتوسط بدوره لإلحاق ابنه علي بمدرسة الحربية.

الريس عبدالواحد: أنا قلت مفيش غير إبراهيم أفندي حضرة الباشكاتب هو اللي يقدر يكلم سمو الأمير.

إبراهيم أفندي: ده كان يطين عيشتي.. المدرسة الحربية مش لينا ولا لولادنا يا ريس عبدالواحد.. دخول الجنة أسهل.. هو معقول إن أفندينا يترجى حد عشان ابنك؟

مشهد من فيلم رد قلبي إنتاج عام ١٩٥٧

مشهد (٢)

عام ٢٠٠٢

يتخرج الشاب «عبدالحميد شتا» من كلية السياسة والاقتصاد جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف..

«شتا» شاب بسيط من إحدى الأسر البسيطة من قرية ميت الفرماوي مركز ميت غمر محافظة المنصورة، والده يعمل مزارعًا ولا يملك من حطام الدنيا شيئًا سوى تعليم ابنه الذي كان نابغًا في دراسته، فتخرج في كلية السياسة والاقتصاد وبدأ في تحضير رسالة الماجستير عن «إصلاح المحكمة الدستورية في مصر»، وبات يحلم بالمستقبل الباهر الذي ينتظره عقب الالتحاق بالسلك الدبلوماسي، وبالفعل تقدم الشاب إلى اختبارات جهاز التمثيل التجاري للحصول على وظيفة ملحق تجاري، واجتاز كل الاختبارات الشفوي والتحريري بنجاح، وكان ترتيبه المبدئي في تلك الاختبارات الأول على ٤٣ شابًا وصلوا إلى التصفيات النهائية، وذهب لمقر وزارة الخارجية ليعرف نتيجته، لكنه لم يحصل على الوظيفة حيث كتب أمام اسمه «غير لائق اجتماعيًا».

كان عدد الناجحين للوظيفة ٤٢ من أصل ٤٣، وعبدالحميد شتا هو الوحيد الذي أخفق لأن والده فلاح!

عندما تأكد «شتا» من استبعاده وقرأ أسماء زملائه الـ ٤٢ فيما عدا اسمه، أظلمت الدنيا في وجهه ولم يستطع تحمل الصدمة، فأجرى مكالمة أخيرة مع زوجة أخيه أوصى خلالها الأسرة على شقيقه الأصغر الذي يدرس الطب، ثم أغلق هاتفه المحمول، واتجه مباشرة إلى كوبري أكتوبر العابر لنهر النيل، وألقى بنفسه وسط ذهول المارة، واختفت جثته تحت مياه النيل كأنها تتوارى

عـن أعـين النـاس والحيـاة إلى أن ظهـرت في اليـوم التـالي عنـد القناطر الخيريـة عـلى بعـد حـوالي عشريـن كـم شـمال القاهـرة.

حدث بالفعل

مشهد (٣)

نهار داخلي - لجنة اختبار كشف الهيئة المختصة بكلية الشرطة

طـه الشـاذلي يقـف منتصبًـا أمـام لجنـة كشـف الهيئـة المختصـة بتحديـد مسـتوى المتقـدم اجتماعيـا لوظيفـة ضابـط الشرطـة

ضابـط اللجنـة: أنـت مجموعـك كبـير قـوي يـا طـه.. ٨٩٪.. أنـت ليـه فضلـت كليـة الشرطـة عـن بقيـة كليـات القمـة؟

طه: عشان أخدم بلدي يا فندم.

ضابـط اللجنـة: طيـب مـا هـو خريـج الهندسـة برضـه ممكـن يخـدم بلـده يـا طـه.

طـه: طبعًـا يافنـدم، بـس لـو كل واحـد خـدم بلـده في المجـال الـلى بيحبـه هاتكـون خدمتـه أفضـل.

ضابـط اللجنـة: عظيـم.. طيـب تفتكـر إيـه هـي العنـاصر الـلى يجـب إنهـا تتوفـر في ظابـط الشرطـة؟

طـه: الانضبـاط.. التشـبع بـروح العـدل.. الحـزم.. الـشرف.. وأولًا وأخـيرًا انـه لازم يكـون إنسـان في كل تصرفاتـه.

تنفـرج أسـارير ضابـط اللجنـة بإجابـة طـه المثاليـة، فيعـود إلى الملـف ويقـرأ شـيئًا مـا يبـدو أنـه لـم يستسـيغه، ثـم تتغـير ملامـح وجهـه دفعـة واحـدة وينظـر إلى طـه بريبـة قائـلًا: أنـت والـدك بيشـتغل إيـه يـا طـه؟

يرتبـك طـه للحظـة قبـل أن يسـتعيد رباطـه جأشـه ويـرد بحـزم:

موظـف يـا فنـدم.

ينظـر إليـه ضابـط اللجنـة بقـدر مـن الغـرور والتعـالي والتشـفي قائـلًا: موظـف ولا.. حـارس عقـار؟

يرتبـك طـه للمـرة الثانيـة لكنـه يفشـل في اسـتعادة ثقتـه بنفسـه تلـك المـرة، وتظهـر مسـحة حـزن عميقـة في عينيـه وهـو يقـول بترجـي واسـتعطاف واضحـين: يـا فنـدم مـا هـو.. مـا هـو حـارس العقـار موظـف برضـه.

يقاطعـه الضابـط قبـل أن يكمـل جملتـه: شـكرًا يـا طه.. انـصراف.. الـلى بعده.

تمـلأ خيبـة الأمـل وجهـه طـه وهـو ينـصرف محمـلًا بالإحبـاط مـن قاعـة اللجنـة.

***

نهار داخلي - مدرج في جامعة القاهرة

أحـد الطلبـة الـذي تـشي ملابسـه البسـيطة بمسـتواه المـادي المعـدوم، يقـف ويتجـه إلى طـه الشـاذلي الـذي رسـب في كشـف الهيئـة في اختبـارات كليـة الشرطـة، يجلـس طـه في الصـف الأخـير مـن المـدرج وحيـدًا منزويًـا، مرتديًـا حلـة كاملـة لا تتناسـب مـع طبيعـة المـكان، ظنًـا منـه أنـه بذلـك يمكـن أن يخفـي حقيقـة مسـتواه المادي والاجتماعـي، إلا أن البدلـة كانـت تفضـح فقـره أكـثر ممـا تسـتره.

الطالب الفقير (بلهجة صعيدية): أنت قاعد بعيد كده ليه؟

طـه: حـالي مـن حالـك.. الفقـر بيفضحنـا.. كل واحـد يخليـه في حالـه مـن أولهـا أحسـن.

الطالـب الفقـير (سـاخرًا): لا.. أنـا عـن نفـسى كنـت قاعـد وياهـم..

بس كلامهم معجبنيش.. عشان كده بعدت نفسى..

طه: كانوا بيتكلموا في إيه الناس ديه؟

الطالب الفقير: كانوا بيتكلموا في البابا والماما، اللي يقولي أبوه وكيل وزارة، واللي مستشار، واللي مهندس، واللي أمه خبيرة في الامم المتحدة، بيني وبينك خوفت يسألوني أبوك بيشتغل إيه، عشان كده جيت قعدت وياك.. ألا أنت أبوك بيشتغل إيه؟

يتنهد طه ويزفر زفرة ألم قبل أن يبتسم بسخرية وهو يقول: حارس عقار.. بواب.. وأنت؟

الطالب الفقير: صراماطي.. عندنا محل جزم صغير.

طه: إنت عارف إنهم لو كانوا يعرفوا إن مكتب التنسيق هايلم ابن البواب وابن الصرماطي مع ولاد الأمم المتحدة؟ كانوا نسفوا مكتب التنسيق ده.. (يضحك الاثنان بألم واضح).. والله الواحد ما عارف ها يكمل مع الناس ديه إزاي؟

يربت الطالب الفقير على يديه محاولًا طمأنته قائلًا: سيبك أنت.. برضه ها نلاقي اللي زيينا.

مشهد من فيلم عمارة يعقوبيان إنتاج عام ٢٠٠٦

مشهد (٤)

نهار خارجي - خطبة يلقيها رئيس الجمهورية المنتخب «سعيد ظاظا» على جماهير الشعب

«المساواة.. المساواة.. من النهاردة مفيش استثناء.. مش ابن الظابط يبقى ظابط وابن القاضي يبقى قاضي وولاد الفقرا للبطالة وللتصدير.. لا خلاااص.. من النهاردة مفيش محسوبية..».

مشهد من فيلم ظاظا إنتاج عام ٢٠٠٦

مشهد (٥)

ليل داخلي - نادي القضاة بالمنوفية - مارس ٢٠١٢

المستشـار أحمـد الزنـد رئيـس نـادي قضـاة مـصر في لقائـه قضـاة المنوفيـة

الزنـد: مـن يهاجـم أبنـاء القضـاة هـم الحاقـدون والكارهـون ممـن يرفـض تعيينهـم، وسـيخيب آمالهـم، وسـيظل تعيـين أبنـاء القضـاة سـنة بسـنة ولـن تكـون قـوة في مـصر تسـتطيع أن توقـف هـذا الزحف المقـدس إلى قضائهـا.

حدث بالفعل

مشهد (٦)

ليل داخلي - الأحد ١١ مايو ٢٠١٥

حـوار المستشـار محفـوظ صابـر وزيـر العـدل مـع المذيـع رامـي رضـوان ببرنامـج «البيـت بيتـك»، المـذاع عـلى قنـاة «TEN»

المذيع: لو ابن عامل نظافة ممكن يتعين؟

وزيـر العـدل: يعـني ديـه برضـه يعـني أنتـاااا.. حضرتـك بتقـول كلمـة يعـني.. (مبتسـمًا) يعـني مـش قـوي كـده..

المذيع: لأن ديه كانت إحدى القضايا المثارة.

وزيـر العـدل: برضـه هـو يعـني طبعًـا عمـل القـاضي مفـروض برضـه يكـون مـن وسـط مناسـب لهـذا العمـل، مـع احترامنـا لعامـل النظافـة، ولمـن هـو أقـل منـه، أو أكـثر منـه، فـضروري يبقى الوسـط البيـئي الـلي بينشـأ فيـه القـاضي ضروري يكـون مناسـب، مقولتلكـش فـوق قـوي، وميبقـاش برضـه تحـت قـوي، فيبقـى ضروري يبقـى

فيه وسط مناسب، وكتر خير عامل النظافة انه ربى ابنه وخلاه يحصل على شهادة، كتر خيره كتر خيره، لكن ده لو عمل بالقضا هاتبص تلاقيه حصله حاجات كتيره.. اكتئاب نفسي ووي وي وي، يعني مش ها يستمر، وأنا بقولك الكلام ده.

المذيع: ده عن تجارب سابقة يافندم؟ ولا من دراسة الحالات؟

وزير العدل: أيوه أيوه أيوه أيوه.. وبعدين برضه القاضي له... يعني مع احترامي لكل عامة الشعب، القاضي له شموخه ووضعه، وضروري يبقى مستند لوسط بقولك وسط محترم.. محترم ماديًا ومعنويًا والكلام ده.

المذيع: طيب معلش معالي الوزير اسمحلي بس أطرح النقاش اللي كان مطروح فيه لما أثيرت هذه القضية.. اتقال انه طيب يعني ده تميز، واتقال من البعض الآخر انه يعني احنا كده بنعاقب الابن على حاجة هو ما ارتكبهاش.. ذنبه هو انه اسرته بسيطة؟

وزير العدل: معلش ها يروح برضه في وظيفة أخرى مناسبة.. انا مبقولش بنسحبه من العمل، لكن ها يروح في وظيفة مناسبة، ضروري القاضي يبقى وسطه برضه إلى حد ما معقول شوية.

حدث بالفعل

مشهد (٧)

مادة ٢١ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

«لكل شخص، بالتساوي مع الآخرين، حق تقلد الوظائف العامة في بلده».

مشهد (٨)

مـادة ٥٣ مـن دسـتور جمهوريـة مـصر العربيـة الـذي وافـق عليـه الشـعب في ينايـر ٢٠١٤ بنسـبة ٩٨،١٪

- المواطنـون لـدى القانـون سـواء، وهـم متسـاوون في الحقـوق والحريـات والواجبـات العامـة، لا تميـيز بينهـم بسـبب الديـن، أو العقيـدة، أو الجنـس، أو الأصـل، أو العـرق، أو اللـون، أو اللغـة، أو الإعاقـة، أو المسـتوى الاجتماعـي، أو الانتمـاء السـياسي أو الجغـرافي، أو لأى سـبب آخـر.

- التمييز والحض على الكراهية جريمة، يعاقب عليها القانون.

- تلـتزم الدولـة باتخـاذ التدابـير اللازمـة للقضـاء عـلى كافـة أشـكال التميـيز، وينظـم القانـون إنشـاء مفوضيـة مسـتقلة لهـذا الغـرض.

ثـم تهبـط كلمـة «النهايـة» متبوعـة بالمقولـة الأشـهر للفيلسـوف الإسـباني جـورج سـانتيانا «الذيـن لا يقـرأون التاريـخ محكـوم عليهـم أن يكـرروه».

سيناريو فيلم سياسي
الجزء الثاني

هـذا السـيناريو سـاخر، هـزلي، يصنـف ككوميديـا سـوداء، غـير حقيقـي، وغـير موضوعـي، غـير محايـد، والأحـداث الـواردة بـه خياليـة، ولا تمـت للواقـع بصلـة، وأي تشـابه بينـه وبـين الواقـع فهـو أغـرب مـن الخيـال.

مشهد (١)

الزمان: منتصف خمسينيات القرن العشرين

المـكان: مدينـة نيـو أورليـنز - ولايـة لويزيانـا - الولايـات المتحـدة الأمريكيـة

في نهايـة الخمسـينيات مـن القـرن العشريـن كانـت العنصريـة البغيضـة ضـد الملونـين والسـود في أمريـكا عـلى أشـدها..

في ظـل تلـك الأجـواء الملبـدة بالغيـوم، ولـدت الطفلـة «روبي بريدجـز» في مدينـة تيلـر بولايـة مسيسـيبي، وفي سـن الرابعـة انتقلـت مـع والديهـا إلى مدينـة نيـو أورليـنز بولايـة لويزيانـا، وعندمـا بلغـت سـن السادسـة وحـان وقـت إلحاقهـا بالمدرسـة، تلقـى والدهـا طلبًـا مـن الجمعيـة الوطنيـة لتقـدم الملونـين NATIONAL ASSOCIATION FOR THE ADVANCEMENT OF COLORED PEOPLE -NAACP للمشـاركة في إدمـاج طفلتـه في نظـام المـدارس بنيـو أورليـنز، وبالرغـم مـن تـردده في البدايـة فـإن والدهـا الشـجاع اسـتجاب للطلـب، ربمـا تأثـرًا بشـجاعة «روزا باركـس» المناضلـة السـوداء الـتي رفضـت أن تـترك

مقعدها في الحافلة ليجلس عليها أحد البيض في ديسمبر ١٩٥٥، وتم اعتقالها بعد ذلك.

اجتازت بريدجز كل الاختبارات المطلوبة بنجاح، وحكمت المحكمة أن يكون ١٤ نوفمبر ١٩٦٠ هو أول الأيام لإلحاق روبي بمدرسة William Frantz Elementary School للملونين.

أثار قرار المحكمة بتنفيذ القانون وإلحاق روبي بالمدرسة ثائرة سكان المدينة البيض، الذين اعتبروها إهانة لا توصف أن يتم إلحاق طفلة سوداء بمدرسة للبيض، وقاموا بمظاهرات يومية عارمة خارج المدرسة، وكانوا يلقون بالبيض وقطع الزجاج لدى دخولها أو خروجها من المدرسة، أثار هذا الأمر ردود فعل غاضبة من قبل جميع أولياء أمور الطلبة الذين كانوا يدرسون في هذه المدرسة وأصروا على سحب أطفالهم من المدرسة، ورفضت السلطات المحلية تقديم الحماية للصبية أثناء توجهها للدراسة، لكن سيادة القانون كانت فوق كل شيء، فكلف الرئيس ايزنهاور بنفسه ماريشالات فيدرالية لمرافقتها وحمايتها خشية من وقوع اعتداءات عليها من المحتجين البيض في الطريق إلى المدرسة.

في اليوم الأول للدراسة، أمضت روبي اليوم بأكمله مع مرافقيها من الماريشلات في مكتب مدير المدرسة بسبب الفوضى التي حالت دون انتقالها إلى فصلها، وفي اليوم التالي، كسر الوزير «لويد أندرسون فورمان» المقاطعة مع ابنته «بام» ذات الخمس سنوات قائلًا: «أنا ببساطة يشرفني إلحاق ابنتي بالمدرسة»، ولاحقًا بدأت المقاطعة تهدأ نسبيًا وأعاد أولياء الأمور أبناءهم إلى المدرسة، مع استمرار رفض المدرسين التدريس لـ روبي، باستثناء المعلمة Barbara Henry التي أنشأت لها فصلًا خاصًا وتكفلت بتدريسها بمفردها لمدة عام كامل.

وبالرغم من تلك المرأة التي ظلت تهدد روبي يوميًا بوضع

السم في طعامها، والمرأة الأخرى التي وضعت دمية طفل أسود في تابوت خشبي لبث الرعب في قلبها، فإن روبي ظلت صامدة، وتطوع طبيب الأطفال النفسي د.روبرت كولز بتقديم المشورة النفسية إلى روبي خلال العام الأول لها في المدرسة، كما عانت عائلتها الكثير من قرار إلحاقها بمدرسة للبيض، وفقد والدها عمله كعقاب له، ورفض المتجر الذي اعتادت الأسرة التبضع منهم أن يبيعهم الطعام، وفقد جدها أرضه التي كان يعمل بها بنظام المزارعة، لكن بالرغم من كل ذلك ظلوا صامدين، وقال المارشال الفيدرالي السابق تشارلز بوركس الذي كان مسئولًا عن حمايتها لاحقًا: «لقد أظهرت روبي الكثير من الشجاعة، لم تبك قط، ولم تتذمر، فقط سارت بطول الطريق وكأنها جندي صغير، وقد كنا جميعًا فخورين بها».. ظلت روبي صامدة حتى النهاية، وفي النهاية استسلمت العنصرية البغيضة في أمريكا لقوة القانون الذي رفض أن ينحني أمام الغوغائية والهمجية، لم تستسلم روبي ولم يستسلم القانون.

في ٨ يناير ٢٠٠١، تم منح روبي بريدجز ميدالية المواطنة الرئاسية Presidential Citizens Medal من قبل الرئيس بيل كلينتون، وفي نوفمبر ٢٠٠٦ تم تكريمها في حفل رابطة مكافحة التشهير ضد الكراهية، وفي ١٥ يوليو ٢٠١١، التقت روبي مع الرئيس باراك أوباما في البيت الأبيض، وفي ١٩ مايو ٢٠١٢، تلقت روبي بريدجز درجة فخرية من جامعة تولين في حفل التخرج السنوي، وفي عام ٢٠١٤ تم الكشف عن تمثال لـ روبي في ساحة مدرسة وليام فرانتز الابتدائية، وقد خلد أول يوم لها في المدرسة في لوحة زيتية من رسم Norman Rockwell تحت عنوان The Problem We All Live With.

حدث بالفعل

مشهد (٢)

الزمـان: ١٤ أبريـل ٢٠١١ مـن القـرن الحـادى والعشريـن.. بعـد سـتين عامًـا تقريبًـا مـن انتصـار روبي بريدجـز عـلى العنصريـة، وبعـد شـهرين مـن عـزل الرئيـس حسـني مبـارك

المكان: جمهورية مصر العربية - محافظة قنا

في ١٤ أبريـل ٢٠١١، أصـدر د. عصـام شرف رئيـس الـوزراء قـرارًا بتعيـين ١٩ محافظًـا جديـدًا، كان مـن ضمنهـم اللـواء القبطـي عمـاد شـحاتة ميخائيـل محافظًـا لقنـا، أثـار هـذا القـرار حفيظـة المتشـددين والسـلفيين، وشـهدت محافظـة قنـا مظاهـرات عارمـة مـن قبـل مسـلمي المحافظـة الذيـن اعتصمـوا أمـام ديـوان عـام المحافظـة احتجاجًـا، وطلـب المعتصمـون صراحـةً بـأن يكـون المحافـظ مُسـلمًا، ورددوا هتافـات عنصريـة ضـد تعيينـه قائلـين: «ميخائيـل إيـه ميخائيـل إيـه»، «ارحـل ارحـل يـا ميخائيـل»، «ليـه عايزينهـا تحصـل فتنـة مسـلم بـس الـلي هـا يحكمنـا»، «لا إلـه إلا الله ميخائيـل عـدو الله»، «عـلي عـلي الصـوت الإسـلام مـش هايمـوت.. قنـا إسـلامية إسـلامية»، «بالطـول بالعـرض هـا نجيـب ميخائيـل الأرض» كمـا قطعـوا طريـق قنـا - القاهـرة السريـع، ووضعـوا متاريـس خشـبية وإطـارات السـيارات عـلى مزلقـان سـيدي عبدالرحيـم لمنـع القطـارات مـن التحـرك وتسـببوا في قطـع الطـرق الـبري تمامًـا بـين شـمال وجنـوب قنـا، كمـا هـددوا بتصعيـد تحركهـم بقطـع الميـاه عـن محافظـة البحـر الأحمـر وقطـع الكهربـاء عـن المصانـع الحيويـة والرئيسـية بالمحافظـة في ظـل تـراخٍ تـام مـن الأمـن والقـوات المسـلحة لفـض تلـك البلطجـة، ثـم قـام السـلفيون

وأعضاء الجماعات الجهادية بتجميع التوقيعات لتنصيب أحد شيوخهم أميرًا على المحافظة ويدعى قرشي سلامة، وجهزوا كفنًا للمحافظ القبطي بميدان المحطة وأقسموا على قتله، كما تم رفع أعلام السعودية والمناداة بإمارة إسلامية.

وفي محاولات هزلية لحل الأزمة، أرسل المجلس العسكري الصحفي مصطفى بكري مع الداعية محمد حسان والداعية صفوت حجازي للتفاوض مع المتظاهرين، ووعدهم حسان بعدم تنفيذ القرار قائلًا: «إن كل ما تريدونه سيتحقق ولن يفرض عليكم شيء لا ترضونه ولا نكرهكم على شيء ترفضونه»، وقال لهم حجازي: «لن نقبل بأن يفرض على أي مخلوق أمرًا لا يقبله».

محاولة أخيرة قام بها مجلس الوزراء لحل الأزمة عندما أرسل الدكتور أحمد عمران مستشار رئيس الوزراء، الذي حضر إلى ميدان المحافظة بقنا قائلًا إنه جاء لتوصيل رسالة من الدكتور عصام شرف بأنه «ابن لكم وأنه -أي د.عصام شرف- يطمع في كرمكم ويطالبكم بفتح السكة الحديد، وسوف يأتي لقنا لمناقشة أهلها في جميع الأمور، وإن أحدًا لا يستطيع أن يزايد على مطالبكم الشرعية»، وقابل المحتجون الرسالة برفض جماعي وطالبوه بالنزول وإقالة المحافظ الجديد اليوم قبل الغد، وأضافوا أنهم لن يغادروا المكان ولن يتفاوضوا حتى صدور القرار، فقرر د. عصام شرف تجميد نشاط محافظ قنا الجديد اللواء عماد شحاتة ميخائيل لمدة ثلاثة أشهر، وتكليف ماجد عبدالكريم سكرتير عام المحافظة بإدارة أعمال المحافظة، فاتجه المحتجون إلى ديوان عام المحافظة للاعتصام أمامه للمطالبة بإقالة المحافظ وليس تجميد نشاطه وللمطالبة بحضور د. عصام شرف، وتقديم الاعتذار لشعب قنا، وفي ١٩ ابريل ٢٠١١، تقدم اللواء عماد شحاتة ميخائيل باستقالته من منصب محافظ

قنا بالرغم من أن قدميه لم تطئا مبنى المحافظة قط.
حدث بالفعل

مشهد (٣)

الزمان: ٧ يناير ٢٠١٥

المكان: الكاتدرائية المرقسية بالعباسية

في مشهد مهيب اقشعرت له أبدان المسيحيين في مصر جميعًا، فوجئ المسيحيون برئيس الجمهورية عبدالفتاح السيسي فجأة وبدون أي إشارة مسبقة حاضرًا في وسطهم في قداس عيد الميلاد المجيد في الكاتدرائية المرقسية بالعباسية ليهنئهم بنفسه بالعيد المجيد، اعتلى سيادته المنصة واقفًا جنبًا إلى جنب بجوار البابا تواضروس ولفيف من الأساقفة والكهنة ليحيي الحضور بالعيد الذي لم يتوقف عن الهتاف لحظة صائحًا بأعلى صوته «بنحبك يا سيسي»، وتمكن الرئيس بعد جهد جهيد من أن يبدأ كلمته التي قال فيها:

«طيب أنا بس عايز أقول كلمة صغيرة ليكو يعني.. كان ضروري يعني.. كان ضروري إن أنا أجيلكوا عشان أقولكوا كل سنة وأنتم طيبين.. أنا عايز أقولكوا على حاجة.. مهم جدًا إن الدنيا تشوفنا المصريين، وأنتم بتلاحظوا إن أنا مبقولش أبدًا غير كلمة المصريين.. مينفعش حد يقول لحد غير كده.. إحنا المصريين.. محدش يقول إنت مصري إيه.. إحنا بنتكلم كلام بنسطر للعالم دلوقتي معنى، وبنفتح طاقة أمل ونور حقيقية للناس، بقول مصر علمت من آلاف السنين الحضارة والانسانية للعالم، والنهاردة إحنا موجودين عشان نأكد أن إحنا قادرين مرة تانية إن إحنا نعلم الإنسانية ونعلم الحضارة مرة تانية تنطلق من مصر

هنـا، عشـان كـده مينفعـش نقـول غـير إن إحنـا المصريـين.. لازم نبقـى المصريـين بـس.. أيـوه المصريـين».

وهنـا ضجـت الكاتدرائيـة بهتافـات «إيـد واحـدة.. إيـد واحـدة»، قاطعهـا السـيسي قائـلًا: «أيـوه إيـد واحـدة.. أنـا بـس عايـز أقولكم.. إن إحنـا.. إن شـاء الله.. هانبـني بلدنـا مـع بعـض، ونسـاع بعـض.. هانسـاع بعـض.. وهانحـب بعـض.. هانحـب بعـض كويـس.. وهانحـب بعـض بجـد.. هانحـب بعـض بجـد عشـان النـاس تشـوف.. عمومًـا أنـا عايـز أقولكـوا مـرة تانيـة عـام سـعيد عليكـو وكل سـنة وانتـم طيبـين جميعًـا». ثـم غـادر الرئيـس السـيسي قاعـة الاحتفـال وسـط تصفيـق حـاد مـن الحضـور، الذيـن هتفـوا «مسـلم مسـيحي إيـد واحـدة.. بنحبـك يـا سـيسي».

وعلقـت صحيفـة نيويـورك تايمـز عـلى زيـارة الرئيـس عبدالفتـاح السـيسي للكاتدرائيـة لتهنئـة الأقبـاط بعيـد الميـلاد المجيـد قائلـة إن الرئيـس السـيسي قوبـل بحفـاوة كبـيرة داخـل الكاتدرائيـة مـن قبـل الأقبـاط المصريـين الذيـن اعتـبروا الزيـارة حجـر زاويـة وحدثًـا هامًـا، وأوضحـت الصحيفـة أن الأقبـاط ينظـرون إلى الرئيـس السـيسي عـلى أنـه بطـل قومـي.

ووصـف الإعلامـي محمـود سـعد الزيـارة بـ «ضربـة معلـم»، وتابـع قائـلا: «مفيـش رئيـس دخـل الكاتدرائيـة في أعيـاد الميـلاد سـاعة القـداس أبـدا»، وقالـت الإعلاميـة ريهـام سـعيد مـن خـلال برنامجهـا صبايـا الخـير «أن الرئيـس جـاء مـن الكويـت إلى الكاتدرائيـة في نفـس اليـوم وهـذه لافتـة طيبـة منـه»، وأوضحـت الكاتبـة الصحفيـة فريـدة الشـوباشي أن هنـاك لحظـات مهمـة كثـيرة في حياتهـا وكان منهـا لحظـة رؤيـة الرئيـس عبدالفتـاح السـيسي يدخـل الكاتدرائيـة لتهنئـة البابـا تـواضروس والأقبـاط بعيـد الميـلاد المجيـد والمغامـرة بهـذه الزيـارة وكلمتـه، ورأت أن الزيـارة كانـت مهمـة للغايـة ومفادهـا «إحنـا شـعب واحـد»، وأشـاد الفنـان هـاني شـاكر في

مداخلة هاتفية لبرنامج «بصراحة» الذي تقدمه الإعلامية إيمان عز الدين بالزيارة، معبرا عن إعجابه بالكلمة التي ألقاها الرئيس في الكاتدرائية، واصفا إياه بـ«العظيم».

كما قال الإعلامي تامر أمين إنه لا يستطيع قول أكثر مما قيل منذ الزيارة، وتابع قائلا: «قولوا كما شئتم، ولكن أنا هقول اللي أنا شايفه من وجهة نظري أن ما فعله الرئيس بحضوره القداس واجب رئيس الجمهورية تجاه أبنائه المسيحيين من الشعب المصري»، كما أوضح الإعلامي أحمد موسى خلال برنامجه «على مسئوليتي»، إنه «لا صوت يعلو فوق صوت مفاجأة الرئيس عبدالفتاح السيسي بزيارته للكاتدرائية»، مشيرا إلى أنه لا أحد كان يتوقع أو يعلم بها، ولكنها كانت مفاجأة للجميع مسلمين ومسيحيين، واصفا ذلك بأنها «لافتة من خارج الصندوق»، ووصف الإعلامي سيد علي من خلال برنامجه «حضرة المواطن»، زيارة الرئيس للكاتدرائية بـ«الزيارة التي خطفت قلوب المصريين»، وفى نفس السياق أشاد الإعلامي عمرو أديب بزيارة الرئيس للكاتدرائية فيما عبر عن سعادته بهذه الزيارة قائلًا: «رئيس مصر في القداس هو دا المسلم الحق.. كلمتين غير بيهم التاريخ.. البلد بتتبنى وبتقف.. أخدت قلبى وعقلى يا أخي وخليتني ابقى سعيد.. يا أعداء مصر موتوا.. يا ترى المسيحيين شعورهم إيه وأنا سعيد كدا»، فيما وصف الإعلامي إبراهيم عيسى زيارة الرئيس للكاتدرائية ومشاركته الأقباط المصريين الاحتفال بعيد الميلاد المجيد «بالمشهد المجيد واليوم التاريخى بالمعنى الحقيقي».

حدث بالفعل

مشهد (٤)

الزمان: أبريل ٢٠١٥

المكان: قرية العور بمركز سمالوط محافظة المنيا

في تلك القرية الصغيرة المترامية الأطراف في صعيد مصر، حصل المسيحيون على تصريح رسمي ببناء كنيسة منذ ما يقرب من سبع سنوات، لأن كنيستهم المبنية بالطوب اللبن منذ ما يقرب من أربعين عامًا على مساحة ٦٠ مترًا قد تهدمت، وبسرعة البرق سارع السلفيون إلى بناء مسجد في الأرض المجاورة، وبالطبع تم وقف تنفيذ بناء الكنيسة الجديدة، فعاد الأقباط إلى كنيستهم القديمة لتجديدها بناء على نصيحة بعض العقلاء من المسلمين هناك، وبالفعل بدأوا أعمال التجديد وتوسعة المكان، وهنا ثارت ثائرة البعض هناك بزعامة موظف في الأوقاف صارخين «على جثتنا بناء الكنيسة»، وبدأ المتشددون من أهل القرية في الاعتداء على منازل الأقباط ونهب ممتلكاتهم وقطع الطرق وإتلاف المزروعات بالرغم من البلاغات التي تقدم بها مسيحيو القرية للأمن والتي قوبلت بالتجاهل الشديد، واعتدى المتشددون على كنيسة العذراء بقرية العور بالطوب وقنابل المولوتوف، وأسفر الاعتداء عن بعض التلفيات في الكنيسة وإحراق سيارة واحدة كانت تقف بمحيط الكنيسة، وبالرغم من ذلك أقر المحضر الرسمي فيما بعد عدم حدوث أي تلفيات، وبعد تفاقم الأزمة تم القبض على عدد من المسلمين من مثيري الشغب إضافة إلى عدد من المسيحيين من المجني عليهم، بعد تحرير المتشددين لمحاضر مضادة للأقباط.

وكحل معتاد لمثل تلك الأزمات، تم عقد جلسة عرفية برعاية مدير أمن المنيا وحضور القمص داود ناشد وكيل مطرانية سمالوط، والمهندس فرح القائم بالأعمال الإدارية بالمطرانية وممثلين عن الجانب المسلم، وبعد مفاوضات بين الجانبين في حضور الأمن وافق الطرفان على الشروط التالية:

- أن تقام الكنيسة على الموقع القديم دون أي مظاهر مسيحية، أي كنيسة بدون صلبان أو قباب أو منارة.

- أن تقام من طابق واحد ودون أساسات كما جاء بالرسم التوضيحي بالتصريح.

- لا يحق للأقباط تجديد أو ترميم الكنيسة في المستقبل.

- لا يحق للأقباط بناء الكنيسة إذا انهارت في المستقبل.

- يتنازل الأقباط عن كافة المحاضر المقدمة ضد الجانب الآخر وعن التعويضات في الخسائر التي لحقت بهم.

- يلزم الأقباط بالتوقيع على هذا المحضر، وأن يتم توثيقه بالشهر العقاري، وأن تكون وثيقة ملزمة لأقباط القرية.

وانتهت الجلسة العرفية بتقبيل اللحى، ورفع القسيس والشيخ أيديهما عاليًا وهما يتمتمان «مسلم مسيحي إيد واحدة»!

بعد الاتفاق السابق أمرت النيابة العامة بمركز سمالوط بإخلاء سبيل ٢١ مسيحيا و١٥ مسلما، في أحداث الشغب التي شهدتها قرية العور بعد تقديم محضر للصلح بين الجانبين طبقًا لما تم الاتفاق عليه في الجلسة العرفية، وقال أحد أقباط القرية: «وافقنا على التنازل عن المحاضر المقدمة والتنازل عن خسائرنا التي لحقت بنا من جراء الاعتداء الذي وقع علينا ونهب بعض الممتلكات وإتلاف المحاصيل الزراعية حتى يتسنى لنا بناء كنيستنا، وفي النهاية كل شيء فداء لكنيستنا ونحن تعبنا كثيرا من رفض المتشددين وتعرض أولادنا للخطر وحبس أولادنا

ظلمـا وعـدم تمكنهـم مـن حضـور احتفـالات العيـد معنـا فلـم يكـن أمامنـا سـوى التصالـح بعـد أن فشـل القانـون في فـرض سـيادته عـلى المتشـددين الذيـن لا نعـرف بـأي صفـة يجلسـون بدعـوة رسـمية والتفـاوض معنـا وأخـذ رأيهـم في بنـاء الكنيسـة الحاصلـة عـلى التصريـح الرسـمي، ولكـن لـم يكـن أمامنـا طريـق آخـر سـوى الموافقـة حـتى نـرى كنيسـتنا تبـنى ونصـلي فيهـا».

وكـرد فعـل معتـاد ومتكـرر أصـدرت مطرانيـة سـمالوط للأقبـاط الأرثوذكـس بالمنيـا، بيانـا بشـأن أزمـة الكنيسـة، أكـدت فيـه الالـتزام بتنفيـذ القانـون بعيـدًا عـن الجلسـات العرفيـة، وذلـك بعـد بـوادر فتنـة طائفيـة حـاول مغرضـون افتعالهـا بـين مسـلمي ومسـيحيي قريـة العـور، ولفـت البيـان إلى أنـه سـيتم وضـع حجـر أسـاس كنيسـة شـهداء الإيمـان والوطـن خـلال هـذا الأسـبوع، وقـال نـص البيـان: «بعيـدًا عـن الجلسـات العرفيـة وفي اجتمـاع جمـع الأسرة المنياويـة بحضـور اللـواء صـلاح زيـادة محافـظ المنيـا، والقيـادات الأمنيـة تـم التأكيـد بإلـزام الجميـع بتنفيـذ القانـون وتنفيـذ قـرار عبدالفتـاح السـيسي رئيـس الجمهوريـة ببنـاء كنيسـة شـهداء الإيمـان والوطـن بقريـة العـور، وأضـاف البيـان إنـه سـوف يقـوم نيافـة الأنبـا بفنوتيـوس والمحافـظ بوضـع حجـر الأسـاس خـلال هـذا الأسـبوع، والمطرانيـة تؤكـد أنـه لا يوجـد نـزاع وقـد سـاد الحـب والوئـام بـين الـكل».

مشهد (٥)

الزمان: شهر مايو ٢٠١٥

المكان: كفر درويش بمركز الفشن ببني سويف

في مشهد بات متكررًا، قام عدد من شباب قرية كفر درويش المسلمين بالهجوم على منزل شاب مسيحي أمي لا يجيد القراءة والكتابة يدعى أيمن يوسف توفيق مقيم ويعمل بدولة الأردن ومحاولة إشعال النيران في المنزل وإحراقه بمن بداخله، بعد سريان إشاعة تتهمه بعرض صورة مسيئة للرسول عقب عودته لقضاء إجازته السنوية ببني سويف عبر صفحته على فيسبوك، وعلى صفحة أخرى تحمل اسم «مسلم» باللغة الإنجليزية بها عبارات مسيئة للرسول، وعندما منعهم عمدة القرية أحمد ماهر ومشايخ القرية، قاموا برشق منزل المتهم بالحجارة وحطموا سيارة يمتلكها مسيحي آخر كانت بالقرب من المنزل، ثم حرقوا منزل قبطي يدعى نصحي عبدالشهيد لا يرتبط بأي صلة قرابة بالأسرة المتهم ابنها بازدراء الأديان، إضافة إلى حرق بعض المحاصيل الزراعية، مع رشق ما يزيد على ١٠ منازل يملكها أقباط بزجاجات المولوتوف والحجارة مما أدى إلى إحداث تلفيات هائلة بتلك المنازل.

وعلى الفور أسرع اللواء محمد أبو طالب مدير أمن بني سويف، واللواء رضا طبلية نائب مدير الأمن والعميدان خلف حسين مدير المباحث وخالد الجبيلي رئيس المباحث الجنائية بعقد جلسة صلح عرفي بين المسلمين والمسيحيين تقتضي بإجبار ٥ أسر مسيحية مكونة من ١٨ فردا على مغادرة قرية كفر درويش، وذلك بعد عدم قدرتهم على دفع ٢٥٠ ألف جنيه

لعمـدة القريـة كعقـاب لهـم، ولـم تقـم قـوات الأمـن حـتى الآن بالقبـض عـلى مثـيري الشـغب أو مـن قـام بقـذف منـازل الأقبـاط أو حـرق بعضهـا.

حدث بالفعل

مشهد (٦)

مـادة ٦٣ مـن دسـتور جمهوريـة مـصر العربيـة الـذي وافـق عليـه الشـعب في ينايـر ٢٠١٤ بنسـبة ٩٨،١٪

«يحظـر التهجـير القـسري التعسـفي للمواطنـين بجميـع صـوره وأشـكاله، ومخالفـة ذلـك جريمـة لا تسـقط بالتقـادم»

ثـم تهبـط كلمـة «النهايـة» متبوعـة بالمقولـة الأشـهر للرئيـس الأمريـكي هـاري ترومـان «لا جديـد في هـذا العالـم إلا مـا تجهلـه مـن التاريـخ».

سيناريو فيلم سياسي
الجزء الثالث

هـذا السـيناريو سـاخر، هـزلي، يصنـف ككوميديـا سـوداء، غـير حقيقـي، وغـير موضوعـي، غـير محايـد، والأحـداث الـواردة بـه خياليـة، ولا تمـت للواقـع بصلـة، وأي تشـابه بينـه وبـين الواقـع فهـو أغـرب مـن الخيـال.

مشهد (١)

الزمان: الشهور الأخيرة من العام ١٩٨٩
المكان: ألمانيا الشرقية

بعـد هزيمـة ألمانيـا ونهايـة الحـرب العالميـة الثانيـة عـام ١٩٤٥، قسـمت ألمانيـا إلى أربـع مناطـق محتلـة بحسـب اتفاقيـة مؤتمـر يالطا (٤-١١ فبرايـر ١٩٤٥)، كانـت الـدول المحتلـة هـي: الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، الاتحـاد السـوفييتي، المملكـة المتحـدة، وفرنسـا، وتبعًـا لذلـك قسـمت العاصمـة برلـين أيضًـا، ومنذ تأسـيس جمهوريـة ألمانيا الديمقراطيـة (الشرقيـة) التابعـة للاتحـاد السـوفييتي، ونتيجـة للقيـود الاشـتراكية القاسـية والظـروف المعيشـية السـيئة وانتهـاك الحريـات، بـدأ انتقـال أعـداد متزايـدة مـن مواطنيهـا مـن ألمانيـا الشرقيـة إلى ألمانيـا الغربيـة، وعـلى وجـه الخصـوص عـبر برلـين الـتي كانـت مـن شـبه المسـتحيل مراقبـة الحـدود فيهـا، حيـث كانـت الحـدود

تمـر في وسـط المدينـة وأحيائهـا، وبـين عامـي ١٩٤٥ و١٩٦١ اسـتطاع أكـثر مـن ٣ ملايـين مواطـن مـن ألمانيـا الشرقيـة الهـرب إلى ألمانيـا الغربيـة عـبر نقـاط التمـاس في برلـين، وحيـث إنهـم كانـوا في معظـم الأحيـان مـن الفئـة المتعلمـة، هـدد ذلـك القـدرة الاقتصاديـة لألمانيا الشرقيـة، وهـدد كيـان الدولـة ككل، وهـو مـا دفـع المعسـكر الـشرقي إلى تعزيـز حـدوده وتقييـد السـفر عـلى مواطنيـه لينتهـي الأمـر إلى قـرار بنـاء جـدار عـازل لمنـع الهجـرة مـن الـشرق للغـرب، وخـلال الأسـابيع التاليـة قـام العمّـال ببنـاء ١٥٥ كيلـو مـترا مـن جـدار يصـل ارتفاعـه إلى ١٢ مـترًا ومدعّـم بالأسـلاك الشـائكة وأبـراج المراقبـة وأجهـزة الإنـذار.

وفي ١٣ أغسـطس ١٩٦١، أعلـن رسـميًا عـن إقامـة جـدار برلـين العـازل وعـن منـع العبـور مـن الضفـة الشرقيـة الى الضفـة الغربيـة، وكان القتـل الفـوري نصيـب كل مـن يضبـط متلبسًـا بمحاولـة عبـور السـور المنيـع، وفقـد ١٣٨ ألمانيًّـا حياتهـم خـلال محـاولات العبـور مـن برلـين الشرقيـة إلى القسـم الغـربي مـن المدينـة في الثلاثـين عامًـا التاليـة، بعضهـم قـضى نحبـه بنـيران حـرس الحـدود، فيمـا غـرق آخـرون في ميـاه نهـر سـبري البـارد، واسـتمر السـور قائمًـا حـتى نهايـة الثمانينيـات مـن القـرن العشريـن، مـع اسـتمرار الضغـط الشـعبي مـن الألمـان الشرقيـين الذيـن ظلـوا لنحـو ثلاثـين عامًـا يطالبـون بحريـة التنقـل بـين شـطري ألمانيـا مـن دون حواجـز.

في ٧ أكتوبـر مـن العـام ١٩٨٩، اندلعـت احتجاجـات عامـة في برلـين الشرقيـة تعاملـت معهـا الشرطـة بعنـف، وفي ٩ أكتوبـر، بـدأت في لايبتسـيج LEIPZIG مظاهـرات الاثنـين الشـهيرة حيـث تظاهـر ٧٠ ألـف مواطـن وسـط استسـلام مـن الأجهـزة الأمنيـة نظـرًا إلى الكـم الهائـل مـن المتظاهريـن السـلميين، مطالبـين بإعـادة هيكلـة جمهوريـة ألمانيـا الديمقراطيـة بشـكل سـلمي وديمقراطـي، ورفـع المتظاهـرون صلـوات السـلام، وفي ١٨ أكتوبـر انتـشرت حمـى المظاهـرات

والصلوات السلمية في كل أرجاء ألمانيا، مما اضطر الأمين العامل للحزب الشيوعي الديكتاتور إريش هونيكر ERICH HONECKER الذي حكم ألمانيا الشرقية لثمانية عشر عامًا بالحديد والنار إلى الاستقالة، وفي ٤ نوفمبر، تظاهر ما يزيد على ٥٠٠ ألف شخص في برلين الشرقية منادين بحرية الصحافة والرأي وحرية التجمهر ومطالبين أيضًا بإصلاحات ديمقراطية، لكن بالرغم من ذلك لم يبدو على السلطات أي بادرة أمل في الاستجابة للمطالب المشروعة.

في مساء يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩، كان تلفزيون ألمانيا الشرقية يبث مؤتمرًا صحفيًا على الهواء مباشرة، تحدث فيه جونتر شابوفسكي GÜNTER SCHABOWSKI الناطق الرسمي وسكرتير اللجنة المركزية لخلية وسائل الإعلام، وعضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي الألماني، عن نيّة السلطات الشيوعية في ألمانيا الشرقية تخفيف قيود السفر على مواطنيها، وعن إجراءات جديدة ستتخذ للسماح لسكان ألمانيا الشرقية بالعبور نحو ألمانيا الغربية، وفي إجابة علي سؤال أحد الصحفيين عن الموعد المرتقب لتنفيذ القرار، أجاب شابوفسكي بدون تفكير قائلًا: «إن هذا القرار فعال فورًا ودون تأخير»، ووصلت الرسالة للشعب أن قيود التنقل بين الألمانيتين قد رُفِعت بعد أكثر من ٢٨ عامًا على بناء سور برلين، شاع الخبر بين الجماهير المتحفزة كالنار في الهشيم، وهجمت جماهير غفيرة على معبر بورنهولمر ستراس الحدودي الواقع شمال المدينة، وتسبّب الأمر في فوضى عارمة وتسلقوا الجدار، وفي الساعة التاسعة وعشرين دقيقة مساء استسلم جنود الحراسة وانهار المعبر، وتدفق ما يقرب من ٢٠ ألف شخص إلى ألمانيا الغربية في ظرف ساعة دون مراقبة وثائق الهوية وتناوبت الجماهير على هدم جدار برلين.

مشهد (٢)

الزمان: الاثنين ١٥ يناير ١٩٩٠ - الساعة ٥ مساء

المكان: المركز الرئيسي لجهاز أمن الدولة شتازي- Stasi في شرق برلين – ألمانيا الشرقية

بعد شهرين تقريبًا من السقوط غير المتوقع لجدار برلين المنيع، حاصر آلاف الشباب في ألمانيا مقار وزارة أمن الدولة مناديين بسقوطها.

كانت وزارة أمن الدولة في ألمانيا -Ministerium für Staatssi cherheit، والمعروفة اختصارا باسم شتازي Stasi توصف بأنها واحدة من أكثر وكالات المخابرات والشرطة السرية تأثيرًا وقمعًا على الإطلاق، وكانت وظيفتها الأساسية إخماد أي صوت للمعارضة والذين لقبهم النظام بـ«أعداء الاشتراكية» واغتيالهم بدم بارد متى لزم الأمر، والتجسس على الشعب من خلال شبكة واسعة من المواطنين الشرفاء الذين تم تحويلهم إلى مخبرين وعلى رأسهم رجال الكنيسة، وكان المقر الرئيسي للشتازي في برلين الشرقية في ليشتنبرج، بالإضافة لمجمع واسع النطاق في برلين، ومرافق أصغر متعددة في أنحاء المدينة، واستمر تدفق الشباب الثائر الذي ذاق الهوان على يد عملاء الشتازي طوال الثلاثين عامًا الماضية، وفي الخامسة مساء، اقتحم عشرات الآلاف من الشباب المبنى الرئيسي في برلين وانهارت الحراسة القوية تحت ضغط الجماهير، ومع سريان خبر سقوط المركز الرئيسي في برلين، توالى سقوط باقي المرافق والمراكز والمعتقلات التابعة لوزارة أمن الدولة في مدن هاله، براندنبورج، كوتبوس.

في المركـز الرئيـسي ببرلـين كانـت الغنيمـة الكـبرى، نفـق تحـت الأرض بطـول ١٠ كيلـو مـترات يحتـوي عـلى ١١١ خزنـة، بداخلهـا ملايـين الوثائـق والمسـتندات، و٤٧ كيلـو مـن الأفـلام و٦٠٠ كيلـو مـن شرائـط تسـجيل ملايـين المكالمـات بمـا يعـادل مائـة وتسـعًا وسـتين ألـف اسـطوانة وفيلـم، ومليـون وأربعمائـة ألـف صـورة هـي حصيلـة عقـود مـن التجسـس، والأهـم أسـماء الجواسـيس الذيـن عملـوا لصالـح الجهـاز عـلي مـدى أربعـة عقـود، هـذا إلى جانـب مئـات الجـوالات مـن المسـتندات المفرومـة، والـتي قـام رجـال الشـتازي بتدميرهـا في السـاعات الاخـيرة قبيـل الاقتحـام.

في ١٢ سـبتمبر مـن عـام ١٩٩٠، وقعـت «معاهـدة الاثنـين والأربعـة» في موسـكو، بـين الألمانيتـين مـن جهـة، وبـين القـوى الأربـع المحتلـة: فرنسـا والمملكـة المتحـدة وأمريـكا والاتحـاد السـوفييتي مـن جهـة أخـرى، وفي الثالـث مـن أكتوبـر ١٩٩٠، وبعـد قرابـة العـام مـن سـقوط جـدار برلـين، أعلـن إعـادة توحيـد الألمانيتـين الشرقيـة والغربيـة Deutsche Wiedervereinigung تحـت مسـمى جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة، وفي ١٤ نوفمـبر ١٩٩١، أصـدرت السـلطة الجديـدة في ألمانيـا الاتحاديـة قانـون وثائـق شـتازي Stasi-Unterlagen Gesetz الـذي يحـدد آليـات التعامـل مـع الوثائـق، ومـن يحـق لـه الاطـلاع عليهـا لمعرفـة مـا دُبـر لـه، وبموجـب القانـون تـم تشـكيل هيئـة حملـت نفـس الاسـم Stasi Unterlagen Behörde وتتكـون مـن مائـتي موظـف، مهمتهـم الوحيـدة في الحيـاة تجميـع قصاصـات الـورق ولصقهـا وإعـادة ترميمهـا وتشـكيلها وتسـليم الملفـات للأهـالي وإبلاغهـم بمـن كان يتجسـس عليهـم، وأشرف عـلى الهيئـة الكاهـن والمعـارض يؤاخيـم جـاوك Joachim Gauck الـذي اعتقلـوا والـده في السـابق في غياهـب سـيبيريا.

وتوفـيرا للوقـت والجهـد صمـم معهـد فراونهوفـر برنامجًـا يُسـهل عمليـة جمـع القصاصـات يدعـى Stasi-Schnipsel maschine، وفي

٢٩ أكتوبر ١٩٩٢، صدر قانون باسم REHABILITIERUNGS GESETZ أو قانون إعادة التأهيل يهدف لتسليم الوثائق لضحايا التجسس ومكاشفتهم، وتأهيل المساجين السياسيين، ولاحقًا شيد في برلين نُصب هوهنشون هاوزن التذكاري الذي يخلد ذكرى ضحايا الشتازي، وتحول المقر الرئيسي للشتازي في البناية رقم ١ في شارع نورمانن إلى متحف، ولاحقًا في ٢٠١٠ انتخب مجلس النواب الاتحادي البوندستاج الكاهن السابق يؤاخيم جاوك رئيسًا لألمانيا الاتحادية.

مشهد (٣)

الزمان: السبت ٥ مارس ٢٠١١- الساعة 7 مساء

المكان: المقر الرئيسي لجهاز أمن الدولة بمدينة نصر- القاهرة

بعد مرور ما يزيد على ثلاثة أسابيع على تنحي حسني مبارك عن منصبه كرئيس للجمهورية بعد ثورة ٢٥ يناير وتولي القوات المسلحة مهمة إدارة شئون البلاد، لم تتخذ القوات المسلحة أي إجراءات تجاه تفكيك جهاز أمن الدولة المصري سيئ السمعة الذي كان أحد المطالب الأساسية للثورة، ونتيجة لعدم الاستجابة، انتشرت دعوة على فيس بوك تدعو لحصار المقر الرئيسي للجهاز بنية الضغط تجاه تفكيك الجهاز.

وفي الرابعة بعد ظهر السبت ٥ مارس، بدأ توافد أعداد ضخمة من الثوار وخصوصًا شباب حركة ٦ أبريل وشباب جماعة الإخوان المسلمين، مرددين هتافات «يا حرية فينك فينك.. أمن الدولة بينا وبينك»، و«الشعب يريد إسقاط جهاز أمن الدولة»، وبذل جنود الجيش محاولات مستميتة لمنع اقتحام

المبـنى المنيـع، وحـاول عـدد مـن قيـادات الجيـش التفـاوض مـع المتظاهريـن لإنهـاء الاعتصـام وإثنائهـم عـن اقتحـام المبـنى دون جـدوى، ثـم وصـل اللـواء إسـماعيل عتمـان مديـر إدارة الشـئون المعنويـة، وأكـد للمتظاهريـن خلـو المبـنى مـن العنـاصر الأمنيـة أو المعتقلـين السياسـيين ردًا عـلى رغبـة المتظاهريـن في الدخـول لتحرير المعتقلـين، وقـال لهـم عتمـان «هتسـمعوا أخبـار كويسـة خـلال يومـين أو تلاتـة، لكـن مفيـش حـد جـوه علشـان تدخلـوا المبـنى»، فخفـت حمـاس المتظاهريـن قليـلًا لكـن التجمـع لـم ينفـض.

وفي نحـو السادسـة مسـاء لاحـظ المتظاهـرون عبـور أكـثر مـن سـيارة قمامـة مـن الشـارع المقابـل لمبـنى أمـن الدولـة، واتفـق الواقفـون عـلى إيقـاف السـيارة القادمـة لفحـص محتوياتهـا، فوجـدوا فيهـا كميـات كبـيرة مـن الـورق المفـروم الخـاص بالجهـاز، ممـا دفـع المتظاهريـن إلى احتجازهـا، وإلى فقـدان أي ثقـة في وعـود عتمـان، وبعـد قليـل اسـتطاع عـدد مـن المواطنـين تسـلق الأسـوار الخلفيـة للمبـني واسـتطاعوا التسـلل إلى الداخـل، ثـم فتحـوا البـاب الرئيـسي للمبـنى مـن الداخـل وسـط هتافـات مدويـة، وانهـارت مقاومـة الجنـود تحـت وطـأة الأعـداد المتزايـدة، واجتـاح المتظاهـرون المقـر الرئيـسي لجهـاز أمـن الدولـة.

عـثر المتظاهـرون عـلى كميات كبـيرة مـن الأوراق المفرومـة، بجانب عـشرات الآلاف مـن الأوراق السـليمة، تفاوتت أهميتها بـين مصروفات تنقـلات الأمنـاء، وحـتى التحريـات عـن كبـار الإعلاميـين والسياسـيين في مـصر، واسـتطاع المتظاهـرون العثـور عـلى خمسـة طوابـق مـن الزنازيـن تحـت الأرض خاليـة تمامًـا مـن المعتقلـين، وأجهـش بعـض السـلفيين بالبـكاء عندمـا تذكـروا تلـك الزنازيـن الـتي اعتقلـوا بهـا في السـابق، وفي داخـل المبـنى وصـل أحـد الشـباب إلى مكتـب وزيـر الداخليـة السـابق حبيـب العـادلي الفخـم، ووجـد ملحقًـا بهـا غرفـة نـوم فاخـرة ومائـدة وحجـرة معيشـة وكميـات مـن المشروبـات

الغازيـة والعصائـر والمأكـولات والمعلبـات وحمـام فاخـر مجهـز بـ«جاكـوزي»، وآلات رياضيـة ودولاب للملابـس بـه ملابس اسـتحمام بعضهـا رجـالي والبعـض الآخـر نسـائي، وفى مكاتـب أخـرى وجـدت قمصـان نـوم وملابـس داخليـة نسـائية وبـدل رقـص، ثـم حاولـت قيـادات الجيـش إخـلاء المبـنى دون جـدوى، ورفـض المواطنـون الخـروج قبـل أن تصـل عنـاصر مـن النيابـة العامـة لتحصيـل الأوراق والتحقيـق فيهـا.

وفي العـاشرة والنصـف مسـاء، وصـل عـدد كبـير مـن العاملـين بالنيابـة بمصاحبـة الجيـش، وحيـوا الجماهـير الواقفـة ودخلـوا المبـنى لمصـادرة الأوراق السـليمة المتبقيـة، وظهـر المستشـار زكريـا عبدالعزيـز رئيـس نـادي قضـاة مـصر الأسـبق ومؤسـس حركـة قضـاة مـن أجـل مـصر، وعندمـا شـاهده الثـوار اطمأنـوا وبـدأوا في الخـروج، وخـرج العـشرات بعـد حصولهـم عـلى مسـتندات ووثائـق وأقـراص صلبـة «هـاردات» اسـتطاعوا تهريبهـا، مخلفـين وراءهـم عبـارات كتبوهـا عـلى جـدران المبـنى تقـول «وداعًـا زوار الفجـر».

ثـم تسـلم الجيـش المبـنى وأخـرج المتظاهريـن منـه في سـاعة متأخـرة، وفى هـذه الأثنـاء تسربـت للخـارج عـشرات الوثائـق الـتي تثبـت مراقبـة الجهـاز لرمـوز المعارضـة، بـل ورجـال الحكـم أيضًـا، وحـذر المجلـس الأعـلى للقـوات المسـلحة مـن تـداول الوثائـق الـتي تخـص جهـاز مباحـث أمـن الدولـة، داعيًـا المواطنـين إلى تسـليمها الفـوري إلى القـوات المسـلحة، وذكـر المجلـس الأعـلى في بيانـه:

«يهيـب المجلـس الأعـلى للقـوات المسـلحة بجميـع المواطنـين تسـليم مـا بحوزتهـم مـن وثائـق تخـص جهـاز مباحـث أمـن الدولـة إلى القـوات المسـلحة فـورًا، لاتخـاذ مـا هـو مناسـب حيالهـا مـن إجـراءات، وعـدم تداولهـا في وسـائل الإعـلام وذلـك مـن منطلـق المسئولية الوطنيـة وتجنـب المسـاءلة القانونيـة»، منوهـا بـأن هـذه الوثائـق «قـد تحتـوي عـلى قضايـا قـد تعـرض أمـن الوطـن وأفـراده

للخطر»، وقامت قوات تابعة للجيش بالتحفظ على العديد من الملفات والأوراق التي كانت موجودة بمقر أمن الدولة بمدينة نصر تحت إشراف النيابة العامة، وتم وضع الملفات في سيارات تابعة للجيش، تمهيدًا لنقل الملفات إلى إحدى الجهات التابعة للجيش أو إلى جهات تابعة للنيابة العامة، وتوالى لاحقًا استيلاء الجيش على مقار الجهاز في مختلف أنحاء الجمهورية تباعًا والقبض على ضباطه وإحباط محاولاتهم المتعددة لإحراق المستندات والوثائق وفرمها.

مشهد (٤)

الزمان: الثلاثاء ١٥ مارس ٢٠١١

المكان: مصر

أصدر وزير الداخلية منصور عيسوي قرارًا بإلغاء جهاز مباحث أمن الدولة بجميع إداراته وفروعه ومكاتبه في جميع محافظات الجمهورية نزولًا عند رغبة القوى السياسية والحزبية.. مع تأسيس جهاز آخر بنفس المسئوليات والمهام والصلاحيات والإدارات والكوادر الأمنية ويشغل نفس مقار وفروع ومكاتب الجهاز المنحل تحت اسم «جهاز الأمن الوطني».

مشهد (٥)

الزمان: الاثنين ١٨ أبريل ٢٠١٦

المكان: مصر

قـرر مجلـس التأديـب الأعـلى برئاسـة المستشـار أحمـد جمـال الديـن عبداللطيـف رئيـس محكمـة النقـض ورئيـس مجلـس القضـاء الأعـلى، تأييـد إحالـة المستشـار زكريـا عبدالعزيـز رئيـس نـادي قضـاة مـصر الأسـبق للمعـاش المبكـر، لاتهامـه بالتـورط في اقتحـام مبـنى الإدارة العامـة لمباحـث أمـن الدولـة المنحـل بمدينـة نـصر إبـان ثـورة ينايـر، وأحيـل المستشـار زكريـا عبدالعزيـز إلى لجنـة التأديـب والصلاحيـة، بعدمـا واجهـه قـاضي التحقيـق المستشـار صفـاء الديـن أباظـة بتهمـة الاشـتغال بالسياسـة، والظهـور الإعلامي، والتحريـض عـلى اقتحـام وحـرق مقـر أمـن الدولـة، ومـا أسـفرت عنه مـن الاسـتيلاء عـلى بعـض المسـتندات الخاصـة بالجهـاز، وتضمـن ملـف القضيـة تقريـرًا أعدتـه لجنـة الخـبراء المشـكلة مـن قبـل اتحـاد الإذاعـة والتليفزيـون، حـول الفيديوهـات الـتي تـم عرضهـا عـلى موقـع اليوتيـوب، وبعـض برامـج التـوك شـو، الـتي ظهـر فيهـا المستشـار زكريـا عبدالعزيـز، وعـدد مـن النشـطاء وأعضـاء حركـة ٦ أبريـل أثنـاء اقتحـام مقـرات أمـن الدولـة.

ثـم تهبـط كلمـة «النهايـة» متبوعـة بالمقولـة الأشـهر للكاتـب والشـاعر الفرنـسي سـتيفان هيسـيل «الذيـن ينسـون التاريـخ يحكـم عليهـم بـأن يعايشـوه مـن جديـد».

عن سيكولوجية الانصياع والطاعة
تجربة ميلجرام
Milgram experiment

في يوليو ١٩٦١، وبعد ثلاثة أشهر تقريبًا من بدء محاكمة مجرم الحرب النازي وقائد الجستابو السابق «أدولف أيخمان Adolf Eichmann» في القدس، وفي محاولة منه لفهم حجم وكمية العنف الذي مارسته البشرية إبان الحربين الأولى والثانية، أجرى عالم النفس الاجتماعي «ستانلي ميلجرام Stanley Milgram» تجربة نفسية اجتماعية في قبو قاعة Linsly-Chittenden في «جامعة ييل Yale University»، ليوضح على ضوئها سيكولوجية الانصياع والطاعة، وكيفية انصياع الناس لشخص السلطة، حتى وإن كان في هذا الانصياع والطاعة ما يتناقض مع مبادئهم وضمائرهم، كان السؤال الذي طرحه ميلجرام في تجربته تلك هو عما إذا كان هناك إحساس مشترك بأخلاقية تلك الجرائم عند الذين تورَّطوا بها.

تم جمع المشاركين عن طريق نشر إعلان في إحدى الصحف، يطلب أفرادًا للمشاركة في تجربة تجريها جامعة ييل، لدراسة الطريقة التي يؤثّر بها العقاب على التعلُّم والذاكرة، أما الحقيقة فإن التجربة تحاول أن تجيب عن سؤال يقول «ما كمية التعذيب التي يكون الناس العاديون على استعداد لإنزالها بشخص آخر بريء تمامًا حين تكون هذه العملية هي وظيفتهم؟!»، وبالطبع كان إخفاء هدف التجربة الحقيقي ضروريًا لنجاحها، ونصَّ الإعلان على أن التجربة تستغرق ساعة واحدة مقابل ٤٫٥ $، ولاقى

الإعلان قبولًا واسعًا واستجاب بالفعل عدد من الرجال أعمارهم ما بين ٢٠ ـ ٥٠ عامًا، ينتمون إلى مختلف المستويات الاجتماعية والثقافية، فمنهم من لم ينه تعليمه الثانوي، ومنهم من أتم دراسة الدكتوراه.

قبل بداية التجربة، أجرى المشرف قرعة وهمية بين المشارك والممثل، تؤدي دائمًا لنتيجة واحدة وهي أن يلعب المشارك دور المعلّم، ويلعب الممثل دور التلميذ، لكن المشارك يظن أن القرعة حقيقية، وأنه بمحض الصدفة احتل دور المعلم، وأن الصدفة وحدها أيضًا قادت الممثل الذي يلعب دور المشارك الآخر ليكون تلميذًا، ثم يجلس المشرف مع المشارك الذي يلعب دور المعلّم في غرفة، ويجلس الممثل الذي يلعب دور التلميذ في غرفة أخرى مجاورة، على أن يتمكّن المشارك من سماعه عن طريق ميكروفونات وسماعات تنقل الصوت، بحيث يتواصلان بالكلام فقط، دون أن يشاهد أحدهما الآخر، وأثناء الاستعداد للتجربة يصرح الممثل بأنه يعاني من مشاكل قلبية، لكنها ليست خطيرة.

قدم المشرف للمشارك/المعلم ورقة تحتوي على مجموعة من الكلمات المتقابلة وهي التي يجب على الممثل/التلميذ أن يحفظها، وتقتضي حيثيات الاختبار أن يقوم المشارك/المعلم بقراءة الكلمات المتقابلة كلها، وعندما ينتهي من قراءتها، يعود ليقرأ الكلمة الأولى ويقدم أربعة احتمالات للكلمة المقابلة لها، الممثل/التلميذ سيقوم بضغط زر أمامه يمثل اختياره، فإذا أخطأ الاختيار فإن على المشارك/المعلم أن يقول له بأنه أخطأ، ومع كلّ خطأ يقع فيه الممثل/التّلميذ على المشارك/المعلم أن يستخدم بشكل متصاعد جهاز الصعق الكهربائيّ الموضوع أمامه على الطاولة، والذي يحتوى على عدد من المفاتيح يشير كل منها إلى شدة محددة للتيار، تتدرج من ٣٠ حتى ٤٥٠ فولت، ولابد أن

يخبره بمدى قوة الصعقة التالية، ثم يضغط على الزر الخاص بالصعقة الكهربائية المناسبة، أما إذا كانت الإجابة صحيحة يقوم المشارك/المعلم بقراءة الكلمة التالية وإعطاء الاحتمالات الأربعة لها، وهكذا حتى تنتهي القائمة، ثم يعيدها من البداية إلى أن يتمكن التلميذ من حفظ كل الكلمات، المشاركون يظنون أنهم يوجهون صعقات كهربائية للتلميذ، لكن في واقع الأمر فإن جهاز الصّعق الكهربائيّ لا يعمل، وليس هناك أي صعقات كهربائية بل هناك تسجيل صوتي معد مسبقًا بصوت الممثل/التلميذ يصدر صرخات بالتناغم مع صوت الصعقات الكهربائية، وإذا أبدى المشارك في أي مرحلة من مراحل الاختبار رغبته في التوقف، كان المشرف يوجه إليه سلسلة متتابعة من التنبيهات معدة مسبقًا على الترتيب:

١- أكمل من فضلك PLEASE CONTINUE

٢- التجربة تلزمك أنك تكمّل THE EXPERIMENT REQUIRES THAT YOU CONTINUE

٣- من الضروري جدًا أنك تكمّل IT IS ABSOLUTELY ESSENTIAL THAT YOU CONTINUE

٤- لا يوجد لديك خيارات أخرى، لازم تكمل YOU HAVE NO OTHER CHOICE, YOU MUST GO ON

وإذا ظل المشارك عند رغبته في التوقف بعد التنبيه الرابع والأخير، يتم وقف الاختبار فورًا.

مع ارتفاع شدة الفولت، يشتكي الممثل/التلميذ من الوضع الصحي لقلبه، ويبدأ بالضرب على الجدار الفاصل بينه وبين المشارك عدة مرات وكأنه يعاني من شدة الألم، وعند هذه النقطة عبّر عدد من المشاركين عن رغبتهم في وقف الاختبار، والكثير من المشاركين توقفوا عند الشدة ١٣٥ فولت مشككين

في مغـزى الاختبـار، لكنهـم اسـتمروا في أداء أدوارهـم في الاختبـار بعـد أن تلقـوا تطمينـات تعفيهـم مـن أي مسـئولية، بالرغـم مـن التوسـلات الـتي كان يقـوم بهـا الممثـل /التلميـذ، بـل إن بعـض المشـاركين راحـوا يضحكـون بانفعـال شـديد لـدى سـماعهم صرخات الألـم الصـادرة عـن التلميـذ.

قبـل بـدء الاختبـار، أجـرى ميلجـرام اسـتبيانًا وزعـه عـلى مجموعـة مـن علمـاء النفـس حـول توقعاتهـم لنتائـج الاختبـار، وأكـدت تلـك التوقعـات أن قلـة قليلـة فقـط لا تتعـدى نسـبة الواحـد بالألـف تقريبًـا، سـتصل إلى مرحلـة الضغـط عـلى زر الصعقـة القصـوى، لكـن النتائـج الفعليـة للاختبـار أتـت مخيبـة لتوقعاتهـم، ففـي أول مجموعـة تجـارب أجراهـا ميلجـرام، وصـل ٢٧ مشـاركًا مـن أصـل ٤٠ مشـاركًا (بنسـبة ٦٥٪ مـن المشـاركين) إلى الصعقـة القصـوى ٤٥٠ فولـت والـتي يفـترض أنهـا مميتـة، وبالرغـم مـن أن كثيريـن منهـم أظهـروا انزعاجهـم مـن هـذا الأمـر، وكلهـم تقريبًـا توقفـوا لبرهـة وأبـدوا شـكوكًا تجـاه الاختبـار، والبعـض منهـم عـبر عـن رغبتـه في التوقـف بإرجـاع النقـود، لكـن لـم يعلـن أي مشـارك عـن ذلـك قبـل مسـتوى الـ ٣٠٠ فولـت القاتلـة.

ولأن النتائـج كانـت مفزعـة وأثـيرت حولهـا بعـض الاحتمـالات، فقـد أعيـدت التجربـة مـرارًا في مختلـف بقـاع العالـم، وجـرى تنويـع مجـالات الاختبـار مـن أجـل التأكـد مـن كل الاحتمـالات المثـارة، وجـاءت النتائـج متطابقـة عـن تلقائيـة وقـوة الاسـتجابة للسـلطة، وأكـد الدكتـور «تومـاس بـلاس» أن عـدد المشـاركين المسـتعدين للاسـتمرار في التجربـة حـتى بلـوغ حـد الصعقـة القاتلـة يـتراوح مـا بـين ٦١٪ و٦٦٪ بغـض النظـر عـن مـكان وزمـان الاختبـار، كمـا أن كل المشـاركين الذيـن رفضـوا الاسـتمرار في الاختبـار، لـم يبـادروا إلى المطالبـة بإلغـاء الاختبـار ووقفـه نهائيًـا، كمـا لـم يقـم أي واحـد بمغـادرة الغرفـة للتحقـق مـن سـلامة الشـخص الآخـر بـدون أن

يطلب الإذن من المشرف بذلك.

في هذه التّجربة أثبت ميلجرام كيف يقع النّاس في الجريمة والعنف إذا أصبحوا متبوعين، وأتم إقناعهم بأنه لاّ ذنب لهم في الأمر، فكلّما أظهر أحد المشتركين تردّده في الاستمرار كان المشرف يستخدم معه ألفاظًا تحفيزيّة تُخلي مسئوليته ممّا يفعل، ليصل بعدها إلى نتيجة أن أولئك المتورِّطين كانوا يتبعون الأوامر، بغض النظر عن مخالفتها أو تعارضها مع ما يؤمنون به من أخلاق وقيم.

يفسر ميلجرام نتائج تجربته بأنها تشرح كيف أنه وبإمكان أي مواطن عادي أن يسبب آلامًا لأشخاص قد لا يعرفهم، لسبب بسيط، وهو أنه يتلقى الأوامر من المسئول عن التجربة، فما نحن إلاّ موظّفون/أتباع/مسيّرون، وإنها تتعلق بإحساس عميق بالواجب نحو السلطة متأصِّل فينا جميعًا فنحن مدرَّبون منذ الولادة على أن الطاعة للسلطة صواب وأن عدم الطاعة خطأ. إن استجابتنا هي رد فعل وليست ثمرة التفكير والتروي لذلك فهي تأتي بشكل انسيابي وبتلقائية.

لخص ميلجرام تجربته في مقالة تحت عنوان «دراسة سلوكية للطاعة» عام ١٩٦٣، ومن ثم وبشكل مطول قدمها في كتاب نشر عام ١٩٧٤ تحت عنوان «الانصياع للسلطة؛ نظرة خارجية»، وقام بإنتاج فيلم وثائقي حول الاختبار ونتائجه تحت عنوان «الطاعة».

متلازمة اتباع سلوك الأغلبية

HERD BEHAVIOR

في تجربة قام بها أحد الأطباء النفسيين، لمعرفة تأثير سلوك الأغلبية على سلوك الفرد، قام الطبيب باستئجار عيادة لطب العيون، وقام بعمل إعلان عن كشف مجاني في الصحف، ثم قام بدعوة بعض المتطوعين ليلعبوا دور المرضى في العيادة المستأجرة، وانتظروا الفتاة التي ستجرى عليها التجربة، التي كانت قد اتصلت في السابق وحددت موعدًا لإجراء الكشف المجاني.

في موعدها بالدقيقة كانت الفتاة المريضة قد وصلت للعيادة، معتقدة أنها هنا لإجراء الكشف المجاني على عينيها، وهي لا تعلم أن كل الموجودين داخل العيادة هم مجرد ممثلين متطوعين لإجراء تلك التجربة، ثم حصلت على رقم وانتظرت دورها، بعد دقائق سرى صوت صافرة مسموع بوضوح غير معلوم المصدر، وهنا نهض المتطوعون أو المرضى المزيفون جميعهم من على مقاعدهم لثوانٍ ثم جلسوا مرة أخرى، وسط اندهاش المريضة الحقيقية التي تجرى عليها التجربة، لكنها لم تقف مثلهم، مرت دقائق قصيرة قبل أن يتكرر صوت الصافرة للمرة الثانية، ويتكرر معه نهوض المتطوعين، لم يستغرق الأمر الكثير حتى أدركت الفتاة كيف تسير الأمور، فصوت الصافرة يعني أنه عليك النهوض بدون سبب واقعي، وبعد ٣ صافرات فقط، ودون أن تعرف السر وراء ذلك، انهارت دفاعات الفتاة النفسية، وانصاعت لسلوك الأغلبية، وبدأت بتقليد المجموعة بشكل دقيق، فقط لأن الجميع يفعل ذلك، بالرغم من عبث

الفعـل ذاتـه، ومـع كل صافـرة كان الجميـع يقفـون مـن مقاعدهـم بمـن فيهـم الفتـاة، ثـم يعـودون للجلـوس مـرة أخـرى، وتكـرر الأمـر لبضـع مـرات قبـل أن تبـدأ الممرضـة في النـداء عـلى المتطوعـين الواحـد تلـو الآخـر لإجـراء كشـف العيـون المزعـوم، والصافـرة لا تكـف عـن الانطـلاق كل بضـع دقائـق، والجميـع لا يكفـون عـن النهـوض لثـوانٍ والجلـوس مـرة أخـرى بمـن فيهـم الفتـاة، حـتى انفـض الجميـع مـن حولهـا، وبقيـت هـي وحيـدة في انتظـار دورهـا، وهنـا كانـت النقطـة الفاصلـة في التجربـة، هـل سـتكرر الفتـاة الأمـر وسـتقف عنـد سـماع صـوت الصافـرة؟

بمجـرد انطـلاق الصافـرة نهضـت الفتـاة بالفعـل مـن مقعدهـا لثـوانٍ ثـم جلسـت مـرة أخـرى، بالرغـم مـن أنهـا وحيـدة وتعلـم جيـدًا أنـه لا أحـد يراقبهـا، باسـتثناء الكاميـرا المخفيـة بعنايـة الـتي لا تعلـم الفتـاة بالطبـع بوجودهـا، وسـط اندهـاش الطبيـب النفـسي المسـئول عـن التجربـة، الفتـاة الآن تقـوم بتطبيـق قوانـين المجموعة عـلى الرغـم مـن وجودهـا منفـردة.

بعـد دقائـق قليلـة، دخـل متطـوع جديـد إلى العيـادة، والفتـاة تعلـم بالطبـع أنـه ليـس لديـه فكـرة عـن القاعـدة الـتي تقـوم هـي بتطبيقهـا، حصـل المريـض عـلى دوره، وجلـس بالقـرب مـن الفتـاة، مـرت دقائـق قبـل أن تنطلـق الصافـرة مـرة أخـرى، وبالطبـع نهضـت الفتـاة مـن مقعدهـا، وسـط اندهـاش المتطـوع المفتعـل، تكـرر انطـلاق الصافـرة وتكـرر نهـوض الفتـاة الـتي تبرمجـت عـلى هـذا الفعـل أتوماتيكيًـا الآن، عاجلهـا المريـض الجديـد بالسـؤال الفاصـل: «لمـاذا تقفـين عنـد سـماع صـوت الصافـرة؟»، بـدون وعـي أجابـت قائلـة: «الجميـع كان يفعـل ذلـك، فاعتقـدت أنـه عـليّ أن أفعـل ذلـك»، لـم يبـدُ عـلى المتطـوع أي اندهـاش، وعنـد الصافـرة التاليـة كان يجاريهـا وينهـض معهـا لثـوانٍ ثـم يجلـس مـرة أخـرى، ثـم تتابـع عـلى العيـادة مـرضى حقيقيـون جـاءوا لإجـراء الكشـف المجـاني

المزعـوم، وهنـا نـادت الممرضـة عـلى الفتـاة لإجـراء الكشـف، ثـم تلاهـا المتطـوع الأخـير في المجموعـة، وصـار كل الموجوديـن في العيـادة مـرضى حقيقـين، وبـكل دهشـة كانـت عـادة الوقـوف عنـد سـماع الصافـرة قـد انتقلـت إليهـم، ومـا بـدأ كعينـة عشـوائية عـلى الفتـاة، أصبـح الآن العـادة الاجتماعيـة الـتي يقـوم بهـا جميـع المـرضى الحقيقيـين في العيـادة، دون أن يتسـاءل أحدهـم لمـاذا يفعلـون هـذا الفعـل؟

يفـسر د.جوناثـان برجـر مـن جامعـة بنسـلفانيا هـذا التـصرف غـير المفهـوم قائـلًا: هـذا النـوع مـن التصرفـات المقحمـة عـلى تصرفـات القطيـع يسـمى بـ«التعليـم الاجتماعـى»، يبـدأ عندمـا نـرى أفـرادًا من مجموعتنـا يقومـون بتـصرف مـا، وبوجـود ضغـط المجموعـة عـلى الفـرد، غالبًـا العقـل الباطـن سـيجبرك عـلى اتبـاع سـلوك المجموعـة والسـير عـلى خطاهـم، فـإن عـدم الانضمـام للقطيـع يشـعر الفـرد بأنـه مسـتبعد نوعًـا مـا ووحيـد، لـذا فـإن العقـل اللاواعـي يأخـذ قـراره بعـد فـترة مـن المقاومـة، بالانضمـام للقطيـع، ويقـوم بتغيـير سـلوكك وأسـلوب تفكـيرك حـتى يشـعرك بالراحـة، ويجنبـك ألـم الإبعـاد، وهـذا التـصرف يسـمى بـ «سـلوك القطيـع HERD BEHAV-IOR»، وكان أول مـن أطلـق هـذا المسـمى عـلى هـذا السـلوك وصاغـه كنظريـة فلسـفية علميـة هـو عالـم الأحيـاء «هاملتـون»، وذكـر فيهـا أن كل عضـو في مجموعـة مـا يخـدم نفسـه بالدرجـة الأولى، حيـث يقلـل الخطـر عـن نفسـه بالدخـول مـع الجماعـة والسـلوك بسـلوكهم، وهكـذا يظهـر القطيـع بمظهـر الوحـدة الواحـدة حيـث يميـل الأشـخاص الأقـل مركـزا أو الأقـل تأثـيرًا أو مـالًا في الجماعـة إلى التـصرف بسـلوك مـن هـم أقـوى منـه وأشـد نفـوذًا وأعـلى مركـزًا أو أحسـن حالـة وظيفيـة أو اجتماعيـة، ولنـا في السياسـة والسياسـيين والفـن والفنانـين أكـبر مثـال.

متلازمة إنكار الواقع

Denial Defense mechanism

في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان الطبيب والعالم النمساوي الشهير «سيجموند فرويد» يبدأ في تكوين أسطورته الخاصة كمؤسس لعلم التحليل النفسي وعلم النفس الحديث، بعد تخرجه في كلية الطب جامعة فيينا، بعدما أمضى عشر سنوات من العمل الجاد في دراسة ماهية العقل الباطن أو العقل اللاواعي للإنسان The subconscious وكيفية عمله، وتأثيره على تصرفات الانسان قاطبة، وأثناء بحث فرويد عن صفات العقل الباطن، لاحظ أن هذا العقل الباطن عندما يعجز عن حل بعض مشاكله، أو عندما يكون التوتر المتولد من بعض الأفكار فوق احتمال الشخص نفسه، فإن العقل الباطن يقوم تلقائيًا وبمعزل عن إدراك العقل الواعي، ببعض الحيل والآليات من أجل تلافي الشعور بالقلق أو التوتر أو الضغط الناتجين، ومن أجل حماية الذات من التهديد، فيقوم مثلًا بإنكار الحقيقة أو تغييرها أو التلاعب بها، وبذلك يتخلص الفرد من القلق والتوتر الناتج من تلك المشكلة بدلًا من التخلص من المشكلة نفسها، هذه الحيل لقبها فرويد بالآليات أو الدفاعات النفسية Defense mechanisms.

الأشخاص الطبيعيون عادة ما يستخدمون أساليب دفاعية مختلفة خلال مراحل حياتهم المختلفة، هذه الآليات الدفاعية يمكنها أن تصبح مَرضية عندما يؤدي الاستخدام المتكرر لها

إلى صعوبات في التكيف، والذي يتسبب بدوره في حالة نفسية أو جسدية أسوأ، إذ إن الغرض من الدفاعات النفسية هو حماية الشخص لنفسه من التوتر والتهديد، بالإضافة إلى إيجاد مأوى وملجأ معنوي يحميه من الموقف الذي لا يستطيع مسايرته في الوقت الراهن، كما تصبح الدفاعات النفسية خطرة عندما تعمي الفرد عن رؤية عيوبه ومشاكله الحقيقية ولا تعينه على مواجهة المشكلة بصورة واقعية.

والحيل النفسية في المجمل ليست مرضًا، ويمكن تقسيمها إلى «حيل نفسية ناضجة أو غير ناضجة» Maturity or Immatu-rity، وتشترك كل الدفاعات النفسية في صفة، أنها تعمل على اللاوعي بغرض تقليل القلق والتوتر الذي يشعر به الشخص، وتظهر الآليات النفسية المرضية وغير الناضجة عادة بين شعوب الدول التي تعاني من انقسامات وصراعات داخلية وتحزب وحكم ديكتاتوري، ودائمًا ما يعاني مؤيدو الأنظمة الديكتاتورية من الاستخدام المتكرر للدفاعات النفسية، خصوصًا الآليات المستخدمة في إنكار الحقيقة أو التلاعب بها أو إعادة تشكيلها، وتضم قائمة الدفاعات النفسية عددًا كبيرًا من الآليات الدفاعية، إلا أنه ليس هناك حسم أو دليل علمي على عدد محدود من هذه الدفاعات، بالرغم من محاولات «انا فرويد» (ابنة سيجموند فرويد) التي قامت بها سنة ١٩٣٦ لتقسيم هذه الدفاعات النفسية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

التماهي أو التوحد Identification

وهو إدماج موضوع أو فكرة أو التوحد والتقارب اللاواعي مع الأشخاص الذين يحملون نفس الأفكار، كأن يضيق بعض معارضي الأنظمة الديكتاتورية ذرعًا بالضغط والتوتر الناتجين عن كونهم ينتمون للفئة الأضعف، حتى يصل بهم الضغط إلى

نقطة الانهيار، فيلجأ بعضهم إلى الانضمام والتوحد والتقارب مع الأغلبية المؤيدة للنظام، واعتناق مبادئ كان ضدها في السابق تمامًا، وذلك كله بغرض التخلص من الضغط، ولا يتوقف العقل الباطن عند تلك النقطة، بل إمعانًا في التماهي، يعادي الفرد أفكاره وتوجهاته القديمة والسابقة، والجماعة التي كان ينتمي إليها في السابق وبشكل عنيف.

التقدير المثالي Idealization

هي المبالغة في التقدير ورفع الشأن للأشخاص والأشياء، وتخيل العديد من القدرات الإعجازية غير الحقيقية، بما يعمي الفرد عن حقيقة الشخص أو الشيء ويحرمه من الموضوعية، وغالبًا يكون الشخص محل هذا التقدير هو الرمز الذي يدور الجميع في فلكه، كالحاكم أو الرئيس الذي يقدسه وتدعمه الأغلبية، أو أحد المسئولين ذوي الشأن والمكانة في الدولة، أو القيادة الدينية، أو القيادة الحزبية، انتهاء برئيس أو رب العمل، والتقدير المثالي سبب رئيسي في آليات دفاعية تالية مثل التبرير والإزاحة والإنكار.

التبرير Rationalization

هو محاولة إيجاد أسباب وتفسيرات مقبولة للسلوكيات أو الدوافع غير المقبولة بل الخاطئة في معظم الأحيان، وهو ما قد يريح الإنسان مؤقتًا، ولكنه يعود عليه بعدم التوازن لاحقًا، وهو كذب لا شعوري، غير مدرك المصدر لخلق الأعذار لعمل فاشل، وكذب خفي على صاحبه لاعتقاده بأنه على حق، وهو يختلف تمامًا عن الكذب الواعي لأن الكذب هو حالة شعورية مقصودة، وغالبًا ما ينتج هذا التبرير من التقدير المثالي السابق

للشخص، وعادة ما يكون هذا الشخص من القيادات أو الرموز الدينية أو السياسية، فإن أخطأ هذا الشخص، وقام بما يتناقض مع التقدير المثالي الذي رسمه العقل الباطن في السابق، يقع العقل الباطن في صراع داخلي بين الصورة التي رسمها في السابق، وبين الواقع، فإما أن تنهار صورة الرمز بداخله، وهذا الأمر مؤلم نفسيًا، وإما أن يلجأ العقل الباطن لتبرير هذا الخطأ بطريقة لا تجعل التقدير المثالي السابق ينهار، ومن ثم يخمد القلق والضغط المتولد.

الإحلال أو الإزاحة Displacement

هي أن يقوم العقل الباطن بإلصاق المسئولية في أي شخص آخر غير الرمز المنزه عن الخطأ، لكن الفارق تلك المرة أنه لا ينفي الخطأ بل يعترف به، لكنه يلصقه بأي شخص آخر غير الرمز المسئول الحقيقي عن الخطأ، أي أنها هي إعادة توجيه اللوم نحو أشخاص غير الأشخاص الأصليين، أو تحويل المشاعر من مصدرها الحقيقي إلى شيء آخر أكثر أمانًا وقبولًا اجتماعيًا، فمثلًا يحول الشعب غضبه من فشل القائد المهلم إلى الوزراء والمسئولين المحيطين بالقائد، أو يحول الشعب غضبه من فشل الأوضاع من القائد إلى الشعب نفسه، أو مثلما حول البعض غضبهم من انتهاكات الداخلية وتعريتها لإحدى المتظاهرات، والتي عرفت بـ «ست البنات»، إلى الفتاة نفسه، وألقوا اللوم عليها بقولهم «إيه اللي وداها هناك»، وغالبًا ما ينتج هذا الإحلال من التقدير المثالي السابق للشخص.

الإسقاط Projection

هو محاولة العقل اللاواعي لاشعوريا، لإسقاط ما لديه من

سلبيات على الغير، كأن يرتشي أحدهم، فيدعي أن المجتمع كله فاسد ولا سبيل للإصلاح، ويتميز الإسقاط عن غيره من آليات الدفاع بكونه يتشكل بنوازع الفرد الذاتية، وشخصيته، وإرادته فليس صحيحا أن الإسقاط كله لاشعوريا.

القمع أو الكبت Repression

وهو محاولة دفن أو إخفاء الأحاسيس أو الأفكار المؤلمة من وعي الإنسان، أو نقلها من العقل الواعي إلى اللاواعي، وكبتها داخل النفس بشكل لاشعوري، لكون هذه المشاعر غير مقبولة أو مرفوضة من المجتمع، وهذه الأحاسيس أو الأفكار بدورها قد تعود لتظهر على السطح بصورة رمزية لاحقًا.

الإنكار Denial

هو رفض لاشعوري للاعتراف بالواقع أو الموقف المؤلم المسبب للتوتر أو القلق، واصطلح على تسميتها في الموروث الشعبي المصري البسيط بـ «دفن الرأس في الرمال»، ويحدث هذا الإنكار للحد من القلق ولحماية الشخص من الصدمة العاطفية والحزن الشديد على سبيل المثال من خلال رفض حقائق معينة حدثت بالفعل كوفاة قريب أو صاحب، أو حدوث كارثة بعينها، لكن أهم الأمثلة على الإنكار هي المتعلقة بتقديس رموز بعينها.

ومن أكثر الأمثلة شيوعًا إنكار وجود مرض خطير ومحاولة البحث عن تفسير آخر للأعراض المصاحبة، أو إنكار الجوانب السلبية للأنظمة الديكتاتورية من قتل وقمع واعتقال وتعذيب من قبل مؤيدي النظام حتى لا يضطرهم العقل الواعي إلى معارضته، ويعتبر الإنكار هو أشد الحيل النفسية خطورة على الإطلاق، لأن الإنكار كـ Defense mechanisms يشمل إنكار

المصـاب بحقيقـة مـا بداخلـه لـذا فالمصـاب هـو آخـر مـن يمكـن أن يصـدق أنـه مريـض بالإنـكار، لـذا فهـو حـتى لا يعطـي لعقلـه الفرصـة لاكتشـاف أعماقـه، ويرفـض العقـل اللاواعـي أي محاولـة خارجيـة لعـلاج اضطـراب الإنـكار، لأنـه يعـي جيـدًا أن الإنـكار كـ Defense mechanisms هـو وسـيلة مريحـة للعقـل ولتقليـل الألـم كالمخـدرات، ويرفـض حـتى مناقشـة حقيقـة مرضـه، ولا يتخلـص العقـل اللاواعـي مـن حيلـة الإنـكار إلا عندمـا يتعـرض المصـاب إلى درجـة شـديدة مـن الضغـط النفـسي لا يصمـد أمامهـا الإنـكار ولا أي وسـيلة دفاعيـة أخـرى، فتنهـار كل الحيـل الدفاعيـة دفعـة واحـدة، ويبـدأ عندهـا العقـل اللاواعـي في التفكـير في حقيقـة إصابتـه السـابقة، ومـن ثـم يـدرك أنـه كان حبيسًـا في سـجن الإنـكار، وغالبًـا مـا يحـدث أن تنقلـب توجهـات المصـاب إلى النقيـض تمامًـا، فنجـد أمثلـة عديـدة لأشـخاص مـن مؤيـدي الأنظمـة الديكتاتورية يمارسـون الإنـكار بشـكل دائـم ومسـتمر، حـتى يحـدث حـدث جلـل في حياتهـم فيجعلهـم ينتقلـون مـن النقيـض إلى النقيـض تمامًـا.

*هذا المقال تم مراجعته علميًا وطبيًا بواسطة طبيب أمراض نفسية وعصبية

عن سيكولوجية الجماهير

روت «سارة فؤاد» مراسلة موقع «الحكاية» تفاصيل الاعتداء عليها من بعض المواطنين في أثناء تصويرها تقريرًا بجوار نقابة المحامين، حيث قالت سارة على صفحتها الشخصية على موقع «فيس بوك»، إنه في أثناء تسجيلها تقريرًا مصورًا مع أحد المواطنين البسطاء، قام أحد المحامين بسبها وضربها مدعيًا أنها كارهة للسيسي وتتصيد المواطنين البسطاء لتشويه سمعة مصر، قالت سارة:

«أنا في حالة صدمة من امبارح ومكنتش عارفة أبدأ كتابة منين.. بس في الحقيقة أنا اتعرضت لأصعب موقف في حياتي كلها..

نزلت أصور امبارح الضهر في وسط البلد تحديدًا عند نقابة المحامين.. واللي شاف تقاريري هيعرف إني مش بخرج عن الإطار الكوميدي الساخر، يعني لا ليا دعوة بسياسة ولا غيره وبحتفظ بـ آرائي السياسية على صفحتي الخاصة فقط.

المهم.. صورت مع واحد شكله غلبان ولبسه متواضع، وهو اللي طلب يسجل معايا.. سألته سؤال كوميدي ورد عليا وفضل يتكلم ويقول كل اللي جواه بكل حب. وأنا بصور معاه فجأة جالي واحد قفل الكاميرا وقالي ينفع يعني تصوري مع واحد جربان وهدومه مقطعة وسايبة الناس المحترمة اللي زي وزي ناس كتير؟ ملقتيش غير المعفن ده تصوري معاه؟ والله العظيم قال كده بالحرف! وبقى يمسك هدوم الراجل يشدها ويقولي ده منظر تصوري معاه؟ ويحاول يقلعه بنطلونه ويقولي ده منظر تصوري معاه؟

هـي دي الواجهـة المشرفـة للبلـد؟ حسـبي الله ونعـم الوكيـل انتـم مـش محترمـين وولاد..... وانهـال عليـا انـا والمصـور بأقـذر الشـتايم، في لمـح البـصر لقيـت المواطنـين الشرفـاء اتلمـوا حوالينـا مـن كل مـكان زي القطيـع وفضلـوا همـا كمـان يشـتمونا ويبهدلونـا والـضرب بقـى جـاي مـن كل حتـة، ولمـا حاولـت أجـري، لقيـت واحدة سـت بتضربـني عـلى ضهـري بـكل غـل وناس تقـول احنـا عارفـين البت دي بتكـره السـيسي والنظـام وشـوية كنـت هتحـول لعنـصر إرهـابي يهـدد أمـن المجتمـع. عرفـت بعـد كـده ان الاسـتاذ الـلي تعـدى علينـا ده محامـي.

بعدهـا الشرطـة جـت تحفظـت علينـا شـوية وسـابتنا لمـا عرفـت إحنـا جايـين ليـه وبنعمـل إيـه.

أنا الحمد لله كويسة ولسه عايشة.. بس كل حاجة جوايا ماتت.

البلد دي غير صالحة للحياة الآدمية.. غير صالحة لأي حاجة.

عنصرية وغل وحقد وسفالة وكل حاجة ممكن تتقال.

مـش هقـدر انـسى نظـرة الراجـل الغلبـان وهـو بيتـذل. مـش هقـدر!

دمتم عبيد.

وحسبي الله ونعم الوكيل

وآسفة إني نكدت عليكو».

يفـسر الطبيـب الفرنـسي «جوسـتاف لوبـون» هـذا الأداء في كتابـه الأشـهر «سـيكولوجية الجماهـير» قائـلًا:

«الجماهـير مجنونـة بطبيعتهـا، فالجماهـير الـتي تصفـق بحماسـة شـديدة للقائـد العظيـم الـذي تؤيـده تعيـش لحظـة هلوسـة وجنـون، والجماهـير المهتاجـة الـتي تهجـم عـلى شـخص لـكي تذبحـه

دون أن تتأكد من أنه هو المذنب هي مجنونة أيضًا، فإذا ما أحبت الجماهير دينًا ما أو رجلًا ما تبعته حتى الموت، كما يفعل اليهود مع نبيهم والمسيحيون المتعصبون وراء رهبانهم والمسلمون وراء شيوخهم.

والجماهير اليوم تحرق ما كانت قد عبدته بالأمس، وتغير أفكارها كما تغير قمصانها، فالجماهير التي تضرب عن العمل تفعل ذلك من أجل طاعة الأوامر أكثر مما تفعله من أجل الحصول على زيادة الرواتب، ونادرًا ما تكون المصلحة الشخصية محركًا قويًا لدى الجماهير، في حين أنها تشكل المحرك الكلي تقريبا لدوافع الفرد الواحد، والفرد ما أن ينخرط في جمهور محدد حتى يتخذ سمات خاصة ما كانت موجودة فيه سابقًا، أو يمكن القول أنها كانت موجودة ولكنها كانت كامنة، لم يكن يجرؤ على البوح بها أو التعبير عنها بمثل هذه الصراحة والقوة، وكما أن روح الفرد تخضع لتحريضات المنوم المغناطيسي أو الطبيب الذي يجعل شخصا ما يغطس في النوم، فإن روح الجماهير تخضع لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذي يعرف كيف يفرض إرادته عليها، وفي مثل هذه الحالة من الارتعاد والذعر فإن كل شخص منخرط في الجمهور يبتدئ بتنفيذ الأعمال الاستثنائية التي ما كان مستعدا إطلاقا لتنفيذها لو كان في حالته الفردية الواعية والمتعقلة.

فالقائد الزعيم إذ يستخدم الصور الموحية والشعارات البهيجة بدلًا من الأفكار المنطقية والواقعية، يستملك روح الجماهير ويسيطر عليها، ففي كل الدوائر الاجتماعية من أعلاها إلى أسفلها نجد أن الإنسان يقع تحت سيطرة قائد ما، ونجد أن معظم الأفراد -خصوصا في الجماهير الشعبية- لا يمتلكون خارج دائرة اختصاصهم أية فكرة واضحة ومعقلنة، وبالتالي فهم عاجزون عن قيادة أنفسهم بأنفسهم.

هنـاك أسـباب عديـدة تتحكـم بظهـور الصفـات الخاصـة بالجماهـير، وأولهـا هـو أن الفـرد المنضـوي في الجمهـور يكتسـب بواسـطة العـدد المتجمـع فقـط شـعورًا عارمًـا بالقـوة، وهـذا مـا يتيـح لـه الانصيـاع إلى بعـض الغرائـز، ولـولا هـذا الشـعور بالقـوة لما انصـاع، وهـو ينصـاع لهـا طوعًـا واختيـارًا، لأن الجمهـور مُغفـل بطبيعتـه وبالتـالي فغيـر مسـئول. وبمـا أن الحـس بالمسـئولية هـو الـذي يـردع الأفـراد فإنـه يختفـي في مثـل هـذه الحالـة كليـا، لـذا فالخصائـص الأساسـية للفـرد المنخـرط في الجمهـور هـي: تـلاشي الشـخصية الواعيـة، هيمنـة الشـخصية اللاواعيـة، توجـه الجميـع ضمـن نفـس الخـط بواسـطة التحريـض والعـدوى للعواطـف والأفـكار، الميـل لتحويـل الأفـكار المحـرض عليهـا إلى فعـل وممارسـة مبـاشرة.

وهكـذا لا يعـود الفـرد هـو نفسـه، وإنمـا يصبـح إنسـانًا آليًّـا مـا عـادت إرادتـه بقـادرة عـلى أن تقـوده، فبمجـرد أن ينخرط الفـرد داخل صفـوف الجماهـير فإنـه يـنزل درجـات عديـدة في سـلم الحضـارة، والجمهـور ليـس بحاجـة لأن يكـون كثـير العـدد لـكي تدمـر إمكانيتـه عـلى الرؤيـة بشـكل صحيـح، ولـكي تحـل الهلوسـات محـل الوقائـع الحقيقيـة الـتي لا علاقـة لهـا بهـا، فيكفـي أن يجتمـع بعـض الأفـراد لـكي يشـكلوا جمهـورًا، وحـتى لـو كانـوا علمـاء متميزيـن، فإنهـم يتحلـون بـكل صفـات الجماهـير فيمـا يخـص الموضوعـات الخارجـة عـن دائـرة اختصاصهـم، ذلـك أن ملَكـة الملاحظـة والـروح النقديـة الـتي يمتلكهـا كل واحـد منهـم تضمحـل وتتبخـر، وفي زمـن المسـاواة لا يعـود البـشر يثقـون ببعضهـم البعـض بسـبب تشـابههم، ولكـن هـذا التشـابه يعطيهـم ثقـة لا حـدود لهـا، وذلـك لأنهـم يجـدون أنـه مـن غـير الممكـن ألا تكـون الحقيقـة في جهـة العـدد الأكـبر.

وبمـا أن الجميـع يمتلكـون نفـس العقـل، فـإن التاثـير المـزدوج للمـاضي والتقليـد المتبـادل، يؤديـان في نهايـة المطـاف إلى جعـل كل

البشر التابعين لنفس البلد ونفس الفترة متشابهين، إلى درجة أنه حتى أولئك الذين يتوقع منهم أن يفلتوا من هذا التشابه كالفلاسفة والعلماء والأدباء، يبدون متشابهين في أسلوبهم، ومطبوعين بطابع الفترة التي ينتمون إليها.

إن بساطة عواطف الجماهير وتضخيمها يحميها من عذاب الشكوك وعدم اليقين، فالجماهير كالنساء تذهب مباشرة نحو التطرف ولا تعرف المنطقة الرمادية، فما أن ينطلق خاطر ما حتى يتحول إلى يقين لا يقبل الشك، وبما أن الجماهير لا تعرف إلا العواطف البسيطة والمتطرفة فقط، فإن الآراء والأفكار والعقائد التي يحرضونها عليها تقبل كلها دفعة واحدة أو ترفض كلها دفعة واحدة، فإما أن تعتبرها كحقائق مطلقة أو كأخطاء مطلقة، ولحسن حظ الحضارة فإن هيمنة الجماهير على الحياة العامة لم تولد إلا بعد أن كانت الاكتشافات الكبرى للعلم والصناعة قد تحققت وانتهت.

الجماهير غير ميالة كثيرًا للتأمل، وغير مؤهلة للتفكير العقلي، ولكنها مؤهلة جدًا للانخراط في الممارسات والتنظيمات الجماهيرية التي تجعل قوتها ضخمة جدًا، والعقائد الجديدة التي نشهد ولادتها أمام أعيننا اليوم سوف تكتسب قريبا نفس قوة العقائد القديمة، أي القوة الطغيانية والمتسلطة التي لا تقبل أي مناقشة أو اعتراض، فلم تعد مقادير الأمم تحسم في مجالس الحكام وإنما في روح الجماهير، ولذلك فإن علم النفس الجماعي يفيدنا ويضيء عقولنا عندما يشرح لنا جذور تصرفاتنا العمياء، والأسباب التي تدفعنا للانخراط في جمهور ما، والتحمس أشد الحماس للزعيم، فلا ندرك فداحة ما فعلناه إلا بعد أن نستفيق من الغيبوبة، وربما جعلنا ذلك أكثر حيطة وحذرًا في الانبطاح أمام زعيم جديد قد يظهر.

الإنسان ليس متدينًا فقط عن طريق عبادة آلهة معينة، وإنما

أيضا عندما يضع كل طاقاته الروحية، وكل خضوع إرادته، وكل احتدام تعصبه في خدمة قضية ما، أو شخص ما، لذا فإن دور القادة الكبار يكمن في بث الإيمان سواء أكان هذا الإيمان دينيًا أم سياسيًا أم اجتماعيًا، إنهم يخلقون الإيمان بعمل ما أو بشخص ما أو بفكرة ما، ومن بين كل القوى التي تمتلكها البشرية نجد أن الإيمان كان أحد أهمها وأقواها.

هناك نمطان من الفكر فقط، الأول يستخدم الفكرة المنطقية أو العقلانية، والثاني يستخدم الفكرة المجازية أو الصورية، والأول يعتمد على قوانين العقل والبرهان والمحاجة المنطقية، أما الثاني فيعتمد على قوانين الذاكرة والخيار والتحريض، وأكبر خطأ يرتكبه القائد السياسي هو أن يحاول إقناع الجماهير بالوسائل العقلانية، لذا لكي نقنع الجماهير بفكرة ما أو عقيدة، ينبغي أولًا أن نفهم العواطف الجياشة في صدورها، وأن نتظاهر بأننا نشاطرها إياها، ثم نحاول بعدئذ أن نغيرها عن طريق إثارة بعض الصور المحرضة بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء، فليست الوقائع بحد ذاتها هي التي تؤثر على المخيلة الشعبية وإنما الطريقة التي تعرض بها هذه الوقائع.

عندما تفقد القوى الأخلاقية التي تشكل هيكل المجتمع زمام المبادرة من يدها، فإن الانحلال النهائي يتم عادة على يد الجماهير الكثيرة اللاواعية والعنيفة، لكن الأمل يكمن في الثورات التي تساعد على التدمير الكلي للعقائد التي أصبحت مهجورة، ولكنها لا تزال رازحة بسبب نير الأعراف والتقاليد.

والتقليص التدريجي للحريات لدى بعض الشعوب هو ناتج عن شيخوختها بنفس القدر عما هو ناتج عن النظم السياسية الديكتاتورية، على الرغم من بعض مظاهر التحلل والإباحية التي قد توهم هذه الشعوب بامتلاك الحرية، هذا التقليص في الحريات يشكل أحد الأعراض المنذرة بمجيء مرحلة الانحطاط،

الـتي لـم تسـتطع أي حضـارة في العالـم أن تنجـو منهـا حـتى الآن.

«جوسـتاف لوبـون» (١٨٤١ - ١٩٣١)، طبيـب ومـؤرخ فرنـسي، وأحـد أشـهر فلاسـفة الغـرب، درس الطـب، واهتـم بالطـب النفـسي وعلـم الانثروبولوجيـا، وأنتـج فيـه مجموعـة مـن الأبحـاث المؤثـرة عـن سـلوك الجماعـة، والثقافـة الشـعبية، ووسـائل التأثـير في الجمـوع، ممـا جعـل مـن أبحاثـه مرجعًـا أساسـيًّا في علـم النفـس، مـن أشـهر مؤلفاتـه «روح الثـورات والثـورة الفرنسـية»، «روح الجماعـات»، «السـنن النفسـية لتطـور الأمـم»، «روح السياسـة»، «حيـاة الحقائق» و«الآراء والمعتقـدات».

عن وهم التفوق الزائف
تأثير دانينج-كروجر
Dunning-Kruger Effect

لماذا يُنتخب الأغبياء؟ لماذا يصل ذوو الذكاء والإمكانيات والخبرات المحدودة إلى مراكز صنع القرار؟ لماذا يتهافت عوام الشعوب النامية على انتخاب الفشلة ومحدودي القدرات؟ لماذا يفشل الأذكياء وذوو المهارات الدقيقة في الوصول إلى المراكز التي يستحقونها؟ لماذا وُصفت الديمقراطية بأن أسوأ ما فيها هي أنها تسمح لمحدودي الخبرات بالوصول إلى مراكز السلطة؟ لماذا كان محدودو القدرات أكثر ثقة بذواتهم، وبالتالي أكثر قدرة على إقناع الآخرين بقدراتهم ومواهبهم الشخصية المحدودة أو المعدومة؟

في عام ١٩٩٥، نجح لص محدود الذكاء يدعى ماك أرثر ويلر McArthur Wheeler بالسطو على مصرف في بلدة بيترسبورج الصغيرة في مقاطعة رينسيلير بنيويورك وهو يضع بعضًا من عصير الليمون على وجهه، وبعد نجاحه في العملية الأولى قام بتكرارها في مصرف آخر وباللغرابة فقد نجح أيضًا للمرة الثانية، لكن لسوء حظه فقد اعتقلته الشرطة بعد عملية السطو الثانية بوقت قصير بعدما تعرفت على ملامحه في كاميرات المراقبة، الغريب أن ويلر قد سطا على المصرفين في ضوء النهار من دون أن يستخدم قناعًا أو أي أداة للتنكر كعادة لصوص المصارف في ذلك الوقت، وعندما عرض عليه رجال الشرطة تسجيل كاميرات المراقبة، اعترض ويلر قائلًا: «ولكني صبغت وجهي بعصارة الليمون»، فقد اعتقد اللص الساذج أنه لو صبغ وجهه بعصير

الليمـون فسـيصبح غـير مـرئي لكامـيرات المراقبـة، بمـا أن عصـير الليمـون يسـتخدم في الحـبر الـسري.

أثـارت الحادثـة تفكـير الباحثـين ديفيـد دانـنج David Dunning وجاسـتن كروجـرJustin Kruger مـن قسـم علـم النفـس بجامعـة كورنيـل Cornell في نيويـورك، فقامـا في عـام ١٩٩٩ بإجـراء اختبـار لفرضيـة تقـول «إن الأشـخاص الذيـن تنقصهـم المهـارة أو القـدرة في مجـال مـا، ينقصهـم أيضًـا إدراك قصورهـم في ذلـك المجـال»، وفي بدايـة ورقـة بحثهمـا استشـهد الباحثـان بسرقـة مـاك ارثـر ويلـر، وفي سـعي منهمـا لاختبـار فرضيـة أخـرى طلـب كروجـر ودانـنج مـن ٦٥ طالبًـا جامعيًـا أن يقومـوا ببعـض الأدوار الفكاهيـة والكوميديـة ثـم يقيمـون أداءهـم بأنفسـهم، وجـاءت النتائـج مثيرة للاهتمـام، حيث تبـين أن أولئـك الذيـن كان أداؤهـم متواضعًـا أو منخفضًـا، مالـوا للاعتقـاد بأنهـم كانـوا الأفضـل، بينمـا أولئـك الذيـن كان أداؤهـم هـو الأفضـل مالـوا للاعتقـاد بأنهـم كانـوا في المسـتوى العـادي، وأن أداءهـم لـم يكـن بالمسـتوى المطلـوب.

أعـاد الباحثـان التجربـة، لكـن هـذه المـرة باختبـارات للتفكـير المنطقـي وقواعـد اللغـة، ووجـد الباحثـان النمـط ذاتـه، أولئـك الذيـن أظهـروا أداءً سـيئًا كانـوا أيضًـا الأسـوأ في تقييـم قدراتهـم، وأكـثر ميـلًا للمبالغـة في تقديـر مهاراتهـم الخاصـة، ووضعـوا أنفسـهم فـوق المعـدل الطبيعـي، وحـتى عندمـا تـم الإفصـاح لأصحـاب الأداء الضعيـف والأقـل كفـاءة عـن مسـتواهم الحقيقـي، ظلـوا غـير قادريـن عـلى اسـتيعاب أنهـم كانـوا الأسـوأ وحـتى عندمـا تـم إعطاؤهـم نتائـج أداء الآخريـن، وفي تجربـة أخـيرة أعطى كروجـر ودانـنج مجموعـة مـن الأشـخاص ضعـاف الكفـاءة تدريبًـا في التفكـير المنطقـي الموضوعـي، فأدركـوا خطـأ اعتقادهـم السـابق بتفوقهـم الزائـف، ممـا أدى إلى تحسـين أدائهـم بالفعـل.

أثبتـت الدراسـة أن معظـم النـاس يعرفـون أقـل ممـا يعتقـدون

فعلًا، وأن أغلبهم يعتقد أنه لا يحتاج لمعرفة المزيد أصلًا، ولا يدرك أنه جاهل بنفسه، ويعتقدون أنهم يعرفون ما يهم فعلًا، وكلما زادت خبرة الشخص فهم حجمه الطبيعي حتى يصل لنقطة يكون تقديره لخبرته هو نفس خبرته الحقيقية، وسميت هذه الظاهرة بـ تأثير دانج-كروجر Dunning-Kruger Effect.

يعرف تأثير دانج-كروجر بأنه تحيز معرفي وعدم الدراية بمساحة الجهل الشخصية، ينتاب غير المؤهلين في مجال معين، بحيث يفترضون في أنفسهم تفوقًا وهميًا ويعطون لقدراتهم مستوى أعلى من التقييم مما هم عليه في الحقيقة، ينبع هذا التأثير بطبيعة الحال من عجز غير المؤهلين على التعرف على ما ينقصهم في مجال هم ليسوا على دراية به في الأصل، ويبدو هذا التأثير متجسدًا بشكل واضح في سرعة واندفاع حديثي العهد بكل مجال، بينما يكون الأكبر والأكثر خبرة أكثر تمهلًا وأقل يقينا بشأن الاتجاهات المطروحة لرؤيتهم للصورة بشكل أكبر وأوضح.

يفسر تأثير دانج-كروجر ميل الأشخاص المؤهلين لتقييم أنفسهم بمستوى أقل مما هم عليه في الحقيقة، حيث يقعون في وهم أن ما هو سهل بالنسبة لهم فهو أيضا سهل بالنسبة للآخرين، كما تفسر حالات الغرور والاعتداد بالنفس التي يبديها بعض المتقدمين للمنافسات الوظيفية أو المسابقات التلفزيونية حيث يتصرف بعضهم بطريقة واثقة من الفوز لدرجة تثير الشفقة، أو يفسر مثلًا مدى الثقة التي يبديها بعض مدعي العلم وهم يتحدثون بكل ثقة نفس عن اختراعاتهم المثيرة للسخرية، وقدراتهم العلمية الفذة المثيرة للغثيان.

ما أصبح معروفًا الآن بتأثير دانج وكروجر The Dunning-Kruger Effect هو مثال عما يدعوه علماء النفس اليوم بـ Meta-cognition والذي يعني «التفكير في التفكير»، واعتبر العلماء أن القدرة على

التفكير بوعي في التفكير هي حالة فردية من نوعها من رجاحة العقل، ويعتبر تأثير دانج-كروجر هو أحد معوقات التفكير السليم، فالإنسان يعاني عموما من عيوب في التفكير والاستنباط لأسباب عديدة مثل التحيز، والميول الشخصية، والاستشهاد بالمتاح، والولاء الثقافي، وعدم معارضة الأغلبية، والتركيز على إفحام الخصم بدلًا من الوصل للحقيقة المجردة، والاستشهاد برأي الأكثرية، والاستشهاد بالأقدمية، وإضفاء القدسية على الآراء الشخصية.

قديمًا قال الحكيم كونفوشيوس: «المعرفة الحقيقية هي معرفة الفرد بمدى جهله الشخصي»، وقال العالم الشهير تشارلز داروين: «الجهل في معظم الأحيان يولد ثقة أكثر مما تولده المعرفة»، وقال الكاتب الإنجليزي ويليام شكسبير: «الأحمق يظن نفسه حكيمًا بينما الحكيم يعرف نفسه أنه أحمق»، بينما قال الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل: «مُشكلة عالمنا تكمن في أن الأغبياء يغلب عليهم الثقة بالنفس، بينما الأذكياء يغلبهم الشك دائمًا، هؤلاء الذي يشعرون بالقَناع واليقين أغبياء، وهؤلاء الذين يملكون الخيال والفهم مملوءون بالشك والتردد».

مقال بدون عنوان
حتى لا ننسى

هـذا المقـال لا يعـبر بالـضرورة عـن رأي كاتبـه، إنمـا هـو يـترك للقـارئ حريـة تكويـن رأيـه الخـاص، بعـد تسـليط الضـوء عـلى أحـداث حقيقيـة، لا يمكـن للكاتـب أو القـارئ تغييرهـا.

١٧ مارس ٢٠١٢

«تـوفي مسـاء اليـوم في القاهـرة البابـا شـنودة الثالـث بابـا الإسـكندرية وبطريـرك الكـرازة المرقسـية عـن عمـر يناهـز ٨٩ عامـا بعـد صراع طويـل مـع المـرض» - الصحـف المصريـة.

٤ نوفمبر ٢٠١٢

«اختيـار الأنبـا تـواضروس بابـا جديـدًا للأقبـاط في مـصر» - الصحـف المصريـة.

١٩ أبريل ٢٠١٣

«السياسـة مـن الـتراب، أمـا الديـن فهـو مـن المقدسـات، والخلـط بينهمـا يسـقط الديـن ويفقـده جوهـره الحقيقـي، ولـذا فمـن الأفضل أن يتـم إبعـاد الديـن عـن السياسـة» - مـن حـوار البابـا تـواضروس في المؤتمـر الشـعبي الـذي أقيـم عـلى شرف زيارتـه الأولى لسـوهاج.

٣ يوليو ٢٠١٣

«بعد انتهاء المدة التي منحتها القوات المسلحة، وبعد لقاء مع قوى سياسية ودينية وشبابية، وبحضور د. محمد البرادعي رئيس حزب الدستور، ومحمود بدر ومحمد عبدالعزيز عن حركة تمرد، وسكينة فؤاد الكاتبة الصحفية، وجلال مرة الأمين العام لحزب النور، بجانب شيخ الأزهر أحمد الطيب، والبابا تواضروس بابا الأقباط الأرثوذكس، أعلن وزير الدفاع الفريق أول عبدالفتاح السيسي إنهاء حكم الرئيس محمد مرسي، على أن يتولى رئيس المحكمة الدستورية العليا إدارة شئون البلاد لحين إجراء انتخابات رئاسية مبكرة» - الصحف المصرية.

١٤ أغسطس إلى ١٨ أغسطس ٢٠١٣

«واعتدى الإخوان ومؤيدوهم على ما يزيد على مائة كنيسة، من بينها كنائس أثرية في صعيد مصر، وتنوعت الاعتداءات ما بين تشويه الجدران، والاقتحام، والنهب، وإطلاق الأعيرة النارية، وإلقاء الحجارة والمولوتوف، والحرق والهدم الجزئي أو الكلي، إضافة إلى المئات من حالات الاعتداء المنفصلة على مؤسسات وممتلكات ومنقولات خاصة بالأقباط، شملت ١١ مدرسة وجمعيتين ومكتبتين ومركز شباب ونادياً وملجئين وباخرتين وقاعتي عزاء ومسرحًا، إلى جانب العشرات من المحال التجارية والسيارات المملوكة للأقباط، بقيمة مبدئية للخسائر تتجاوز الـ ٢ مليار جنيه، إلى جانب ٨ ضحايا قتلوا بأيدي الإخوان» – ملخص لخسائر المسيحيين في مصر بعد فض اعتصامي رابعة والنهضة.

١٣ يناير ٢٠١٤

«قـول نعـم يزيـد النعـم.. وبنـاء عـلى هـذه المشـاركة والتوافـق حولـه، صـار حريًـا بنـا جميعـا أن نشـارك بإيجابيـة في هـذا الاسـتفتاء، وأثنـاء قـراءتي لمـواد الدسـتور تذكـرت ذلـك المثـل العـربي القديـم والقائـل قـول نعـم يزيـد النعـم» - جـزء مـن مقالـة البابـا تـواضروس بجريـدة الأهـرام.

١٦ مارس ٢٠١٤

«لمـا تبقـى البـلاد متعرضـة لعنـف وإرهـاب والجريمـة بهـذه الصـورة، إزاي نتكلـم عـن حقـوق الإنسـان في الوقـت ده؟ وتقاريـر حقـوق الإنسـان واضـح إنهـا تقاريـر مغرضـة وتقاريـر موجهـة وتـم إعدادهـا سـلفًا» - مـن مداخلـة البابـا تـواضروس الهاتفيـة مـع الإعلاميـة رانيـا بـدوي عـلى قنـاة التحريـر.

٢٣ مارس ٢٠١٤

«ثـورات مـا يطلـق عليـه الربيـع العـربي لـم تكـن ربيعًـا أو حـتى خريفًـا، وإنمـا شـتاء عـربي مدبـر حملتـه أيـادٍ خبيثـة إلى منطقتنـا العربيـة لتفتيـت دولهـا إلى مجـرد دويـلات صغـيرة لا حـول لهـا ولا قـوة» - مـن حـوار البابـا تـواضروس مـع جريـدة الوطـن الكويتيـة.

٢١ أبريل ٢٠١٤

«إنـني وقبـل رسـامتي بطريـركًا كتبـت في ثـورة ٢٥ ينايـر شـعرًا قلـت فيـه إنهـا ثـورة قـام بهـا أنـاس، وركبهـا آخـرون وسرقوهـا»، نافيًـا مـا نسـب إليـه حـول وجـود أيـادٍ خبيثـة تقـف خلـف ثـورة ٢٥ ينايـر - مـن حـوار البابـا تـواضروس مـع صحيفـة جـود نيـوز الكنديـة.

٣٠ أبريل ٢٠١٤

«الخلط بين الاثنين يفسد كليهما، ومن يرى أن الكنيسة تلعب دورًا سياسيًا لا يفكر جيدًا، والكنيسة تحتفظ بنقاوتها بعيدًا عن السياسة»، مؤكدًا أن «الكنيسة ليست مؤسسة سياسية على الإطلاق» - من حوار البابا تواضروس مع الإعلامية بسنت حسن مقدمة برنامج «مثير للجدل» على التليفزيون المصري.

٦ يوليو ٢٠١٤

«الكنيسة هي الممثل السياسي للأقباط وستظل كذلك» - من حوار الأنبا يؤانس أسقف أسيوط مع عزت بولس لموقع «الأقباط متحدون».

١ سبتمبر ٢٠١٤

«وطن بلا كنايس أفضل من كنايس بلا وطن» - من لقاء البابا تواضروس مع «فليب برزر» خبير شئون الشرق لسفير الفاتيكان لدى الأمم المتحدة.

٢٦ أكتوبر ٢٠١٤

«إعفاء الراهب القس إليشع المقاري من مسئولياته في هذه المنطقة» - من بيان الكنيسة الأرثوذكسية بخصوص دير وادي الريان، مذيل بتوقيع البابا تواضروس وعدد من الأساقفة، مما يعد اعترافًا رسميًا من قبل الكنيسة بوجود راهب على الأقل، مكلف من قبل الكنيسة بمسئوليات كنسية في منطقة وادى الريان.

٤ نوفمبر ٢٠١٤

«الديـن مثـل البيضـة، والسياسـة كالحجـر إذا اختلطـا خسرناهمـا» - مـن حـوار البابـا تـواضروس لقنـاة ORTHODOX TV CHANNEL SOYUS الخاصـة بالكنيسـة الروسـية الأرثوذكسـية.

٤ يناير ٢٠١٥

«إن حـادث ماسـبيرو كان خدعـة مـن الإخـوان للشـباب المسـيحي، اسـتدرجوهم لمواجهـة الجيـش ثـم تركوهـم» - مـن حـوار البابـا تـواضروس مـع قنـاة سـكاي نيـوز.

مارس ٢٠١٦

«ديـر أنبـا مكاريـوس السـكندري بـوادي الريـان ليـس ديـرًا، وأن سـكانه ليسـوا رهبانًـا، وأنـا مسـئول عـن هـذا الـكلام» – البابـا تـواضروس خـلال إجابتـه عـلى أسـئلة أحـد الشـباب في الملتقـى السـنوي الثالـث للشـباب المغتربـين بـوادي النطـرون.

٢٢ مارس ٢٠١٦

«يسـتنكر المجمـع المقـدس للكنيسـة القبطيـة الأرثوذكسـية الأفعـال المشـينة الـتي صـدرت عـن قلـة مـن السـاكنين في وادي الريـان وخروجهـم عـن القانـون المـدني، رغـم أن العـدد الأكـبر منهـم يرغبـون في حيـاة هادئـة ربمـا تؤهلهـم مسـتقبلًا أن يكونـوا رهبانًـا بصـورة قانونيـة صحيحـة معـترف بهـا كنسـيًا، ويؤكـد المجمـع المقـدس أنـه حـتى الآن لـم يُعـترف كنسـيًا بهـذا المـكان كديـر في

الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كما أن ارتداء الساكنين فيه زيًا أسود لا يعني أنهم رهبان، (...)، وأي خطابات تحمل توقيع قداسة البابا -خاصة في بداية حبريته- كانت بقصد التعامل مع الجهات الحكومية كالمحافظة والآثار تمهيدًا للاعتراف بهذا الكيان كنسيًا، ولم تكن اعترافًا أو تقنينًا لدير أو لرهبان (...)، وننوه إلى أن وجود بطاقات الرقم القومي مع بعضهم تحمل صفة راهب قد تم بغير تدقيق، ولا يعني كنسيًا الاعتراف بوضعهم كرهبان، وربما كان الأمر للتعامل أيضًا مع الجهات المدنية» - من بيان المجمع المقدس بخصوص أزمة دير الريان.

٥ أبريل ٢٠١٦

«واحد ارتكب حاجة، واحد ارتكب خطأ.. إيه المطلوب؟» - البابا تواضروس معلقًا عن حبس راهب دير الريان في حواره مع قناة صدى البلد، مخليًا مسئوليته نهائيًا عن الراهب المسجون.

١٥ أبريل ٢٠١٦

«حقوق الإنسان موضة غربية»، و«الغرب يتعامل مع هذا الملف بمصر كموضة»، و«كل مجتمع أدرى بظروفه، وأنا دائمًا أقول أن مطالبة الحق في غير وقته ليس حقًا» - من لقاء البابا تواضروس مع برنامج «يوم بيوم» عبر فضائية «النهار اليوم».

١٦ أبريل ٢٠١٦

«حادثة مقتل الباحث الإيطالي جوليو ريجيني مجرد جريمة.. وقعت على أرض مصر، ربما فيها شبهات أنها مقصودة لوضع أزمة ما بين بلدين متحابين وحاسس أن الموضوع مُضَخّم أكتر من اللازم» - من حوار البابا تواضروس مع الإعلامية «ريهام

السـهلي» عـلى فضائيـة «النهـار اليـوم».

١١ سبتمبر ٢٠١٦

«سـيقوم رئيـس جمهوريـة مـصر العربيـة السـيد عبدالفتـاح السـيسي بزيـارة منطقـة نيويـورك لإلقـاء كلمـة مـصر في الأمـم المتحـدة، لذلـك يجـب عـلى جميـع المصريـين المخلصـين لبلادهـم المصريـة الترحيـب بـه وتدعيمـه في كل عمـل يعملـه مـن أجـل خـير مـصر.

إن قداسـة البابـا تـواضروس مهتـم اهتمامًـا كبـيرًا بنجـاح هـذه الزيـارة، وقـد قـام بانتـداب نيافـة الأنبـا يؤانـس، أسـقف أسـيوط، ونيافـة الأنبـا بيمـن، أسـقف نقـادة وقـوص، للإعـداد لهـذه الزيـارة الهامـة. كمـا أرسـل رسـالة يحثنـا فيهـا عـلى عمـل كل شيء ممكـن لإنجـاح هـذه الزيـارة، ممـا يعـود بالخـير عـلى مـصر وكل المصريـين الذيـن هـم إخوتنـا. ونحـن أيضـا اكليروسـا وشـعبا نرجـو أن تـأتي هـذه الزيـارة بالثمـار المرجـوة منهـا لصالـح مصرنـا الحبيبـة وتأييـد فخامـة الرئيـس الـذي يعمـل بـلا كلـل مـن أجـل مصلحـة مـصر. إن تواجدنـا في هـذا اليـوم تأييـدا للرئيـس يمثـل رسـالة قويـة أمـام كل العالـم وأمـام جميـع مـن لا يريـد الخـير لبلادنـا المحبوبـة مـصر.

الرجـاء مـن الآبـاء الكهنـة التنبيـه عـلى هـذا الحـادث بتدقيـق شـديد، وتشـجيع الشـعب عـلى التواجـد أمـام مبنـى الأمـم المتحـدة مـن السـاعة التاسـعة صبـاح يـوم الثلاثـاء ٢٠ سـبتمبر»، وسـوف تقـوم كل كنيسـة بترتيـب وسـيلة الانتقـال ذهابًـا وإيابًـا» - بيـان المقـر البابـوي للكنيسـة الأرثوذكسـية بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة بالتعـاون مـع إيبارشـية نيويـورك.

١٤ سبتمبر ٢٠١٦

«مع كل احترامي وحبي لكنيستي.. آن الأوان للكنيسة أن تتنحى عن مجال السياسة.. علمانية الدولة هي ضمان لشعبنا أنه يبقى مواطن متساوي في الحقوق.. وجودكم في الصورة بيعطي ذريعة لوجود الخصم لشعب مصر» - من كلمة أحد المسيحيين المقيمين في أمريكا أثناء حضوره الاجتماع الذي عقده الأنبا بيمن أسقف نقادة، والأنبا يؤانس أسقف أسيوط، بكنيسة مارجرجس والأنبا شنودة بجيرسي سيتي لحشد أقباط المهجر في نيويورك ونيوجيرسي لاستقبال السيسي، قبل أن يجاوبه الأنبا بيمن قائلًا:

«يوم المنى ويوم الفرح ويوم السعد يوم ما الكنيسة لا تشير بقليل أو بكثير لأمر سياسي، لكن لازم نحسن وناخد بالنا من التعبير (..) أي سياسة تقصدها اللي أنا أبعد عنها؟ هو اللي أنا بعمله هنا ديه وطنية مني مش سياسة.. سياسة ايه؟ هايديني نشان؟ ولا هايديني فلوس؟ متأسف.. ديه وطنية مني وغيرة على بلدي (..) أنا عايز أطمن على بلدي ومش عايز بلدي تتأذى من خلال ولاد الكنيسة، ومش عايز ولادي اللي هناك يتعمل عليهم رد فعل سلبي، هو أنا لقيت الحكماء من ولاد الكنيسة العلمانيين جدًا اللي قالولنا متخافوش ومتعولوش هم، والموضوع ده رائع جدًا واحنا هانتبناه مية في المية؟ ولا احنا لقينا ايميلات ولقينا فاكسات ولقينا بوستات على الانترنت كله كلام زي السم.. أسكت ولا أتدخل؟ أسكت ولا أجي أقولك ان اللي أنت بتعمله ده مش في محله؟ (..) هي أنت لقيتني أنا طلعت بره روحت ماسك يافطة وواقف بيها أنا شخصيًا؟ أنا مش هاعمل كده.. أنا بقولك أنت.. أنا بقول لابني اللي هايفهمني واللي هايحس بيا وفيه روح ربنا».

١٤ سبتمبر ٢٠١٦

«نصلي لنجاح زيارة الرئيس السيسي لأمريكا لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة» - من كلمة البابا تواضروس خلال عظته الأسبوعية يوم الأربعاء بكنيسة السيدة العذراء مريم ببرج العرب بالإسكندرية.

١٥ سبتمبر ٢٠١٦

«متنسوش أيام الإخوان، واحنا بنعيش أحسن أيامنا.. الأيام ديه أحسن أيام.. مش بجامل، فـ ليه إحنا جايين، وليه بنستقبل الريس؟ احنا ليه، البابا تواضروس باعتنا؟ علشان نحفز الأقباط إنهم يطلعوا يستقبلوا الريس استقبالًا حسنًا، ليه؟ عشان فيه مجموعة تانية منظمة هاتطلع تهاجم سيادة الريس، وتتطاول على سيادة الريس، فعشان كده يا جماعة يا أقباط ياللي كتار في نيويورك ونيوجيرسي، نطلع نقول الحق بس! نحن لا نقبل أن نقول إلا الحق!»، «فيه علينا مؤامرة بالنسبة للدولار، وأزمة الدولار، وأحداث المنيا خلت شعبية الرئيس السيسي عند الأقباط تقل»، «دلوقتي فيه مشاكل اقتصادية، ما هي مؤامرة عليه وعلينا، وفيه شوية مشاكل في المنيا، واحنا حاسين إن المشاكل الاقتصادية هزت السيسي في قلوب الأقباط، والراجل ملهوش ذنب، فيه مؤامرة عليه»، «ده فيه كنيستين في القاهرة.. بالتليفون بس.. ولا ليها ورق.. كل ده هايتقنن.. يساوي إيه ديه؟ وكله خد وهات، والدنيا سلف ودين، واللي فيكو يهمه أهله في مصر يروح يستقبله»، «طالما سيدنا باعت حد.. يبقى نعلي راسه، ولابد أن يعلم الجميع أن الأقباط هنا قوة، وإذا خرج

عـدد صغـير منـا سـنظهر كضعفـاء» - مـن كلمـة الأنبـا يؤانـس أسـقف أسـيوط لحشـد أقبـاط المهجـر في نيويـورك ونيوجـيرسي بكنيسـة السـيدة العـذراء والأنبـا مـوسى الأسـود التابعـة لإيبارشـية نيويـورك لحشـد أقبـاط المهجـر في نيويـورك ونيوجـيرسي لاسـتقبال السـيسي.

١٦ سبتمبر ٢٠١٦

«الأقبـاط يحبـون الرئيـس بصـدق، ولا يحتاجـون إلى مـن يدعوهـم لإظهـار مشـاعر الحـب والاصطفـاف خلـف قيـادة الدولـة المصريـة» – مـن تصريحـات الأنبـا سرابيـون أسـقف لـوس انجلـوس ورئيـس مجلـس أسـاقفة أمريـكا لموقـع مبتـدأ.

١٦ سبتمبر ٢٠١٦

«فلنخـرج جميعًـا لاسـتقبال رئيـس مـصر السـيد عبدالفتـاح السـيسي يـوم إلقـاء كلمتـه بالأمـم المتحـدة، فليـس معـنى الحريـة أننـا ننعـم ونتمتـع بحريتنـا، ونـترك إخوتنـا في بلدنا يعانون ويقاسـون نتيجـة أعمـال وأقـوال غبيـة ونظـن أننـا أحـرار، الحريـة الحقيقيـة أن تتـصرف بكامـل حريتـك، بـشرط أن حريتـك لا تـؤذي آخـر غـيرك لا باللفـظ، ولا بالفعـل، وهنـاك ملاحظـة في غايـة الخطـورة، وهـي أن أي فعـل خطـأ مـن أي قبطـي مقيـم ومتنعـم بالحريـة في أمريـكا، مثـال كتابـة مقـال بـه شـتائم لمـصر، أو تطـاول عـلى حكومـة مـصر، أو محاولـة التقليـل مـن دور وعمـل رئيـس الدولـة السـيد عبدالفتـاح السـيسي، فـلا يصـح أنـك تتكلـم وتتظاهـر أنـك حـر وفي مجتمـع حـر كأمريـكا، وتتغـاضى عـن إخوتـك المقهوريـن في مـصر، فنحـن نعلـم حجـم ومقـدار السـلبيات الـتي يُعـاني منهـا الشـعب المـصري عمومًـا والأقبـاط خصوصًـا، ولكـن يجـب أن نكـون منصفـين و«حقانيـين» ونشـهد للحـق بالحـق أن الأوضـاع عمومًـا في مـصر تتحسـن، وأوضـاع

الأقباط في مصر إلى الأفضل، اعلم يا عزيزي أن الـREACTION (رد الفعل) كله سيكون على إخوتك المقيمين في مصر، وهذا ما لا يرضاه ضميرنا ولا ديننا ولا مبادئنا فيجب أن ننتبه جيدًا لما نقوله، ولما نفعله» - من تدوينة القس مكاريوس ساويرس عبر حسابه بموقع التواصل الاجتماعي فيس بوك.

١٧ سبتمبر ٢٠١٦

«كرامة مصر ممثلة في استقبال رئيس مصر بكل ما يليق» – من تصريحات البابا تواضروس لـ«المصري اليوم».

١١ ديسمبر ٢٠١٦

«انفجرت عبوة ناسفة في قلب الكنيسة البطرسية الملاصقة للكاتدرائية المرقسية، أثناء صلاة قداس الأحد، واستشهد على إثرها ٢٨ فردًا، أغلبهم من النساء والأطفال، وأصيب نحو ٣١ آخرون، قبل أن يعلن تنظيم الدولة الإسلامية داعش مسئوليته عن التفجير» - الصحف المصرية.

١١ ديسمبر ٢٠١٦

«عايز أقول كلمتين، أنا وأنا هناك النهاردة والمسئولين في الأمن قالولي قول كلمة للي عاملين مظاهرات، فأنا بقول للشعب المسيحي، إحنا مش بتوع مظاهرات، إحنا عندنا أمر بيقول اخضعوا للرئاسات والسلاطين، يعني سمعت النهاردة أولادنا بيقولوا ايه؟ يانموت زيهم يانجيب حقهم، مستوردين الكلام ده منين؟ من بره».. «إحنا مبنستعملشي كلام مستورد، هانجيب حقهم إزاي؟ بدراعنا؟.. ربنا مقالش كده، بقلة الأدب؟.. ربنا مقالش كده، بالخناق؟.. ربنا مقالش كده، مين اللي هايجيبلنا

حقنا؟ هو وحده بس، يبقى نرفع ايدينا ونصلي.. إحنا عندنا أمر إن إحنا نخضع، مش عن جبانة، ولا عن خوف لكن تنفيذ وصية رب المجد يسوع.. اخضعوا للرئاسات والسلاطين، ولينا محامي قدير هو اللي يجبلنا حقنا.. آمين؟» - من عظة الاب مكاري يونان بالكاتدرائية القديمة بكلوت بك.

١٩ فبراير ٢٠١٧

«نشر تنظيم داعش الإرهابي إصدارًا مصورًا يهدد فيه الأقباط بالقتل، وعرض الفيديو الرسالة الأخيرة للانتحاري المسئول عن تفجير الكنيسة البطرسية في ١١ ديسمبر الماضي، الذي أسفر عن استشهاد ما لا يقل عن ٢٨ شخصًا، وظهر في التسجيل المصور رجل ملثم قيل إنه أبوعبدالله المصري يتوعّد: أخيرا لإخواني الأسرى أبشروا أيها الموحدون لا تهنوا ولا تحزنوا. وهدد أحد الإرهابيين، في التسجيل المصور ومدته ٢٠ دقيقة بعمليات أخرى تستهدف الأقباط».

٤ يناير ٢٠١٧

«أعترض على كلمة اضطهاد، فعندما تقرأ التاريخ المصري المسيحي كلمة اضطهاد كانت تعلن في أيام الدولة الرومانية، أيام دقلديانوس أعلن الاضطهاد وبنوده واحد اتنين ثلاثة أربعة وكأنه قرار، فكلمة اضطهاد خارج النطاق، «مصر لم تعرف عنفا، مصر التي تشرب من مياه النيل لا تعرف عنفا أبدًا» – من حوار البابا تواضروس مع جريدة الأهرام المصرية.

٢٣ فبراير ٢٠١٧

«لقي قبطي مصرعه، مساء اليوم الخميس، في مدينة العريش،

برصاص العناصر التكفيرية، أمام زوجته وأولاده في منطقة حي الزهور والقبطي قتيل اليوم هو السادس خلال الأسبوعين الماضيين، بعد مقتل خمسة، بينهم طبيب ومدرس وتاجر ومسن ونجله الذي وجد جثمانه محروقًا قبل ثلاثة أيام في مدينة العريش» – خبر بموقع مصراوي.

٢٤ فبراير ٢٠١٧

«استهداف المسيحيين محاولة لضرب الوحدة الوطنية» - بيان للكنيسة القبطية الأرثوذكسية يدين أحداث العريش.

٢٤ فبراير ٢٠١٧

«بسبب هذه الحوادث رحل ١٠٠٠ قبطي، عن مدينة العريش منذ الأسبوع الماضي» - تصريحات للأنبا بموا أسقف السويس.

١ مارس ٢٠١٧

«أرفض إطلاق لفظ التهجير على أقباط سيناء.. تعبير تهجير الذي شاع في الإعلام هذا تعبير مرفوض تمامًا» – من كلمة البابا تواضروس التي تم بثها عبر القنوات المسيحية لمواساة الأقباط المهجرين من العريش.

١ مارس ٢٠١٧

«حقوقيون يحرضون بالترويج لعدم قدرة الدولة على حماية الأقباط، وهناك استغلال من بعض المناهضين للدولة وبعض العاملين بمجال حقوق الإنسان بالبلاد، لانتقال الأسر إلى محافظة الإسماعيلية والترويج لعدم قدرة الدولة على حمايتهم واستغلال

الحدث لمهاجمة الشرطة والجيش، وهو غير صحيح»، «لا يوجد تهجير أو نزوح للأقباط كما روج البعض، وأن انتقال الأسر المسيحية مؤقت وليس دائمًا، وتم بمحض إرادتهم من منطلق الخوف» - مصدر كنسي بحسب ما كتبت جريدة اليوم السابع.

٢ مارس ٢٠١٧

«أوضاع المسيحيين المصريين تحسنت مع ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣»، و«مازال في الطريق خطوات أخرى تعبر عن المواطنة الكاملة، وعدم التميز والمساواة، موضحًا أنه بين الوقت والآخر تحدث بعض المشكلات بسبب الفقر، أو الجهل، أو التعصب، أو الازدحام، وتحاول الكنيسة مع الدولة أن تحل هذه المشكلات في إطار الأسرة المصرية الواحدة» - من تصريحات البابا تواضروس خلال استقباله للمستشارة الألمانية إنجيلا ميركل بالكاتدرائية المرقسية بالعباسية.

٢٢ فبراير ٢٠١٧

«ألمانيا ترفض اللجوء الديني للأقباط» و«مسئولو الخارجية الألمانية اعتمدوا في رفض طلبات اللجوء الديني المقدمة من أقباط مصر على تصريحات البابا تواضروس، التي أكد فيها خلال لقاءاته مع مسئولين دوليين، أو كررها في تصريحات إعلامية، تحسن الأوضاع في مصر، وأن الأقباط يعيشون أزهى عصورهم في عهد الرئيس عبدالفتاح السيسى» - جريدة الوطن.

٩ مارس ٢٠١٧

«هناك ستة آلاف أسرة قبطية تم رفض لجوئها في ألمانيا منهم ألف أسرة يتوقع ترحيلهم بحلول يوليو القادم»

مـن تدوينـة الأسـتاذ مجـدي خليـل رئيـس منتـدى الـشرق الأوسـط للحريـات، عـبر حسـابه بموقـع التواصـل الاجتماعـي فيـس بـوك.

٩ مارس ٢٠١٧

«السـيسي يصنـع المسـتقبل لأولادنـا» - مـن كلمـة البابـا تـواضروس الـتي ألقاهـا خـلال اسـتقباله بديـوان عـام محافظـة بـني سـويف، بحضـور المحافـظ والقيـادات الأمنيـة والعسـكرية.

سـؤال التعبـير الثالـث الثانـوي – امتحـان نهايـة العـام ٢٠١٦ – ٢٠١٧ (سـؤال إجبـاري)

في ضـوء مـا سـبق، اكتـب خطابًـا فيمـا لا يقـل عـن عـشرة أسـطر لقداسـة البابـا تـواضروس الثـاني تقنعـه فيـه بـضرورة الكـف عـن إقحـام الكنيسـة في السياسـة مستشـهدًا بكلمـات البابـا تـواضروس نفسـه بـضرورة عـدم إقحـام الكنيسـة في السياسـة.

فهرس

لا أحد يتعلم من التاريخ - انقلاب البرازيل ١٣
لا أحد يتعلم من التاريخ - مجنون ألمانيا ٢١
لا أحد يتعلم من التاريخ - انقلاب السودان ٢٩
لا أحد يتعلم من التاريخ ديكتاتور إيران - مرحلة ما قبل الثورة ٣٥
لا أحد يتعلم من التاريخ ديكتاتور إيران - مرحلة ما بعد الثورة ٤٥
لا أحد يتعلم من التاريخ ثورة رومانيا - مرحلة ما قبل الثورة ٥٥
لا أحد يتعلم من التاريخ ثورة رومانيا - مرحلة ما بعد الثورة ٦٩
العسكر والديمقراطية أزمة مارس ٥٤ مثالًا ٧٩
كيف صار هؤلاء رؤساء للجمهورية؟ ٩٥
من قال لا في وجه من قالوا - شارل ديجول ١٠٥
من قال لا في وجه من قالوا نعم - جاي فوكس ١١٧
من قال لا في وجه من قالوا نعم - أبو الخير نجيب ١٢٥
سيناريو فيلم سياسي الجزء الأول ١٣٣
سيناريو فيلم سياسي الجزء الثاني ١٤٣
سيناريو فيلم سياسي الجزء الثالث ١٥٧
عن سيكولوجية الانصياع والطاعة - تجربة ميلجرام ١٦٧
متلازمة اتباع سلوك الأغلبية ١٧٣
متلازمة إنكار الواقع ١٧٧
عن سيكولوجية الجماهير ١٨٣
عن وهم التفوق الزائف - تأثير دانج كروجر ١٩١
مقال بدون عنوان حتى لا ننسى ١٩٥

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتَّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تتـرددش. ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678- 0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing